دعوة الحق

• شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
• تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. المغرب



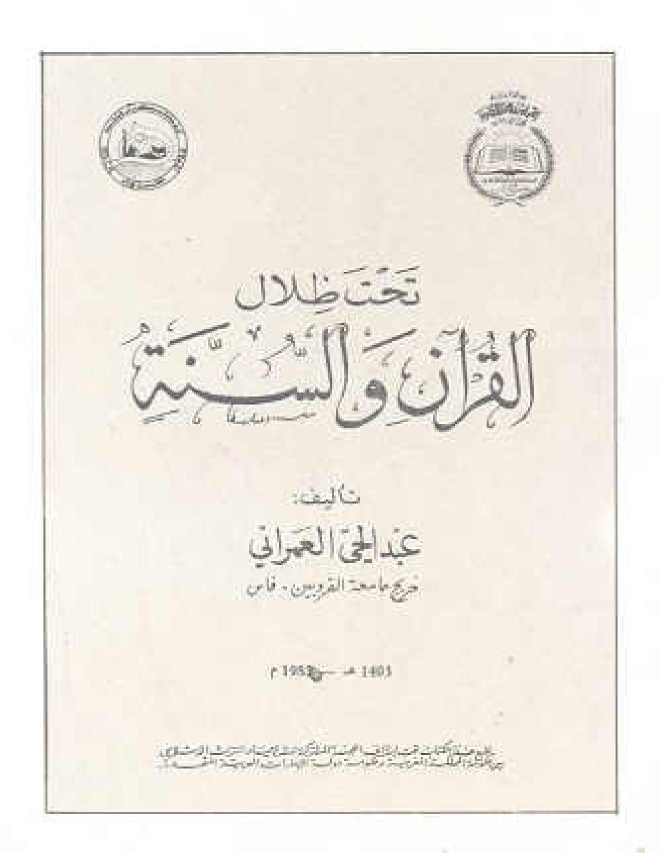
ربيع الأول 1404هـ / دجنبر 1983م

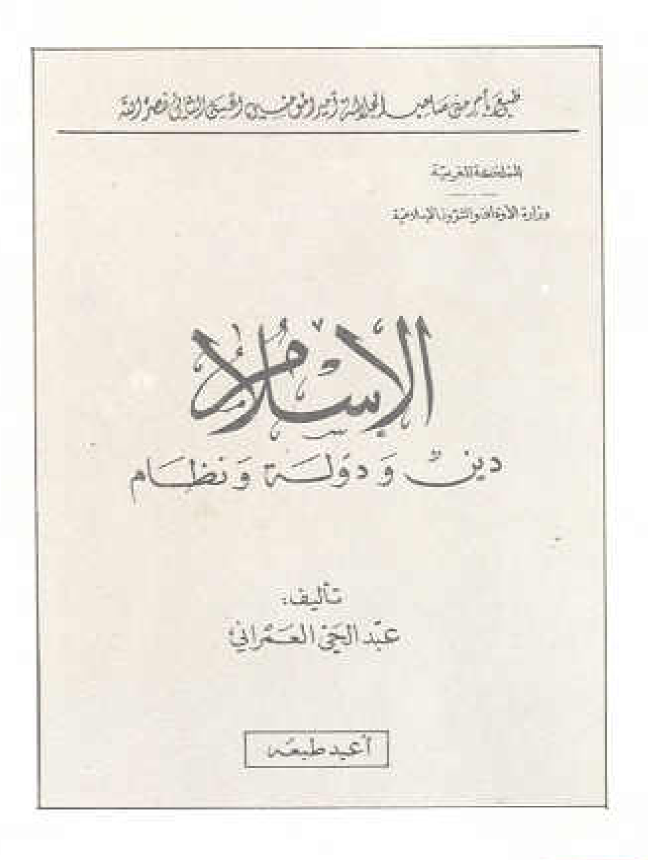
الثمن : 5 دراهم

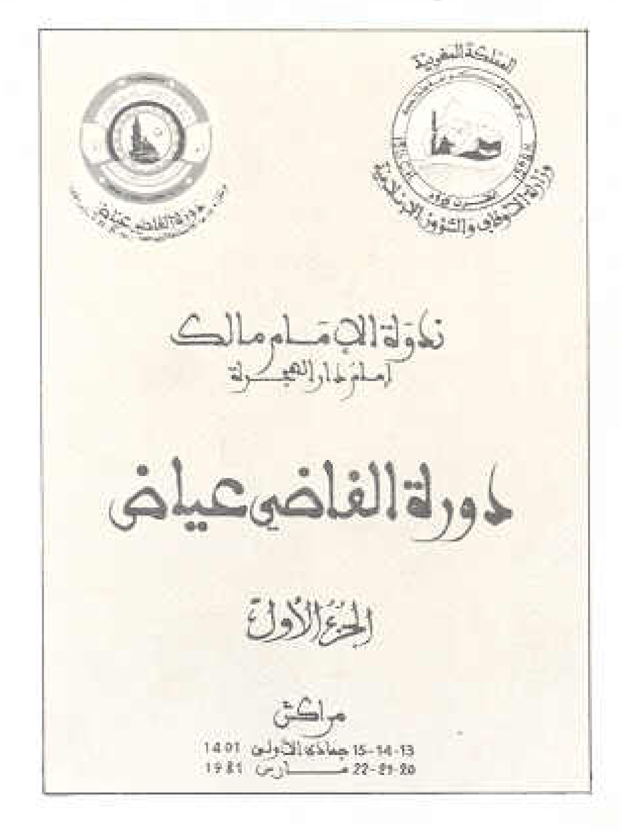
من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية

ROYAUME DU MAROC

Message du commandeur
des croyants,
S. M. le Roi Hassan II,
à la nation musulmane,
à l'occasion du début
du XV^ème siècle
de l'ère hégirienne.









شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات:
في المملكة المغربية: 55 درهما
في البلاد العربية: 67 درهما
في العالم: 77 درهما

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

هذا العدد

• • من موضوعات هذا العدد مقال نفيس القيمة للاستاذ الكبير السيد عبد الله كنون عن الازهر . ننقله عن الكتاب التذكاري للازهر الذي صدر بمناسبة العيد الالفي. وهو موضوع جد مهم ، لانه من جهة يستعرض كفاح الازهر كجامعة وكرباط ، ولانه من جهة اخرى بقلم احد اعلام القرويين الكبار . وكانه تحية من القرويين الى الازهر .

• و (دعوة الحق) اذ تكبر في الاستاذ السيد عبد الله كنون هذا الداب الصبور على البحث والكتابة والنشر واثبات الحضور المغربي في محافل العلم والثقافة والفكر بالمشرق العربي تشكره — في عمق — على ايثاره نشر هذا البحث القيم عن الازهر في هذه المجلة .

• • وننشر في هذا العدد محاضرة قيمة للاستاذ محمد العربي الخطابي محافظ الخزانة الحسنية افتتح بها موسم المحاضرات للمركز الثقافي المصري بالرباط ادارها حول موضوع شيق طريف واختار لها عنوان (مصر والمغرب : خواطر وذكريات) .

• وموضوع (مصر والمغرب) من الموضوعات الثقافية الهامة . واذا تجاوزنا التفاصيل التي لا يسمح بها هذا الحيز فاننا يمكن ان نقول ان القارة الافريقية لم تكن تعرف في عصر من عصورها سوى (مصر والمغرب) . فهما معا الرائدتان ، والقائدتان ، والدولتان الام في افريقيا . ومن هنا تاتي اهمية محاضرة الاستاذ الخطابي ، هذا بالاضافة الى ما تتضمنه من معلومات وفوائد وحقائق وانطباعات ومشاعر حب وعرفان . وانها محاضرة الموسم دون منازع .

• • ومن موضوعات هذا العدد بحث ممتاز كتبه الاستاذ الكبير امحمد عزيمان منذ 36 عاما ونشره في مجلة (المعرفة) التي كانت تصدر بتطوان في العدد 7 من سنتها الاولى عام 1948 بعنوان : (فضل المغرب على الحضارة البشرية : مصدران كان لهما اثر بعيد في تشويه التاريخ المغربي : رسالة الشفندي وكتابات دوزي) . وذلك كاول مادة ننشرها ضمن بابنا الجديد : (في الصحافة المغربية قبل 35 عاما) . وأهمية المقال تاتي من قيمة كاتبه كاحد رواد القلم والتربية والتعليم في المغرب ، وجدية الموضوع وحيويته لما يطرحه من قضايا تاريخية مهمة .

رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

الوجه الفكري لمعركة الأمة

●● تتميز المرحلة الفكرية في الوطن العربي والاسلامي بهجوم عنيف تشنه اقلام ينتمي اصحابها الى الامة ضد قمم واعلام ومصابيح هدى وهداية وتنوير ويقظة كانت لها مواقفها المشهودة في الـذود عن الاسلام والدفاع عن العروبة والجهاد في سبيل تحرير العقل العربي الاسلامي من قيود التخلف واصفـــاد التبعيـــة .

● وليس مهما ان ناتي على ذكر الاسماء سواء منها المهاجمة او تلك التي استهدفت للهجوم ما دامت العبرة في استخلاص المعنى من هذه الظاهرة التي اصبح واضحا انها تهدف الى الاهداف التالية :

● اولا : اتخاذ الهجوم على الشخصيات الاسلامية وسيلة للنيل من الفكرة التي شكلت المحور الرئيسي في حياتها ، وهي لا تخرج عـــن دائرة الاسلام والعروبة والعمل من اجل اقرارهما كهوية متميزة للامـة . وهذا اسلوب يتفق والمخططات التغريبية والاستشراقية التي قامت دائما على اساس (الضرب غير المباشر) للفكر الاسلامي والثقافـــة العربيـــة الاسلامية من خلال شخصيات ذات بريق وتالق وحضور قوي في الساحة الفكرية او ميدان العمل الجهادي والوطني .

● ثانيا : السعي من اجل احداث البلبلة والاضطـــراب والشك والحيرة في اوساط الفئات المثقفة والمتعلمة بالتطاول الملحاح والدؤوب

إفتتاحيّة

على قامات عالية كان لها دورها في الفكر والثقافة والحياة العملية ، انطلاقا من مقولة نزع القداسة عن الاشخاص واخضاع كل فرد للنقـد العلمـي الموضوعي . وهي في الغالب كلمة حق يراد بها باطل .

● ثالثا : التغطية على المؤامرات السياسية والعسكرية التـي تتعرض لها البلاد العربية والاسلامية بخلق معارك فكرية جانبية تستنزف الطاقات الحية في الامة وتصرف الاهتمام عما يدور في الساحة الممتدة من اهوال وفواجع تهز الضمير العربي الاسلامي بعنف .

● رابعا : الامعان في تمزيق الصف العربي الاسلامي والتمكيـن لاسباب الخلاف الفكري والثقافي واذكاء الحزازات والنعرات والعصبيات القديمة بطرح قضايا ثقافية وتاريخية تدور حول نسب هذا المفكر او ذاك أو باثارة الشبهات حول مسائل هي موضع الاجماع من طرف الامة سعيا وراء اغراق الشعوب العربية الاسلامية في الجدل الذي لا طائل تحته ولا فائـدة فيـه .

● خامسا : خلط الاوراق الفكرية بصورة مقصودة وصـولا الى خلق حالة عدم الاستقرار الفكري وايجاد مبررات للهرب والانزواء و (نفض اليد) من قضايا الفكر والثقافة والتاريخ ليبقى تلامذة الغـزو الفكـري وسماسرة عقائد الشعوب ومذاهب الغرب والشرق هـم اسياد الموقف وفرسان الميـدان .

●● ولقد تأكد ان هناك تزامنا بين هذه الظاهرة وبين الحالـة المزرية التي تعيشها الامة العربية الاسلامية في الوقت الراهن . مما يثبت ان الحرب المادية تصاحبها حرب فكرية ثقافية ، ويؤكد بالتالي وحـدة المصدر والمخطط والهدف والغاية . ولن يكون من قبيل الصادفات ان يقترن الهجوم على الشخصيات الاسلامية الفكرية العالمة بالحرب الضروس التي اشتعلت فجاة بين الاخوة الفلسطينيين في طرابلس الشام . كما انه من العبث ان تكون الامور تجري في المنطقة العربية اعتباطا ودون تصميم مسبق وترتيب محكم . وليس يعقل ان تكون حالة اليـاس والهزيمـة النفسية التي يمر بها العرب والمسلمون مجردة من كل دلالة ، ولا علاقة لها بما يجري في المجالات الفكرية والعقائدية . فاذا صدقنـا هـذا ،

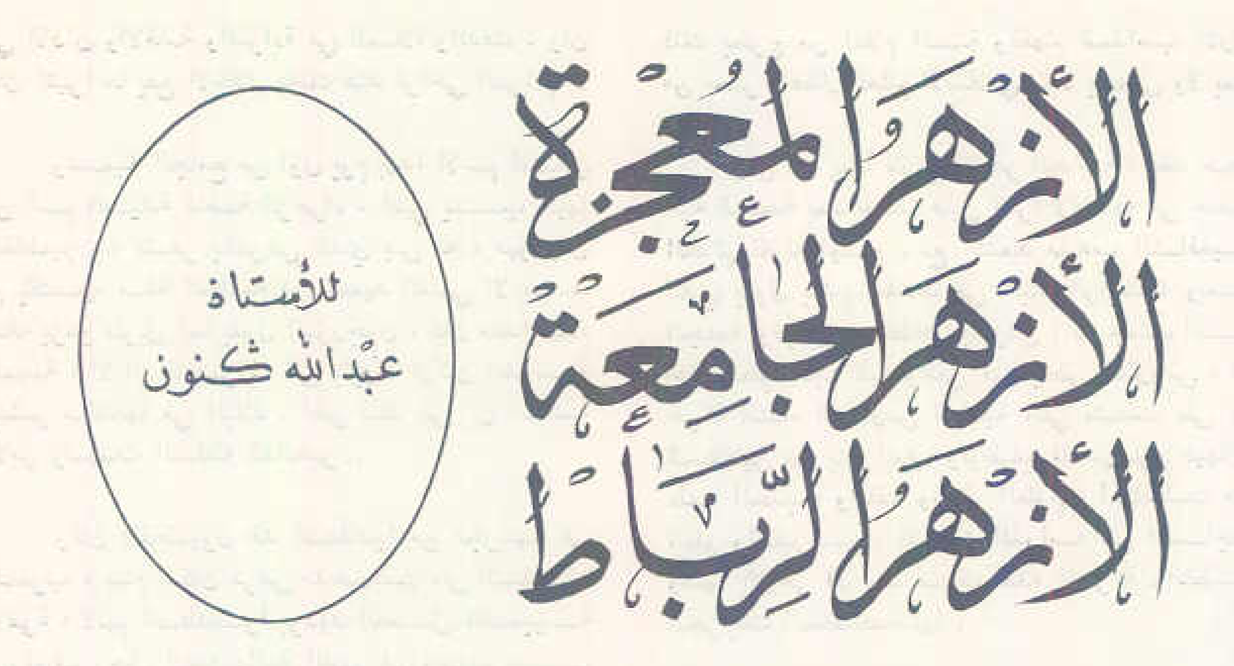
وانطلت علينا حيل الغرب والشرق نكون جاهلين بطبيعة العصر وبما يتعرض له فكر الامة وعقلها الجماعي من غزو كاسح .

● ان ثقافتنا وتاريخنا وحضارتنا كلها تستهدف اليوم لغارات شرقية وغربية ، ولا منجاة لنا من هذا المصير الا بالثقة بالنفس وبالتماسك وبالارتباط اكثر واقوى بجذورنا الفكرية وبقيمنا التاريخية المستمدة اساسا من عقيدتنا الدينية وحضارتنا المؤمنة الاصيلة .

●● ولعله من المناسب ان نقول ان التشبث بالفصحى في هذه المعركة الفكرية سلاح له شان . فاللغة هي الوعاء الحضاري لفكرنا وديننا وثقافتنا ، ان فرطنا فيها انهارت قوانا وضعف تماسكنا وتراخت الصلة بيننا وبين ماضينا وتاريخنا . ومن اجل هذا كان هناك تلازم بين الفكر الاسلامي واللسان العربي ، وبين العقيدة والفصحى . ولا يسوغ في منطق الدفاع عن الذات وحماية الكيان الفصل بين العنصرين باية حال من الاحوال .

● ان الامة تواجه اعصارا شديدا ، يهددها في كيانها الفكري والثقافي ويرمي الى قطع صلتها بماضيها واضعاف ثقتها في نفسها وفيما بين يدها من رصيد حضاري يقوم على الحق والعدل .





الازهر معلم من معالم الدنيا في الهداية والارشاد الى الحق والى الطريق المستقيم ، ومنار من منارات العلم والعرفان في الماضي والحاضر ، ولا سيما في العالم الاسلامي . وحصن من حصون الدفاع عن الامة والذود عن الحمى لايطال .

بنى اساسا للدعوة الى التشيع والرفض ، ومجابهة السنة والجماعة فابى ان يكون الا مصداقا لما يوحى به اسمه الشريف ، من الاخلاص لحقيقة الدين وروح الرسالة المحمدية ، وهل ينسب الى الزهراء — رضي الله عنها — الا ما كان من صميم الحنيفية السمحة ، وصريح ما اتى به والدها المصطفى — عليه الصلاة والسلام — فكانت تلك هي المعجزة التي لا تكذيب فيها ولا تشكيك .

والكرامات منهم معجزات
حازها من نوالك الاولياء

نعم ! فمن الثابت تاريخيا ، انه ما فتح جوهر الصقلي — مولى الفاطميين — مصر ، وخطط لعاصمته القاهرة ، — الا وهو يريد جعلها منطلقا للدعوة الى المذهب الشيعي ، وبسط نفوذه على مصر والبلاد المجاورة لها ، فبنى الجامع الازهر لاقامة شعائر هذا المذهب التي لم ترحب بها الجوامع الاخرى كجامع عمرو بن العاص ، وجامع ابن طولون ، وما ان استقرت اقدام الفاطميين بمصر ، حتى جعلوا من الازهر مركزا لبث مذهبهم ونشر تعاليمه بين الناس ونصبوا فيه الدعاة الكبار من رجال الحكم المتعصبين لمبادئهم ولدولتهم كالقاضي النعمان ، والوزير يعقوب بن كلس ، واصبح هو والجامع الذي بناه الحاكم بعد ذلك للغرض نفسه ، ينافسان جامعي عمرو وابن طولون اللذين لم يسلسا قيادهما للدولة البدعية ، الا فيما ارغما عليه من بعض الشعارات التي يلتزم بها الشيعة

في الأذان والاقامة والقراءة في الصلاة والدعاء ، وان كان كثيرا ما يقع الاخلال بذلك عند تراخي المراقبة.

وتسمية الجامع من اول يوم بهذا الاسم المشتق من اسم السيدة فاطمة الزهراء ، التي ينتسب اليها الفاطميون ، تشعر بالغرض الذي بنى له ، فهو وان لم يكتسب صفة الجامعة او المعهد العلمي الا بعد بنائه بزمن طويل كما يقول المؤرخون ، كان معدا لهذه المهمة ، الا ان الانصراف الى تثبيت اركان الدولة ونشر سلطانها في البلاد ، أخر ذلك الى ان استتب الامر وتمهدت السلطة للفاتحين .

وكان الفاطميون قد استفادوا من تجربتهم في المغرب ، عدم امكان فرض مذهبهم على السكان بالقوة ، لانهم اصطدموا بردود الفعل الشعبية وبوقوف رجال الفقه وأئمة الدين في وجههم حتى الجاؤهم الى التخلي عن الدعوة اصلا ، وبدأوا يفكرون في نقل الدولة الى المشرق ، وتاريخ الصراع العنيف بين علماء المغرب والدعاة الفاطميين اشهر من ان يذكر .

لهذا اعتمد الفاطميون عند لجوئهم الى مصر على الدعوة المجردة وعدلوا عن المجابهة بينهم وبين السكان ، وارصدوا الازهر لما انشاوه له من الدعوة ، وحشدوا له الاطر من اعلى درجة ، على ما اشرنا اليه آنفا ، ولكننا على طول المدة التي ملكوا فيها واستفحال ملكهم وامتداده الى خارج مصر ، واغيائهم في نشر مذهبهم والدعاية له والتظاهر بشعائره ، لم نر له من اثر على عقيدة الشعب المصري واتجاهه السني ، فما ان اعلن صلاح الدين الايوبي اقامة الخطبة لبني العباس بمصر سنة 567 وكان قد مر على قطعها ــ كما يقول الحافظ ابن كثير في كتابه: (البداية والنهاية) مائتا سنة وثمان سنين ، منذ تغلب الفاطميون عليها ، حتى عادت المياه الى مجاريها، وكان شيئا لم يكن ، فلا اثر للدعوة الفاطمية ولا لفقه الشيعة الذي كان الحكم يجري بحسبه ، والحال ان (العاضد) آخر خلفاء الفاطميين ما يزال بقيد الحياة، ولكنه لم يلبث ان توفى ، وعزل صلاح الدين قضاة الشيعة وولى القضاء علماء من اهل السنة ، وكانت المعجزة ان الازهر الذي لم يخرج في مائتي سنة شخصا واحدا شيعيا من اهل مصر ، مع انه انما انشىء لذلك ، هو الذي استمر على مر السنين ، بعد ذلك يخرج من اعلام السنة وفقهاء المذاهب الاربعة من مصر واقطار العالم الاسلامي ما لا يحصى ولا يعد.

ومن هنا يبدا تاريخ الازهر الجامعة ، فقد اعيدت اليه الجمعة بعد توقف قليل نظرا لاقامتها في جامع الحاكم لكونه اوسع ، مع اعتماد مذهب الشافعية الذي يقول بعدم تعددها في البلد الواحد ، وبعد الجمعة وتجديد (الظاهر بيبرس) له جعلت انظار اهل العلم تتجه اليه وتلقي فيه بعض الدروس ، لكن حركة انشاء المدارس العلمية التي نشطت على عهد السلاطين من بني ايوب وتوظيف المدرسين فيها من علماء الحديث والفقه وسائر العلوم ، استقطبت طلبة العلم والمدرسين ، فلم تعد الدراسة الى المساجد ، ومنها الازهر الا بعد ضعف هذه الحركة وانقطاع الجرايات المخصصة لها .

ونما الازهر شيئا فشيئا واصبح قبلة العلماء والمتعلمين ونال من عناية الملوك والامراء ، والوزراء ما جعله يتميز عن بقية المساجد الجامعة ، ولم يلبث ان صار اهم مركز في العالم الاسلامي للدراسات الاسلامية والعربية وغيرها من العلوم والفنون ، اى انه اكتسب صفة الجامعة من جديد ، ولكنها في هذه المرة جامعة على مذهب اهل السنة والجماعة ، يقصدها الطلاب من كل فج عميق ، هذا ليتفقه في الدين ، وهذا اللغة والادب ، وهذا للفلسفة والاخلاق، وهذا للعلوم الرياضية والطبيعية ، وغير ذلك من التخصصات العلمية التي تولت رعايتها مصر بعد سقوط بغداد واضطراب الاحوال في المغرب ، وهجرة الكثير من الادمغة العبقرية اليها ، ومنها على سبيل المثال من المغرب عالم النحو واللغة الكبير ابو حيان اثير الدين محمد بن يوسف الاندلسي الغرناطي، وعالم الاجتماع وفيلسوف التاريخ ابو زيد عبد الرحمن ابن خلدون .

وفي هذا الحين كان الانتساب الى الازهر شرفا يغطي على النسب الخاص للشخص ، فهذا الشيخ خالد بن عبد الله النحوي الشهير عرف بالازهري وترك نسبه الى (جرجا) لانه هو نفسه كان ينتسب الى الازهر ، وله متن في النحو لا يعرف الا بالازهرية .

والازهر كما هو معلوم ثالث ثلاث جامعات اسلامية كبرى طبقت شهرتها العالم ، وهي جامعة القرويين بفاس ، وجامعة الزيتونة بتونس ، والازهر بمصر ، ولكن الازهر امتاز عن القرويين والزيتونة بكونه اوسع افقا وارحب ساحة ، فهو بحكم احتضان مصر للمذهب الشافعي ، وانتساب حكامها الاتراك الى المذهب الحنفي ، مع انتشار المذهب المالكي فيها من قديم نظرا لاستقرار تلامذة مالك الكبار بها كابن القاسم وابن وهب وابن عبد الحكم وغيرهم ، صار معهدا لدراسة الفقه على المذاهب الاربعة المتبعة في العالم الاسلامي ، — لا سيما — وقد كانت بمصر مدارس رسمية موقوفة على فقهاء هذه المذاهب ، ولما اضمحلت انتقل الدارسون بها الى الازهر ، فهذه الميزة مما انفرد به الازهر وجعله مقصودا من جميع انحاء العالم الاسلامي التي تتمذهب بأحد هذه المذاهب ، ولا كذلك الزيتونة او القرويين .

ثم انه لتوسطه في مصر ، صلة الوصل بين افريقيا وآسيا وقلب العالم الاسلامي والعربي ، كان مهوى افئدة الطلاب من القارتين ، وفي العصر الحديث جعلت الوفود تؤمه حتى من اوربا وأمريكا ، فهو يأوي الالوف من الطلبة والدارسين الواردين عليه من الخارج زيادة على ابناء مصر الذين يقصدونه ايضا بالآلاف ، لا سيما بعد تنظيمه تنظيما عصريا واحداث شهادة السلك الثالث به وقيام مدينة البعوث مقام الاروقة التي كانت محل سكنى الطلبة ، وكان منها رواق المغاربة مما يدل على استيعابه من قديم حتى لطلبة البلاد لها جامعة موازية .

وحسبنا هذا التعريف بجامعة الازهر ، وان كنا لم نزد على حكاية الواقع ، وخير الكلام ما قل ودل .

ونتكلم على الازهر الرباط ، وهو كلام يبتدىء برفضه للرفض الشيعي الذي عبرنا عنه بالمعجزة ، ويتمادى مقترنا بعمله في نشر العلم ، ذلك العمل الرائع الذي راينا صورا منه في الازهر الجامعة ولا يخفى ان القيام على تعميم المعرفة وحماية العقيدة واعلاء كلمة الله هو من افضل الرباط ، الم يقل الله عز وجل في كتابه العزيز : « وجاهدهم به (اي بالقرءان) جهادا كبيرا » ؟ .

لكن الازهر على بلائه ، الحسن دائما ، بالفكرة والكلمة ، كان ينزل الى الميدان كلما اقتضى الحال ذلك ، ولا يكتفي بالقول عن الفعل ، ولذلك فهو يعتبر رباطا وقلعة لحراسة الكيان ، ورد كل هجوم على الشعب المصري المسلم سياسيا كان او عسكريا بالمواقف المشرفة والثورة العارمة ، ويذكر المؤرخون في هذا الصدد اكثر من موقعة خاضها علماء الازهر مع الولاة المستبدين ، والظلمة المستهترين بحقوق الرعاية المتسلطين على رقابها والغاصبين لاموالها ، فما هو الا ان يتنادى العلماء بمقاومة الطغيان ويستجيب لهم عامة الناس ، حتى يتراجع اولئك الحكام عن غيهم ويلقوا باليد خوفا من الاطاحة بكراسيهم وذهاب ارواحهم ، وكم من تظاهرة قام بها الشعب ضد الجور والفساد ولجأ القائمون بها الى الازهر احتماء به وطلبا لتدخل علمائه ، وأرجعت المسؤولين الى صوابهم وتلافوا ما فرط منهم بمجرد انذار العلماء لهم ووقوفهم بجانب المتظاهرين ، علما منهم بما للعلماء من نفوذ في اوساط الشعب ، وانهم اذا غضبوا لا يقف في وجههم شيء .

وفي العصر الحديث كان علماء الازهر أكبر المعارضين والمقاومين للحملة الفرنسية وغزو نابليون لمصر ، وبرغم تودد هذا الطاغية لهم وتقربه اليهم فانهم حاربوه في السر والعلن ، حتى اثاروا حفيظته عليهم وفتك بعدد كبير منهم ، وما كان ذلك ليثنيهم عن الائتمار به والتحدي لسلطانه حتى انه لما اضطر الى العودة لفرنسا وترك الجنرال كلبير خليفة عنه في حكم مصر قتلوه وكان ذلك سببا في انسحاب فرنسا من مصر .

وكذلك قاوم علماء الازهر الاحتلال الانجليزي لمصر واشتركوا في ثورة احمد عرابي ، وكان الشيخ محمد عبده من الضالعين في هذه الثورة الشهيرة ، وعوقب عليها بالنفي كما عوقب قائدها عرابي .

وفي ثورة 1919 بقيادة سعد زغلول كان الازهر منطلقا لهذه الثورة ، وكان منبره مثابة للخطباء والشعراء المحرضين على مقاومة الانجليز والمطالبين بالاستقلال .

وكل من عرابي وزغلول ينتمي الى الازهر بحكم دراسته فيه ، واذا دل هذا على شيء ، مما نحن

بصدده ، فهو أن الجامعات الاسلامية ، وعلى راسها الازهر ، حصن حصين لكيان البلاد المادي والمعنوي فكما انها تحافظ على مقوماتها الروحية من دين وعلم وخلق ، فهي كذلك تحافظ على حريتها واستقلالها وامنها . . . وقد كان الفرنسيون يسمون القرويين بالبيت المظلم ، ويخافون منه على وجودهم في المغرب اكثر من خوفهم من جيش منظم يحاربهم ويعمل على انهاء حكمهم له ، وقد كان ما خافوا منه ، وانبعثت طلائع المقاومة من القرويين كما انبعثت الثورة على الانجليز في مصر من الازهر .

هذه كلمة لا تفي بحق الازهر ، ولا تؤدي ما في انفسنا من شعور عميق بعظمته ، ونحن نحيي عيده الالفي ، ولعل الاوصاف الثلاثة التي وصفناه بها تكون اكثر تعبيرا من كل ما يقال فيه ، وهي المعجزة ، والجامعة والرباط .

عبد الله كنون

مصر والمغرب: خواطر وذكريات

للأستاذ محمد العربي الخطابي

●● دشن المركز الثقافي المصري بالرباط موسمه الثقافي لهذه السنة . بمحاضرة قيمة القاها الاستاذ محمد العربي الخطابي محافظ الخزانة الحسنية عن العلاقات التاريخية بين المغرب ومصر . واختار لها عنوان : (مصر والمغرب : خواطر وذكريات) . ونظرا لاهمية هذه المحاضرة فقد استاذنت (دعوة الحق) الاستاذ المحاضر الفاضل في نشرها تعميما للفائدة ، وقد سارع الاستاذ الخطابي مشكورا بالموافقة ●●

لقد اكرمني المركز الثقافي المصري بدعوتي لالقاء محاضرة في بداية موسمه الحافل ، فقبلت هذه الدعوة مسرورا رغم نفوري الشديد من المحاضرات واعبائها الثقيلة على المحاضر والسامع .؟

وقد آثرت ان يكون هذا الذي سالقيه بين يديكم اليوم حديثا لا محاضرة ، حديثا الم فيه خواطري المبعثرة مع ما رسخ في الذهن من افكار ومعلومات عن صلات مصر الشقيقة بالمغرب ، واعترف لكم سلفا ان حظ القلب في هذا الحديث اوفى من نصيب المنهج الذي يفرض الضبط والتسلسل وربط النتائج بالمقدمات .

وما كان لي ان افعل غير ذلك ، لانني ــ اولا ــ حريص على الا اثقل عليكم ، وثانيا ، لان مصر ساكنة في صميم قلبي ، واياديها البيضاء تناولتني بالرعاية والتربية والتثقيف منذ حداثة سني .

* * *

من محفوظاتي القديمة قول الشاعر :

بدت في رداء الشعر باسمة الثغر
فعوذتها بالشمس والليل والفجر

وقبلتها مصرية حلوة اللمى
اكرر في تقبيلها السكر المصري

ويعذلني من ليس يدري صبابتـــي
فأصرفه من حيث يدري ولا يدري

هذه ابيات لجمال الدين ابن نباتة بلبل مصـــر الذهبي في القرن الثامن ، وهو شاعر موله هام بهذه الارض الطيبة حبا فافرغ في التغني بها ذوب قلبـــه وخياله .. رقة لفظ وخفة روح وطلاوة نغـــم .

وابن نباتة يتركنا امام هذه الابيات الثلاثة في حيرة من أمرنا بحيث لا ندري هل هو يتغزل في مصر التي احبها واحبته ، ام انه يتشبب في غادة مصرية حلوة اللمي ــ كما قال ــ ام انه مجرد اعجاب بسكر مصر المصفى ؟ وهو يزيدنا حيرة ، اذ يقول :

مصرية تبدي التصامـــم ان روت
لفظا ، لان اللفـــظ منهـــا سكـــر

يحلو اذا هي كررتـــه ، وحسبـــكم
بالسكر المصـــري حيـــن يكـــرر

ورغم هذه الحيرة اللذيذة التي يوقعنـــا ابـــن نباتة فيها فاننا معه نلتمس الحلاوة المصرية حيـــث التمسها هو وسائر من احب مصر : في رقـــة نساء مصر الامهات والزوجات والاوانس ... في نباهـــة رجالها وحبهم للحياة ولكل ما هو مرح وجميـــل في الحياة ... نلتمسها في اهرام مصر وأزهرها وقلعتها الايوبية ... نلتمسها في اسكندرتيهـــا وفيومهـــا واسوانها ودمياطها وفي وجهيها البحري والقبلي ... واخيرا في ريادتها المستديمـــة لقافلـــة العـــرب والمسلمين ... كل العرب والمسلمين .

كيف لا وقد جعلها الله في كيان الامة الاسلامية بمثابة القلب من الجســد ، ينبض فيسري وجيبه في الشرايين المشرقية والمغربية يغذيها فينبعث فيها رواء الحيـــاة .

ومصر لم تختر الريادة ولم تترام عليها ، بل هو قدر سعيد اختاره الله لها فتحملته ناشطة يباركهـــا المنصفون ويدعو لها المحبون بزيادة الخير والرفعة .

وقد كانت مصر ــ قبل عهدها بالاسلام ــ معلمة الدنيا ورافعة دعائم الحضارات ... يكتب ناسهـــا فيكتب بعدهم الناس ، ويبني ملوكها فيبني بعدهـــم الملوك ، وينكب فلاحوها الصابرون على الارض حراثة وربما فتتعلم منهم الامـــم .

وفوق ارض مصر كلم الله موسى تكليما وكان قد جعل يوسف على خزائنها فدبر امورها تدبيرا حذت حذوه الشعوب بعده .

ويبزغ الاسلام فنرى كبير مصر ــ المقوقس ــ يحسن استقبال وفد رسول الله ويرد على خطابـــه الشريف ردا جميلا ويهاديه ، فيمكن لبداية امتزاج الدم المصري بالدم العربي .

ثم تتوالى نعم الله على مصـــر فينتشر فيهـــا الاسلام ، وتقام فوق ارضها المساجـــد والمعاهـــد واربطة الجاهد ، ويؤمها الصحابة والتابعون واهـــل العلم ... وناهيك بأمثال عمرو بن العاص ، وعبـــد الرحمن بن القاسم تلميذ الامام مالك ومصنف المدونة ، وأبي عبد الله بن وهب ، وعبد الله بن عبد الحكـــم ، وكلاهما من تلاميذ مالك الذين نقلوا علمه الى مصـــر ومنها انتقل الى سائر الامصار ، والاخير منهم هـــو والد ابن عبد الحكم مؤلف كتاب « فتـــوح مصـــر وافريقيا » الذي يعد من اصح المراجع في بابه .

ويشاء الله أن يجمع الاسلام بين مصر والمغرب وان تنعقد بينهما اواصر لحمتها الدين واللغة والعلم ... أواصر لم تزدد مع الزمن الا رسوخا . واقصد بالمغرب الغرب الاسلامي كله حيث ساد المذهـــب المالكي في الفقه وكان لمصر فضل كبير في امداد رجاله باوثق المصادر العلمية التي بقيـــت عمـــدة الدارسين والطلاب على مر العصور .

وليس قصدي ان استعرض بالتفصيل والتدقيق مراحل نمو الصلات الفكرية والعلمية والروحية بين مصر والمغرب ، لاني لست بالمؤرخ الموثق الـــذي تنتظم له الوقائع وتنضبط في ذاكرتـــه البدايـــات والنهايات ، وانما هي ــ كما قلت ــ خواطر وذكريات تتزاحم في الذهن والفؤاد وتنساب على ايقاع العاطفة والمشاعر رفيقة هينة متناثرة .

واذا كنت قد أشرت من قبل الى الفقه المالكي وجعلته نقطة البداية للصلات العلميـــة بين مصـــر

والمغرب فلاعتقادي ان ذلك كان عاملا رئيسيـــا في توثيق تلك الصلات لا في ميدان الفقــه والحديــث وحدهما بل ايضا في ميادين علــوم اللغــة العربية والعلوم العقلية كالطب والصيدلة والفلك والرياضيات وفي ميدان التصـــوف .

ان المذهب المالكي الذي ساد في المغــرب سيادة مطلقة وعايش في مصر المذاهـب السنيــة الاخرى في وفاق ووئام ، كان من اقوى الاسباب التي بثت الطمأنينة في نفوس علماء المغرب وطلابه وجعلتهم يستشعرون الثقة في امانة علماء مصــر وضبطهــم للامور ومجانبتهم للاهواء سواء كانوا مالكيين او من اتباع المذاهب السنية الاخرى . ولم يكن هذا شأن المغاربة وحدهم بل شاركهم نفس الاحساس عدد هام من جلة علماء الاقطار الاسلامية الاخرى الذين شدوا الرحال الى مصر واقاموا فيها على الرحب والسعة . ولا سيما بعد تضعضع نفوذ الدولــة العباسيــة . ويكفي ان نذكر من هؤلاء العلماء البارزين : المحدث المسند ابا طاهر السلفــي (توفي عــام 576 هـ) والفقيه الصوفي الاديب ابا بكر الطرطوشي الاندلسي (توفي عام 520 هـ) وشيخ الاسلام تقي الديــن بن تيمية الحراني (توفي عام 728 هـ) وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام (توفــي عــام 660 هـ) والفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون (توفــي عــام 808 هـ) .

وهنا نقف لحظة لنذكر فضيلة طبعت اخــلاق اهل مصر منذ اقدم العصور ، وهي اكرامهم لكل من يلجأ الى ارضهم من العلماء واعلام الفكر والجهاد حيث يجدون في مصر وبين سكانها الملاذ الامين والرعاية الحانية ، ولسنا في حاجة الى ان نتوغل بعيــدا في اغوار التاريخ لالتماس الامثلة على هــذه الفضيلــة المصرية العريقة ، ونحن نعرف جميعا ، في العصور الحديثة ، عددا من اعلام الفكر والجهاد لجــأوا الى مصر واقاموا فيها على الرحب والسعة ، واحتلوا في قلوب أهلها مكانة اثيرة ، ويكفي ان نذكــر من هؤلاء جمال الدين الافغاني والكواكبي ورشيد رضــا ... واخيرا البطل المغربي امير المجاهدين محمد بن عبد الكريم الخطابي ، دفين القاهرة في مقبرة الشهــداء بهــا .

* * *

ان المظهر البارز للصلات الفكرية والروحية بين مصر والمغرب قد تجلى اكثر ما تجلى في ارتحــال علماء الغرب الاسلامي وطلابه الى الديار المصريــة لتلقي العلم ولقاء العلماء او للتدريس في معاهدها .

وفي الميدان الروحي الخالص نجد اهل مصر واهل المغرب يلتقون حول نهج صوفي واحد ، وهــو نهج يتسم بميزتين اولاهما الدعوة الى الله بالحكمــة والاحسان والعلم ، والثانية التجرد من اطماع الدنيا والجهاد في سبيل الله .

فمن حيث تبادل العلماء والطلاب بين مصــر والمغرب يزودنا التاريخ بطائفة من المعلومات التــي تشهد بغزارة هذا النوع من الصلات التــي مكنــت لانتقال العلم بالرواية والسند الصحيح بين علمــاء المغرب وعلماء مصر ، كما اتاحــت رواج مئــات المصنفات العلمية التي كان عليها مدار التدريس في معظم اقطار العالم الاسلامي ، وكانت تنتقل بالرواية المتصلة والسند الصحيح عن مؤلفيها .

ففي القرن الرابع الهجري تذكر كتب التراجم ابا محمد عبد الله بن غالب السبتي الذي رحل مــن المغرب الى مصر وكان من جملة شيوخه فيها ابــن الوشاء وأبو بكر بن اسماعيل . وقد توفي ابن غالب في سبتــة عــام 386 هـ .

وفي القرن الرابع ايضا نجد الطبيب والرياضي الفلكي محمد بن عبدون الجبلي يستقــر في مصــر ويتولى ادارة مستشفاها الكبير في القاهرة ــ كمــا يخبرنا القاضي صاعد الاندلسي في كتابه « طبقــات الامــم » ــ

وفي القرن الخامس يلمع في بلادنا اسم ابي عبد الملك مروان ابن سمجون اللواتي الطنجي الذي قال عنه تلميذه الجليل القاضي عياض « انه زعيم المغرب وشيخه وذو الجاه العريض والقول المسموع فيه » ، وقد سمع ابن سمجون في مصر من علمائها كابــن نفيس وابن عنبر وأبي محمد بن الوليــد . وتوفــي بطنجــة سنــة 491 هـ .

وفي القرن الخامس ايضا يختار احد كبار علماء الغرب الاسلامي الاقامة في الاسكندريــة متفرغــا

للتعليم والتاليف ، وهو ابو بكـــر محمد بن الوليـــد القرشي الفهري الطرطوطشي مؤلف كتـــاب « سراج الملوك » وكتاب « مراقي العارفين » ، وقد توفي في الاسكندرية ودفن بها عام 520 هـ .

ويخبرنا القاضي عياض بن موسى اليحصبـــي السبتي المتوفى عام 544 هـ في كتابه « الغنيـــة » انه كان على صلة علمية بأبي طاهر ، محمد السلفي ، اجل علماء مصر في القرن الخامس مع انهما لم يلتقيا أبدا ، فكانا يتبالان الكتب والرسائـــل والاجـــازات العلمية ، وحينما الف القاضي عياض كتابه الجليـــل « مشارق الانوار » قال الحافظ ابن الصلاح :

مشارق انوار تبدت بسبتـــة
وذا عجب كون المشارق بالغرب

ومن جلة العلماء والادباء الذين استقروا بمصر في القرنين السادس والسابع وكان لهم ذكر بعيـــد : الرحالة الاديب محمد بن احمد بن جبير المتوفـــى بالاسكندرية عام 614 هـ ، والمحدث الاديـــب ابـــو الخطاب عمر بن دحية السبتي المتوفـــى بمصـــر عام 633 هـ ، والفقيه الصوفي المحدث ضياء الدين عيسى بن يحيى السبتي المتوفى بالقاهـــرة ايضـــا عام 696 هـ . وهؤلاء الثلاثة أقاموا في مصر بصفة دائمة ودفنوا في تربتها .

وقد خص ابن جبير مصر بقسط كبيـــر مـــن الوصف والتنويه في كتاب رحلته الفريد ، وكان من تلامذته الصوفي الحكيم ابن عطاء الله الاسكنـــدري مؤلف الحكم العطائية وشارح رسائل الصوفي الجليل محمد بن ابراهيم الرندي خطيب جامع القروييـــن بفاس . اما ابو الخطاب عمر بن دحية السبتي فقـــد اسس له السلطان محمد الكامل الايوبي دار الحديث الكاملية واسند اليه ادارتها والتدريس فيها . والف ابن دحية في القاهرة كتابه المشهور « المطرب فـــي اشعار اهل المغرب » .

وكان ضياء الدين عيسى بن يحيـــى السبتـــي استاذا في المدرسة الظاهرية بالقاهرة ، وكان مـــن ابرز تلامذته فيها الامام الحافظ ابو عبد الله شمس الدين الذهبي ، مؤلف « تذكرة الحفاظ » .

ويلمع في مصر في القرن السابع احد كبـــار اقطاب التصوف والعلم هو الامام ابو الحسن علـــي الشاذلي الحسني ، واصله من غمارة بشمال المغرب ، وهو الذي قال فيه سلطان العلماء عزالدين بن عبـــد السلام : « ان كلامه قريب العهد من الله » ، أستقر به المقام في مصر وكان يحضر مجلسه فيها أكابـــر علمائها كالعز ابن عبد السلام ، والحافظ ابن الصلاح وتقي الدين ابن دقيق العيد . وكان الشاذلي يلقـــن العلم في المدرسة الكاملية في القاهرة ، وكان مـــن المجاهدين في سبيل الله أبلى البـــلاء الحسن فـــي مقاومة الغارة الفرنسية على مصر في عهـــد لويس التاسع ، وجاهد في صف جيوش الظاهـــر بيبرس سلطان مصر . وقد خلف الشاذلي صوفي آخر مـــا تزال ذكراه عاطرة في مصر الى الآن ، وهو ابو العباس المرسي دفين الاسكندرية .

وفي القرنين السابع والثامن يتوالى على مصر المضيافة طائفة من المع رجال المغرب نكتفي بذكـــر ثلاثة منهم وهم : محمد بن رشيد السبتي ، والقاسم ابن يوسف التجيبي السبتي ، وعبـــد الرحمـــن ابن خلـــدون .

وكان ابن رشيد اماما صدرا عالما اديبا رحـــل الى مصر للسماع من علمائها والافادة منهم ، وقـــد سجل رحلته العلمية في مؤلفه الجليـــل « مـــلء العيبة » حيث ذكر كبار الشيوخ والعلمـــاء الذيـــن لقيهم في مصر وفي غيرها من الاقطار التي زارهـــا ، وكان من تواضعه يجلس لسماع الدروس في معاهد القاهرة والاسكندرية مع ابنه وابنتـــه في مجـــلس واحـــد .

ولعل من الطريف ان نذكر حادثة رواهـــا ابن رشيد في كتابه هذا ، وهي ذات دلالة قوية على ما كان بين مصر والمغرب من روابط علمية وروحية متينـــة رغم بعد المسافة وصعوبة المواصـــلات في ذلـــك الوقت ، قال ابن رشيد في حديثه عن القاهرة :

« ولقيت بعد صلاة العصر ... يوم وصولنـــا الى مصر الشيخ الامام ابا عبد الله محمد بن ابراهيم ابن النحاس ، احد اعلام علماء الديار المصرية ، امام العربيـــة والآداب ...

« وجلست [في المسجد الجامع] وانا لا اعرف الشيخ فوجدته يتكلم في علم العربية فاخذت معهم بطرف مما كانوا يتكلمون فيه ، فالتفت الي الشيخ فقال : من أين قدومك ؟

قلت : من المغرب .
فقال : من أي بلاده ؟
قلت : من سبتة .

فكان أول ما فاتحني به ان قال : ايعيش سيدنا ابو الحسين بن ابي الربيع ؟

قلت : نعم .
فقال : ذاك شيخنا افادة بوصول كتابه الينا.
ثم قال لي : اقرات عليه ؟
قلت : نعم » .

وابن ابي الربيع الذي اشار اليه ابن النحاس واعتبره شيخه ـ مع انهما لم يلتقيا قط ـ كان امام العربية في وقته وكان مقيما في موطنه سبتة ، ولم يكن من الصعب ان تصل مؤلفاته الى مصر ومنها كتابه « الكافي في الافصاح » وهو شرح لايضاح ابي علي الفارسي .

هذا عن ابن رشد ، اما قاسم التجيبي فقد خلف بدوره كتابا عن رحلته العلمية سماه : « مستفاد الرحلة والاغتراب » ، والجزء الذي وصل الينا منه يتحدث عن مصر ومدنها ومعالمها ، ويذكر كبار العلماء الذين سمع منهم وقرا عليهم ، ومنهم ابن دقيق العيد، وابن النحاس ، وعبد المومن التوني ، وشرف الدين ابن الصيرفي وغيرهم .

ومما قاله التجيبي عن القاهرة في كتابه هذا :

« هذه المدينة المحروسة المكلوءة هي الآن قاعدة الديار المصرية وام مدائنها ، ودار امارتها وكرسي مملكتها ... وامر هذه المدينة عظيم ... ومبانيها مرتفعة رائقة ، وبضاعتها نافقة ، وهذه المدينة المعزية حافلة الاسواق ، عظيمة الترتيب ، تشتمل من الخلائق على عدد لا يحصيهم الا خالقهم ، وما بلغنا أن في المعمورة مدينة على قدرها .

« وبهذه القاعدة العلمية مارستان عظيم القدر مشهور الذكر يقصر عنه اعظم قصور الملوك ، معد للمرضى وذوي العاهات ، ابتناه الملك الاجل المجاهد قلاوون الصالحي الملقب بالمنصور ، ووقف عليه اموالا عظيمة ، ورتب فيه الاطباء » .

اما ابن خلدون فقد فتحت له مصر ذراعيها وولي في القاهرة قضاء المالكية ، واقرا في الجامع الازهر مقدمته الشهيرة ، وهو اول معهد علمي سمع طلابه مقدمة ابن خلدون من فم مؤلفها .

وقد اعجب هذا الفيلسوف المؤرخ الكبير بمصر اعجابا صادقا وسجل ذلك بقوله :

« فانتقلت الى القاهرة اول ذي القعدة سنة 783 هـ فرايت حاضرة الدنيا وبستان العالم وايوان الاسلام وكرسي الملك ... تلوح القصور في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبي اليهم الثمرات والخيرات ثجه ، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، واسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الاحوال . ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا واصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . وسألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب ابا عبد الله المقري فقلت له : كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام . وسألت شيخنا ابا العباس بن ادريس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كانما انطلق اهله من الحساب يشير الى كثرة اممه وامنهم العواقب . وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب ابو القاسم البرجي بمجلس السلطان ابي عنان بعد تادية رسالته النبوية الى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة وساله عن القاهرة فقال : اقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : « ان الذي يتخيله الانسان فانما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس الا القاهرة فانها اوسع من كل ما يتخيل فيها » .

هذا وامر محمد اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة معروف ، ولسنا في حاجة الى التنبيه على ما

خص به مصر من وصف بالاعجاب في رحلته الفردية التي كتبت في القرن الثامن الهجري . ولسنـــا في حاجة الى التعريف بمعروف .

الا اننا ما دمنا بصدد ذكر بعض الانطباعات التي خلفتها مصر في نفوس زائريها والمقيمين بها من اعلام الغرب الاسلامي فاننا ننتقل الى القرن العاشر لنجد محمد بن الحسن الوزان الفاسي — ليون الافريقي — يسجل لنا ملاحظاته عن مصر التي زارها اكثر من مرة . والوزان هذا — كما نعـــرف — في طليعة الجغرافيين والرحالة العالميين ، كتب مؤلفه « وصف افريقيا » باللغة اللاتينية ، واليكم بعض ما قاله عن القاهـــرة :

« من المشهور ان القاهرة من اكبر مدن العالم واكثرها رونقا وبهاء ... وهي محاطة باسوار حصينة وجميلة مع ابواب بديعة الصنع مصفحة بالحديد ... وهي مجهزة بما يحتاج اليه من الصناع والتجار الذين ينتشرون بصفة خاصة في شارع يمتد من باب النصر الى باب زويلة ، وفي هذا الحي يقيم معظـــم سراة القاهرة ووجهائها ، وفيه مدارس رائعـــة بحجمهـــا وجمال عمارتها ، وفيه مساجد فسيحـــة الارجـــاء وجميلة جدا . وفي القاهرة مستشفى كبيـــر بنـــاه الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك ، وهـــو مـــن الاتساع بحيث يمكن ان يستقبل كل المرضى الذين يجدون فيه كامل العناية والرعاية الطبية والادوية .. ولهذا المستشفى ايراد يبلغ مائة الف اشرفي .

« وفي وسط النيل ، قبالة المدينة القديمـــة جزيرة تدعى المقياس لوجود آلة فيها تستعمل لقياس فيضان النيل الذي يتوقف عليه رخاء مصر ، والعمل بهذه الآلة لا يخطىء وقد اخترعها المصريون القدماء .

« واهل القاهرة على جانب كبير من اللطـــف والمرح ... وهم يزاولون التجارة والصناعة وكثير منهم يتجهون الى دراسة علوم الشريعة ، ومنهم من يهتـــم بالآداب .

« واهل القاهرة ذوو هندام حسن ... ويغلب البذخ والترف على نسائهم ، ويظهر ذلك في ازيائهن وحليهن ... وهن يتمتعن بكثير من الحرية » .

* * *

اننا لا نستطيع في هذا الحديث ان نلـــم بمـــا وصلت اليه الصلات الفكرية والعلمية والروحية بين مصر والمغرب في العصور التي تلت القرن العاشر الى القرن الرابع عشر الهجري ، وهو ما سجلته لنا كتب الرحلات والتراجم العديدة وهي تحفل باسمـــاء جلة العلماء ونبهاء الطلاب الذين اقاموا فـــي مصـــر وتعلموا فيها وعلموا ، او كانت لهم مناظـــرات مـــع علمائها ، واننا نكتفي في هذا الصدد بالتنويه بكتاب قيم صدر حديثا بعنوان : « تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912 » وهو كتاب اشترك في تاليفه استاذان احدهما مصري هو الدكتور يونان لبيب رزق استاذ بجامعـــة عيـــن شمس ، والآخر مغربي هو محمد مزين استاذ بجامعة فاس ، وهذا في حد ذاته برهان على الرغبة الصادقة الدائمة في التعاون بين اهل مصر والمغرب .. وهذا الكتاب جدير بالقراءة ، وهو مرجع لن يستغنى عنـــه الدارسون والباحثون .

ومع ذلك فانني اسمح لنفسي باضافة شيء لم اجد له ذكرا في هذا المؤلـــف النفيس ، وهـــو ان الشيخ محمد بن الحسن ابن العطـــار الذي تولـــى مشيخة الازهر الشريف عام 1246 ، كان من اهـــل المغرب ، وكان ابوه عطارا في القاهرة ، ونبـــغ في العلوم الشرعية واكب على دراسة العلوم العصريـــة كالفلك والهندسة والجغرافيا واتصل بعلماء الحملة الفرنسية فتعلم لغتهم واتقنها ، وقد ذكـــره المؤرخ المصري الجبرتي ، وقبل توليه مشيخـــة الازهـــر اسندت اليه جريدة « الوقائع المصريـــة » فـــراس تحريرها ودعا الى ادخال العلوم الحديثـــة وبعـــث التراث العربي ، ومنه تلقى العالم المصلح رفاعـــة الطهطـــــاوي .

* * *

لا يخفى على احد ان عهد النهضة الحديثة في تاريخ العرب والمسلمين انما يبدأ — باتفاق الجميع — من ظهور تباشير التجديد والانبعـــاث في الديـــار المصرية على اثر الحملة الفرنسية على مصـــر وفي ولاية محمد علي الكبير عليها منذ عام 1220 هـ ، ففي عهده كثر انشاء المصانع والمدارس ، واسست في القاهرة في بولاق مطبعة كان لها عميق الاثر في احياء التراث العربي الاسلامي وانشاء الجرائد وتشجيـــع

حركة النشر ، وارسلت البعوث العلمية للدراسة في المعاهد الاوربية ، وبذلك اصبحت مصر مثالا يحتذى في الانفتاح على حضارة العصر ، والرغبة في مقاومة المد الاستعماري الاوربي .

وكان المستنيرون من اهل المغرب يتتبعون اخبار بزوغ النهضة في مصر ويتقفون آثارها ، وحينما اعتلى عرش المملكة السلطان مولاي الحسن الاول عام 1290 هـ / 1859 م عقد العزم على اصلاح البلاد في ميادين التعليم والصناعة والجيش فأوفد عددا من البعوث الطلابية الى اوربا للتخصص في مختلف فروع العلم والتكنولوجيا ، واوفد في نفس الوقت بعثة الى مصر للدراسة في معاهدها العلمية الجديدة ، وكان من نوابغ هؤلاء الطلاب السيد عبد السلام بن محمد العلمي ، خريج مدرسة الطب في القاهرة ، وهي اول مدرسة عصرية من نوعها ، والعلمي هذا ألف بعد رجوعه الى المغرب عدة كتب قيمة ، منها رسالة في علاج البواسير ، ومعجم طبي طريف ، وأرجوزة في علم التشريح ، فضلا عن كتاب المقدمة في علم الحساب .

والى جانب البعثات العلمية الى مصر اولى المسؤولون في المغرب اهتماما كبيرا بالطباعة ، فانشئت في فاس أول مطبعة حجرية في القرن التاسع عشر الميلادي ، وفي عهد السلطان مولاي عبد العزيز كلف معتمد الدولة المغربية في القاهرة السيد محمد بن قاسم الحلو بالاشراف على طبع عدد من الكتب في المطابع المصرية كمطبعة بولاق والمطبعة العامرة الشرقية وغيرهما ، وبهذا امكن طبع العديد من امهات الكتب كبداية المجتهد لابي الوليد ابن رشد ، وشرح الشيخ ميارة على تحفة الحكام ، ومشارق الانوار للقاضي الحافظ عياض اليحصبي السبتي ، وكتاب المنتقى للامام ابي الوليد سليمان الباجي .

وفي أوائل هذا القرن تعبات الصحافة المصرية للتشهير بالمؤامرات الاوربية على استقلال المملكة المغربية تمهيدا لفرض الحماية عليها ، وكان المعتمد السلطاني في القاهرة دائب النشاط يزود قادة مصر ورجال الصحافة فيها بتفاصيل المؤامرات مع راي المسؤولين المغاربة ومواقفهم تجاهها ، وكانت الحكومة في فاس تتوصل بانتظام بما تنشره الصحف المصرية عن المغرب .

وحينما انتهت فصول المؤامرة الى اعلان الحماية الفرنسية والاسبانية على المملكة المغربية اندلعت الثورة المسلحة في المغرب على الاحتلال العسكري الاجنبي وخاض الشعب غمار الحرب والمقاومة بقيادة زعمائه وفي طليعتهم البطل محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي الحق الهزيمة بالجيش الاسباني في الشمال وشتت فلوله ثم واجه الجيوش الفرنسية بقيادة المارشال بيتان . وفي اثناء ذلك وقفت مصر في صف حرب التحرير المغربية وتعبأ رجالها وصحفها لذلك . وهذا ما فعلته مصر حينما قرر الاستعمار الفرنسي تنفيذ مخطط ما سماه بالظهير البربري ، وكانت القاهرة مركز النشاط العربي الاسلامي المبذول لفضح اهداف السياسة الفرنسية العنصرية والتشهير بها . وتجلون في الكتاب القيم الذي اصدره الاستاذ الفاضل الحسن بوعياد عددا كبيرا من الوثائق التي تثبت تضامن مصر مع الشعب المغربي في محنته التي اعقبت الشروع في تطبيق الظهير البربري .

وفي المجال الثقافي فتحت مصر معاهدها وجامعاتها لطلاب المغرب الذين بداوا يتقاطرون عليها في الثلاثينات ، وخصصت الحكومة المصرية لكثير من هؤلاء الطلاب منحا دراسية ، وانطلقت من مدينة تطوان ، خاصة ، بعثات من الطلاب بفضل الجهود التي بذلها الاستاذ العلامة الشيخ محمد المكي الناصري ، والاستاذ المرحوم عبد الخالق الطريس ، واسس الاول في القاهرة بيت المغرب ومكتب التبادل الثقافي الذي ساهم في اعماله مشاهير اعلام الفكر والادب في مصر امثال احمد امين وعبد الله عنان وعبد الهادي ابو ريدة وغيرهم ، ونشر هذا المكتب عددا من المؤلفات القيمة منها أزهار الرياض للمقري، والحضارة العربية في القرن الرابع الهجري لآدم مِتز ترجمة ابو ريدة ، وتاريخ الدولة المرابطة لاشباخ ترجمة عبد الله عنان .

وبعد هذا وذاك وفدت على تطوان بعثتان من الاساتذة المصريين الجامعيين للتدريس في معاهد هذه المدينة والمساهمة في احياء نشاطها الثقافي ، وكان من حسن حظي أن تابعت دراستي الثانوية في معهد مولاي المهدي وقبله في معهد مولاي الحسن ، وكان من اساتذتي فيهما نخبة من رجال مصر في مختلف التخصصات ، ومن اساتذتي فيهما حسين

امين بيكار ــ مد الله في عمره ــ وهو اليوم من اعلام الفنانين المرموقين في مصر وفي جميع اقطار العالم العربـــي .

ولست في حاجة الى التذكير بما قدمته مصر وما زالت تقدمه للمغرب من مساعدة قيمة في مجال الكتب الدراسية وفي تنمية جامعاتنا وكلياتها العلمية والادبية بما تمدها به من اساتذة وكتـب ومراجـع علميـــــة .

وحاصل القول ان مصر حاضرة في حياتنــا العلمية والادبية والفنية حضورا بارزا لا يعدله غيره، ورغبتنا في توسيع آفاق التعاون الاخـــوي معهـا لا تزداد الا قوة وصدقا ، وهي رغبة مشتركـة بيننــا وبينهـــا .

* * *

ان الصلات الروحية والفكرية والعلميـــة بين مصر والمغرب ابعد وارحب من ان يضبطها التعـداد او ان يقيدها الاحصاء ، وانما هي كمياه بحر النيــل الدافقة تنساب ممدودة الذراعين تنشد الخصـب والخضرة اليانعة .

ونحن اذ نفخر بهذه الصلات المثلى ــ كما كان اجدادنا يفخرون ــ فاننا نطمح دومــا الى تعميــق اسبابها وآثارها ، ولسنا نبالي بالظروف العارضــة التي تنسج حولها الاقاويــل كمــا تنسج خيــوط العنكبوت في زاوية البيت المهجور . ذلك ان مــا لمه الله لا يمكن للايدي العابثة ان تنثره .

وقد جاء في الاثر : « مصر كنانة الله ، فمـن ارادها بسـوء قصمه الله » .

فليحفظ الله شعب مصر وكل حبة رمل وورقة شجر فيها ، فهي في افئدتنا قبل ان تكون على السنتنا، وهي مفخرة العرب وعز المسلمين ... كذلك كانت وكذلك ستبقى ، كيف لا وقد ذكرها الله في كتابـه العزيز باحسن ما تذكر به الامصار ، وجعلها دار امن وامان فقال تعالى : «ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين» وقال : « وأوحينا الى موسى واخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصــلاة ، وبشر المؤمنين » .

ومكان مصر لذلك في الصدر ، والصدر فيــه القلوب ، والقلوب اصدق أنباء من كـل البيانــات السياسية والمزايدات الكلامية « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

وكما بدانا هذه الخواطر بالشعر فاننا نختمهـا بأبيات لحافظ ابراهيم قالها على لسان مصر :

فترابي تبر ، ونهري فــرات
وسمائي مصقولـة كالفرنـد
اينما سرت جدول عند كرم ،
عند زهر مدنر ، عـند رنـد
انا ان قـدر الالـــه مماتــي
لا ترى الشرق يرفع الراس بعدي
ما رماني رام وراح سليمـا ،
من قديم عناية الله جنـدي

محمد العربي الخطابي

قراءة في قصيدة :

إلى الشّباب المُمثّل

للمرحوم الأستاذ علال الفاسي
عرض وتقديم : الأستاذ محمد حمزة

القصيدة من الشعر الحماسي الذي يؤجج العاطفة، ويثير الوجدان ، ويوقظ الهمم ، فالشاعر هنا يتكلم بلسان حال المغاربة خصوصا ، والمسلمين عموما ، ويسجل مفاخرهم ، ويدافع عن مآثرهم ، ويحثهم على مناهضة المستعمر الدخيل ؛ ويصف بلاءهم في الحروب، وضرواة معاركهم ، ويشيد ببسالة جنودهم واقدامهم .

ويرفع من أخص خصائص المغاربة ، وهي الشجاعة التي يتحلون بها في مختلف العصور والاحقاب ، فبذلك استحقت من الشاعر تمجيدها فقدرها حق قدرها . والملاحظ أن علال الفاسي في هذه القصيدة يتكلم كمن يخوض غمار المآسي ، ويذوق مرارة المواقف ، ويطعم حرج الازمات ، ويتحسر لما آل اليه المسلمون من ضعف ووهن بعد أن كانوا سادة في كل أرض ، واسودا في كل واد ؛ تعنو لهم الحياة ، وتحزلهم الطغاة للاذقان .

وقد ألقيت هذه القصيدة بمناسبة تمثيل قدماء تلاميذ المدرسة الناصرية بفاس ، مسرحية أسلامية تتعلق بأحد كبار قواد المسلمين ، هو صلاح الدين الايوبي ، وقد تم تمثيل المسرحية بتاريخ 16 أبريل 1927 (1) . وشعر الشاعر بشرور الاستعمار ، وما تتركه سمومه من عقابيل التخلف ، فانبرى لتوعية جماعير المسلمين ، ممثلين في شباب المغرب الذى وجه اليه الشاعر قصيدته، محاولا تنبيههم الى مساوىء الحكم الاجنبي ، والاثار الوخيمة التي يخلفها في المجتمع ، فدعا الى النهضة الشاملة علما ودينا ولغة واصلاحا في شتى حقول الحياة ، كما دعا الى مناهضة الاستعمار والتخلف الذى يتخبط المسلمون في أوحاله ، وذلك هو ما كان ينطق به عصر الشاعر من فقر وجهل وظلم اجتماعي ، وانعدام السبل لتنوير العقول .

كان المستعمر يكيد كيدا بكل الوسائل لكل ما يتعلق بالمغرب ومقدساته وبدينه ولغته وكتاب ربه ، وسنة نبيه لتتحقق له رغبته في الفرنسة والتغريب ، والانحراف عن العقيدة الاسلامية السمحة ، لكن المغاربة شبابا وشيوخا وكهولا ونساء واطفالا ، وقفوا بالمرصاد لكل من سولت له نفسه أن ينال من الوطن أو من مقدساته ، أو يمد الشرالى ما يمت بهويته المغربية ، وانتمائه العربي والاسلامي ولذلك قام الشباب بتمثيل رواية صلاح الدين باللغة العربية ؛ تحديا للمستعمر،واشعالا لغيظه،وازعاجا لراحته،وكان الشاعر من بين الحاضرين

1) حسب ما جاء في كتاب النصوص الادبية للبكالوريا ط، 4ص 124 ، واكتفت الطبعة الاولى من كتاب « المختار من شعر علال الفاسي » ص 116 بقولها ان القصيدة قيلت في نهاية العشرينات ، كما اكتفى محمد بن العباس القباج بايرادها دون تاريخ في كتابه « الادب العربي في المغرب الاقصى » الطبعة الاولى 1347 هـ — 1929 م ، المعادة في شهر ديسمبر 1979 ج، 2 ص 8

فتأثر بالمشهد الذى ينم عن شجاعة الشباب المغربي ، ويفصح عن اقدامه ، ويعرب عن بطولته ، ففاضت لذلك قريحة علال ، وجادت شاعريته بهذه القصيدة العصماء التي حيا فيها الشباب الذى مثل الامجاد الغابرة وبث الروح فيما نخر من عظام الامة واشاع الحياة في رميمها . آسفا على ما ضاع من مجد تليد ، وعزة قعساء ، ومكانة شمّـاء .

وتدور القصيدة حول المحاور الاساسية التاليـة :

1) قوة الشباب وشدة تصديهم للصعاب التي تهون في أعينهم لان الشباب أشد تفتحا على واقع الامم وخاصة اذا اسعفه النضج العقلي والوعي الاجتماعي والشعور الوطني السليم

2) الشباب عماد التجدد في كل شيء ، والحضارة الانسانية مدينة له بما يحمله من قوة تتجدد دوما وهو تجدد لولاه لبقي الانسان تعبد المغاور والكهـوف .

3) حسرة الشاعر ما نزل بالمسلمين وما انفلت من أيديهم وضاع من حزمهم وعزمهم،فاصبحوا يدفعون الثمن ، وعاد الاسلام غريبا لا يستطيع أن يحمي أبناءه أو يدافع عنهم ، وهم يلاقون الوان التخلف فصاروا لقمة سائغة للطامعين .

4) تذكير الشاعر بماضي العرب التليد المتمثل في القلاع والحصون وكثرة الفتوحات ، وكثرة الجند عددا وعدة ، والبسالة في الحرب اذ كان النصر حليفا لهم بل وخادما .

5) عودة الشاعر من جديد لحث الشباب على العمل والمضي قدما لبعث الماضي المتمثل في اتقان اللغة العربية ، وقد جعلها روح الحياة واكـتجينها فهي الوعاء الحضارى للامة الذى يضم كل ما يتعلق بها علما وأدبا وتراثا وثقافة ، ومدنية الخ ... ثم في الدين الاسلامي وتعاليمه الصحيحة ، فبدونه لا يستقيم وزن للحياة ، ولا يتم الاستقرار النفسي للافراد ولا الوضع الاجتماعي للشعوب .

6) عدم الاهتمام بالاعداء والمرجفين وأذنابهم من الذين يريدون تثبيت العزائم وزرع الوهن وبذر الشكوك في امكان نهوض المغاربة من كبوتهم وهم عرب مسلمون .

7) ثم يعود الشاعر أخيرا الى الشباب ليمجدهم وينوه ببراعتهم في التمثيل المفيد ، ويشيد بالقوة الهائلة التي يزخر بها كيانهم ، فهو يطفح حرارة وحركة ، ويفور ايمانا بالنفس وقدرتها على مغالبة الصعاب وتذليل العقبات ، ويحشر الشاعر نفسه في زمرتهم فهو شاعر الشباب المفتـون بحبـه يحييـه وينوه بما لـه مـن شهامة وهمم نعلق عليها الظنون الخ ...

تطـرح القصيـدة عـدة قضايـا متعـددة ترتبط بالاوضاع التـي كانـت تسود المغـرب خاصة والبلاد العربية والاسلامية على وجه العموم . وهي اوضاع كانت كلها تحفز الانسان العربي على اثبات هويته ، واعادة الثقة الى نفسه وكيانه ودينه ولغته ووجـوده ، بعد النكسات المتتابعة والنكبـات المستمرة ، وهي أيضا أوضاع تعود الى عهود الانحطاط الذي استحوذ على العرب والمسلمين لعدة قرون،فغرس الشؤم في يفاع الجهل ويبابه فأظلم كل شيء ، وتلوث الفكر ، وانطفأت جذوة العلم في صدور العلماء ، وصار الادب ترفا ذهنيا ، يعيش مشلولا في مبناه ومعناه إذ انصرف الى الزخارف اللفظية ، وأعرض عن الحقائق الادبية ، وهذا ليس غريبا في شيء ، لان التفكير المنطق لا يمكن أن يحصل للناس ، وكرامتهم مهدورة ، وشرفهم مضاع ، وأمورهم بيد غيرهم يصرفها كيف يشاء بعد أن كانوا سادة الارض ومنار العالميـن .

كـان لم يكـن بين الحجـون الى الصفـا
أنيـس ولـم يـسـمـر بـمكـة سـامـر

بـلـى نـحـن كـنـا أهلهـا فـأبـادنـا
صـروف الليالـي والجـدود العـواثـر

فقد كان عصر الانحطاط عصر اجترار وترديد ، ولم يكتب آنذاك للفكر العربي أن يزدهر ويبدع ، وكان من ذلك اضفاء الشرعية على التقليد والتماس النجاة في ظل أعواده اليابسة ، ولم تعد عواصم العالم الاسلامي والعربي مثل البصرة ، والكوفة ، وبغداد ، ومكة والمدينة والقاهرة ودمشق والقيروان وفاس ومراكش ، وقرطبة وغيرها ... تنبض بالحياة وتعتمل بصنوف المعرفة وضروب العلم والوان الثقافة كما كانت في أيامها الخوالي حين كانت تعج بالعلماء والفضلاء ، وحين كانت قبلة للشرق والغرب على السـواء .

وكان هذا التخلف في مختلف أصنافه وشتى مجالاته، فرصة لطمع الطامعين واعتداء المعتدين، وانتهزها الاجنبي فرصة مؤاتية فبلغ مراده في الاحتلال والاستلاء قرير العين لا يرقب الا ولا ذمة، فجاءت قصيدة المرحوم علال الفاسي مساهمة فيما ساهم به الادباء والشعراء والمفكرون للبعث القومي والشعور الوطني الذى يبني دعاماته على الامجاد التاريخية، مشيدا بالمغرب الذى لعب ابهى ادوار تلك الامجاد، وعطرها بأزكى النفحات وأعبق الانسام، حضارة وثقافة وعزا ومجدا تليدا. فكان في ذلك شاعرا أصيلا يسكب عصارة تجربته من سويداء قلبه، ونياط فؤاده، لان أدواته الفنية أصيلة، ورواته نفاذة.

ونحـــن نعلـــــم جميعـــــــا ان المغـــرب كان وقتها حين ألقى الشاعر قصيدته يرزح تحت الحماية الفرنسية والاسبانية، فالمنطقة الجنوبية كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي، والمنطقة الشمالية كانت خاضعة للنفوذ الاسباني، وكانت منطقة طنجة منطقة دولية، ونظرا لمثل هذه الظروف وما اقتساها! ولما كان يشعر به علال مما اصاب امته ووطنه رجعت به الذاكرة الى الماضي، والى ما كان عليه آباؤنا الاولون، واجدادنا السابقون من عز وكرامة، وأباء وشمم، وكيف استطاعوا ان يخضعوا أعظم الدول واقواها، فراح يمتاح حقائـــق التاريخ، ويغترف من معينه الثر الذى لا يدركه النضوب ولا يمسه اللغـــوب، فأخذ يتساءل:

مـا دهـانـا ؟ ومـا اعترانا فصرنـا
هكـذا قـد عـلا علينـا الـدون

أيـن ضـاعـت عـزائـم ونفـوس
اين ضاعت معـــارف وفنـــون ؟

أيـن ابـاؤنـا وايـن حـمـاهـم
أيـن ساحاتهـم واين الحصـون ؟

ولم يكن تغني الشاعر بالامجاد وفخر التاريخ سبيلا من سبل المصادقة او الترف الثقافي او حبا في الاسهاب والتطويل والحشود والاستطراد، بل ان كل ما أشار اليه في هذه القصيـدة أمر لازم يستدعيـه الموقـف ويستصحبه، ويدعو اليه الواقع بما فيه من إلهام، وتفتيح للاذهان وايقاظ للضمائر، على سبيل «فذكر ان نفعت الذكرى ... وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين».

واذا تحسر الشاعر على ما مضى من المجد الاثيل والسناء الاقعس، فليس ذلك من قبيل البكاء على الاموات او النحيب عند قبور ما اندرس من المعالم وانطمس من المآثر، وليس ذلك صيحة في واد ولا نفخة في رماد بقدر ما هو زرع لروح الصحوة وبث العبرة للواعين.

وانما وجه الشاعر كلامه الى الشباب لما يمثلونه من قوة الجسم وبسطة في العقل، وصفاء في الروح، وكما انه لاخير في أرض ربيعها خريف فكذلك لاخير في امة شبابها كهولة، فالشباب عماد التجدد في كل شيء، والحضارة مدينة له بما يضطرب فيها من نشاط تتدفق ينابيعه باستمرار وهو نشاط وتدفق لولاهما لما كانت للانسانية حضارة ولا مدنية تملأ الدنيا وتشغل الناس، لان الحضارات تحمل في ارحامها مبادىء الانسانية وضوابطها الاخلاقية التي تدفع بني آدم الى الابتكار والعمل على ما يحقق سعادة الغير ويخفف عنه اعباء الحياة وتكاليفها.

ولننظر الى الحضارة الاسلامية وما قدمت للناس من منابع وما أتاحت لهم من فرص التعليم والثقافة والسمو بالنفس، ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر الدور الذى لعبته الحضارة العربية الاسلامية في الاندلس، فقد كانت مدرسة للمفكرين وطلاب العلم، وانشأت الكليات والمعاهد التي تخرج منها الاطباء والمهندسون والمشرعون وعلماء الفلك والزراعة؛ ونشرت مختلف صنوف المعرفة في ربوع أروبا التي كانت غارقة في دياجير الجهل، منغمسة في أوحال التخلف، بل ان الحضارة الاسلامية على العموم كانت تحتضن كل ما له قدرة العطاء في أي مجال من مجالات الحياة بجوانبها المادية والمعنوية، ولذلك كان تحسر الشاعر علال تحسرا نابعا عن عاطفة صادقة ووجدان مستنير، ودراية باسرار الامور وسبر لاغوار التاريخ فارسلها زفرة حرى يتميز لها الاحساس وتلتهب لها الاكباد.

آه لـو دام ذلـك الـعـزم فـيـنـا
لم تكـن في الورى بـلاد هجيـن

آه لـو دام ذلـك الـعـزم فـيـنـا
كـان للـعـالميـن منـا شـؤون

نعم، لقد فتحت الحضارة العربية والاسلامية أبوابها على مصاريعها، ورحبت بكل عقل مبدع، وبصيرة ثاقبة، وعلم نافع يسهم في تنمية المجتمع وينشر الخير في الربوع، ولم تضطهد العلماء والمفكرين والفلاسفة، بل كانت تستجلبهم وتكرمهم في الوقت

الذى كان العلماء في أوربا يلاقون الوانا من العذاب وصنوفا من الهوان فكانت تطارد حملة الافكار المستنيرة وتحكم عليهم بالقتل والتحريق والابادة .

ولم تكن الفتوحات الاسلامية فتوح غزو أو نهب أو سطو في روحها وجوهرها بقدر ما كانت تهدف الى نشر الرسالة الالهية الخالدة ، وتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ملك السموات والارض ، ولذلك كان النصر حليف المسلمين دائما حيثما حلوا واينما نزلوا ووقفت بهم عصا التسيار ، وكانت قوة المسلمين رهينة بقوة ايمانهم ، منوطة بتنفيذ أوامر الله في الحرب والسلم والرضى والسخط ، ولذلك أعدوا لكل شيء عدة وهيأوا لكل أمر أسبابه فهابهم التاصي والداني ، يقول علال الفاسي :

اين من دوخوا الفرنج ودانت
لهم الهند عن رضى والصين

لست عنهم الاعادي تخبر
ك اذا اشتدت الحروب الزبون

واتت منهم أسود ضوار
معها النصر خادما والمنون

وخيول مطهمات عوال
وجنود مثل الدبى وسفين

ومجانيق يقذف الموت منها
ورماح أقامها عزرئين

فهناك أسال الاعادي عنهم
فلديهم أن انصفوك اليقين

نعم ، لقد أوغل المسلمون في أوربا وكادوا يقرعون أبواب باريس ، وغزا زيادة الله الاغلبي صقلية التي مازالت تزخر بالاثار العربية العديدة ، أما الاندلس فأمرها أشهر من شمس على علم وأما الهند فقد وطها الاسلام عن طريق الفتح في عهوده الاولى ووصل الى البنغال ايام الغوريين .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن : « ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند الى عهد بعيد ، فقد ارسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول الى جوار ربه بخمس عشرة سنة ، ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد من ناحية الشمال الغربي ، واستمر ذلك الى القرن الثامن عشر الميلادى ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها اثر كبير في تقدم الحضارة الاسلامية » . (2)

ولما ولي عثمان بن عفان الخلافة ، ولى عبد الله بن عامر العراق ، وأمره أن يوجه الى الهند رجلا يستطلع اخبارها ، ويصفها له ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي ، فلما رجع وصفها له ، ولم يغز هذه البلاد أحد حتى سنة 39 هـ حين وجه علي ابن أبي طالب اليها حملة بقيادة الحارث بن مرة ، فغنم كثيرا من الغنائم والاسرى ، ثم قتل سنة 42 هـ ، بارض القيقان من بلاد السند مما يلي خراسان . (3)

وفى عهد معاوية بن ابي سفيان غزا المهلب بن ابي صفرة بلاد السند سنة 44 هـ ، وامتدت فتوحه الى الاراضي الواقعة بين كابل والملتان ، ثم امتدت فتوح المسلمين في هذه البلاد ، فشملت القوقان والقيقان والديبل . (4)

وسار محمد بن القاسم الى بلاد الهند فغزاها سنة 89 هـ بايعاز من الحجاج في خلافة الوليد بن عبد الملك وحاصر ثغر الديبل وفتحه عنوة وبنى به مسجدا، ثم سار الى بيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا وادخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح ... وواصل محمد بن القاسم فتوحه في هذه البلاد حتى بلغ نهر السند وكان يعرف اذ ذاك باسم نهر مهران . وهنا التقي بداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه وذكر المدائني الذى قتله رجل من بني كلاب ، وامتدت فتوح محمد بن القاسم الى الملتان ودخلها ... وقتل سدنة البد ، وهو مكان عبادته » وكان بد الملتان بدا تهدى اليه الاموال وتنذر له النذور ، ويحج اليه السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم » وتوالت الفتوح على بلاد الهند ولما ولي عمر بن عبد العزيز

---

2) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي للدكتور حسن ابراهيم حسن ج، 1 ط 7 ، 1964 ص 306

3) نفس المرجع ونفس الصفحة .

4) المرجع نفسه ص 307

الخلافة كتب الى الملوك والامراء يدعوهم الى الاسلام ، ووعد بان يقرهم على ما بأيديهم وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولما قامت الدولة العباسية فتح المسلمون بلاد قشمير والملتان ، وكانت قد انتقضت وعدموا البد وبنوا في موضعه مسجدا . (5)

وفي سنة 96 هـ مضى قتيبة بن مسلم الباهلي الى حدود الصين على رأس جيش كثيف وتابع سيره حتى قرب من الصين ، فارسل الى ملكها وفدا برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابي ،وبعد ان دارت بينه وبينهم عدة مراسلات قال ملك الصين موجها كلامه اليهم : « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فاني قد عرفت حرصه وقلة اصحابه ، والا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه » فقال له هبيرة : « كيف يكون قليل الاصحاب من أول خليه في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه ، فأجابه ملك الصين . فما الذى يرضي صاحبك ؟ فقال هبيرة « انه قد حلف الا ينصرف حتى يطا ارضكم ويختم ملوككم ويعطي الجزية ، فقال الملك : فاننا نخرجه من يمينه : نبعث اليه بتراب من تراب ارضنا فيطؤه ، ونبعث ببعض ابنائنا فيختمهم ، ونبعث اليه بجزية يرضاها ... ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب واربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم اجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة ، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطيء التراب ثم عاد الى مرو (6) وكفى بهذا دليلا على قوة المسلمين آنذاك وبرهانا علىسمو اخلاقهم سلما وحربا ، هذا وقد دفعت غارات المغول على بلاد الخلافة الاسلامية خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الى هجرة جموع من المسلمين من عرب واتراك وغيرهم الى أراضي الامبراطورية الصينية واستقر هؤلاء في تلك الديار ونشطوا في العمل بها واندمجوا مع اهلها وفيما ذكر ابن بطوطة ما يغني عن التفصيل ، ويكفي عن الشواهد والدليل ، فقد تحدث عن حسن لقاء المسلمين له ، وذكر ان في كل مدينة من مدن الصين التي عرفها مدينة ملحقة او حيا للمسلمين يختصون بسكناه ولهم مساجد وهم ذوو مكانة عند أهل الصين . وقد تزايد اندماج المسلمين في سائر الصينيين خصوصا عندما توقفت حركة توافدهم ، فاتخذوا عاداتهم وملابسهم وصاروا أصولا في كيانهم ، وسمح لهم الاباطرة بتشييد المساجد العديدة في انحاء البلاد ، ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن ان امبراطورا صينيا طلب النجدة من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور فارسل اليه قوة من الجيوش العربية التي ساعدته على استرداد ملكه ، ولم ترجع هذه القوة العربية الى بلادها بل تزوجت من أهلها واستقرت في الصين .

ومن منا يجهل فتح المسلمين للاندلس وبلاءهم في ذلك،ففي شهر شعبان سنة 92 هـ،عبر طارق بن زياد البحر في أربع سفن ، وسار على رأس سبعة آلاف من المسلمين ، وأخذ طارق وهو على رأس سفينته يتامل عجائب الكون وينظر الى السماء متوجها الى الله بقلبه يلتمس منه العون ، ويذكر الرسول الكريم وما لاقاه في سبيل نشر الدعوة من محن وآلام ، اذ أخذته سنة من النوم فرأى « النبي صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله : « يا طارق ! تقدم لشأنك ، ونظر اليه والى اصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه » ثم هب طارق من نومه مستبشرا ، وثابت نفسه ببشراه ولم يشك في النصر . فعبر البحر الى الاندلس فتلقاه الاسبان بجيش عرمرم جرار قيل أنه بلغ سبعين الفا ، وقيل مائة ألف (7) ، وتم النصر لطارق بالرغم من ذلك فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا (8) ويقال ان امرأة عجوزا من اهل الجزيرة الخضراء وقعت في أيدى المسلمين ، فلما رأت طارقا قالت : « انه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن امير يدخل بلادهم هذا فيتغلب عليه ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فانت كذلك ، ومنها ان في كتفه الايسر شامة عليها شعر ، فان كانت فيك فانت هو ، فكشف ثوبه فاذا بالشامة في كتف على ما ذكرت فاستبشر بذلك ومن معه » . (9)

---

5) المرجع نفسه ص 7 ــ 8
6) المرجع نفسه ص 305
7) المرجع السابق ص 313
8) الاية 65 ــ 66 من سورة الانفال
9) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن ج، 1 ص 313

واذا كان الايجاز بلاغة في النثر احيانا فان الشعر أولى به غالبا ، وذلك لان الشعر في حاجة الى كل ما يقوى دعائم الخيال فيه ويفسح المجال لانطلاق اجنحته وراء الالفاظ والعبارات فلا تكون معانيه مغلولة الى عنقه بترصد الالفاظ اياها ، وبوح العبارات الكثيرة بتفاصيلها ودقائقها مما يهبط بروعة الشعر ويطفيء شعور القارىء ويضعف من شوقه ولذتـه .

فلو ذهبنا نستقرىء ما تضمنته قصيدة علال من اشارات الى امجاد العرب الحربية لتطلب ذلك مجلدات ضخمة تمتد امتداد تاريخ العرب والمسلمين ، وانما نكتفي هنا بسوق المثل وبعض الوقائع ، وقد بلغ ما كان يقع بين ملوك المسلمين والاعاجم مالا يخلو من طرافة تدل على قوة التصميم والثقة بالنفس كالذى يرويه الرواة عما وصل بين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المومن واحد ملوك اسبانيا ، وكان يعقوب المنصور قد أتاه كتاب من عند ملك اسبانيا يهدده بالحرب ويتوعده وكانت بينهما هدنة كان ملك اسبانيا نفسه هو الساعي فيها ، فغضب يعقوب من تلاعبه وسلوكه المهين ، ومزق كتابه قطعا ثم وقع على ظهر قطعة منه : « الجواب ما ترى لا ما تسمع » وانشد متمثلا ببيت المتنبي :

فـلا كتـب الا المشرفيـة والقنـا
ولا رسـل الا الخميـس العـرمـرم

فلما بلغ ذلك الى ملك الاسبان وحاشيته داخلتهم الرهبة ، وعلموا انهم ابتلوا بملك يفعل ولا يقـــول ثم جهز ابو يوسف يعقوب الجيوش وعبر الى الاندلس واوقع بالاسبان وقعة عظيمة تعرف في التاريخ بوقعة الارك .

وحديث الشاعر عن خيل العـرب المطهمة التامـة الجمال والحسن وعن جنودهـم البواسل كانهم آسـاد الشرى وضراغم الغاب تعززهم السفن الضخمة التي تردع طاف الاعداء ، وترغم أنوف الاداء حديث جامع مانع فقد كان العرب يجوبون البحار بسفنهم فيقدمون الرعب في قلوب كل من يعاملهم بالعداء أو ينوى الغدر والاغتصاب ولعله من الطريف أن شبه الشاعر جنود المسلمين والمغاربة منهم طبعا بالدبي الذى يستعصي على العدو والاحصاء ، والدبي صغير الجراد قبل أن يطير ، وتضرب به العرب المثل في الكثرة ، اذ هو يخرج من كل مكان ، فكانما يفرع المفزع امامه ، ويظل حائرا لايهتدى الى قصده لشدة الهلع والخوف ، والجراد لاجمة له فبعضه دائما يموج على بعض ، وقد كان مسلمة بن عبد الملك بن مروان يلقب بالجرادة الصفراء،وكان موصوفا بالشجاعة والاقدام والرأي والدهاء ولم يكن تشبيه علال للجنود المغاربة المسلمين بالدبى لمجرد كلام يلقى إلقاء ، بل ان قال ذلك فهو يقول مايعني ويقصد ما يقول ، وقد ذكر الدميري ان للجراد ست أرجل : يدان في صدرها وقائمتان في وسطها ورجلان في مؤخرها وطرفا رجليها منشاران،وهو من الحيوان الذى ينقاد لرئيسه فيجتمع كالعسكر اذا ظعن اوله تتابع جميعه ظاعنا ، واذا نزل أوله نزل جميعه ، ولعابه سم قاتل للنبات لا يقع على شيء الا أهلكـه . (10)

وقد سحب الشاعر هذه المعاني وغيرها على جيوش المغاربة ولكنها معان لايدركها الا من ثقف اساليب العرب وتمرس بطرقهم في التعبير ، لذلك نجد الشاعر يصوب اهتمامه الى امرين خطيرين تحمل عليهمـــا الضرورة وتستدعيهما النهضة الحقة ، والامران هذان هما اللغة العربية والدين الاسلامي ، فكل منهما يطلب الاخر ويستصحبه ، بل يستلزمه ، وبهما نمو الامة الاسلامية وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها ، ولبقاء الامم ورسوخها في التاريخ اسس ودعامات تنبني عليها ، فكانت العربية والاسلام مركز كيان المسلمين ، وأساس وجودهم .

اما اللغة فانها مرتبطة بالدين ارتباط لا ينفصم عراه ، ولا يمكن أن يفترقا ، فالعربية روح القرآن وهي من صميمه لقوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (11) وحفظ الذكر هو اللغة العربية دون شك ودون ريب ، وهو ما يفهم من قوله تعالى في موضع آخر : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » (12)

ولا ينكر أو ينسى ما كان للقرآن والحديث النبوي من اثر على اللغة العربية على مختلف المستويات ولذلك يلح الشاعر على اتقانها وحفظها ، فهي روح الحياة واكسجينها ، والاكسجين مادة حيوية للجسم من بين المواد الاخرى ، فاثناء عملية تنفس الكائن البشري يدخل

---

10) حياة الحيوان للدميرى مادة جراد .
11) الاية 9 من سورة الحجر .
12) الايـات 192 ـ 193 ـ 194 ـ 195 من سـورة الشعراء .

الى صدره كمية من الاكسجين ، وعند الزفير يتم العكس . ويدخل الانسان عادة عن طريق الانف والفم ، ويصل الى الرئتين مباشرة اذا كان دخوله عن طريق الانف ويلعب الاكسجين دورا هاما في كريات الدم ، وللاكسجين الى جانب الغازات الاخرى دور خاص في الحياة البشرية ، اذ هو ضروري للتنفس وتطور جميع خلايا الكائنات الحية ، كما يدخل في الدورة الغذائية للانسان عن طريق اكله لحوم الحيوانات الآكلة للاعشاب لذلك جعل الشاعر من اللغة العربية روح الحياة واكسجينها ، يقول علال الفاسي مهيبا بدور الشباب ودوره في إحياء العربية وبعثها حية ناصعة :

يـاشبـاب الـبـلاد احييتمـونـا
فـلـنـا فـيـكـم رجـاء مـتـيـن

ولنا في الـشبـاب خيـر ظنـون
حققـت في الـشباب تلـك الظنـون

اخبـروا الـقـوم أعلموهـم بأنـا
قـد حيينـا وانـا سنكـون

قـد بعثتـم رجـاءنا فاديمـوا
سيركـم واعملـوا ولا تستكينـوا

واحـفظوا ماورثتـم من لسـان
فهـو روح الحيـاة والاكسجيـن

ان لسان الامة هو لغتها المعبرة عن حالها ، المتضمنة لاصولها ومبادئها ، الحاملة لفكرها وثقافتها ، وهو خاصية تميز الشعوب بعضها عن بعض ، فاللسان يحمل معنى الجنسية لكل أمة من الامم ، ولذلك كان ابن تيمية يسمى اللغة العربية لسان الامة ، وبما أن اللسان هو العضو الفاعل في اللغة ، سميت به اللغات عى سبيل تسمية الشيء باداته مصداقا لقوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » . (13) فاللسان ترجمان العواطف والافكار والانفعالات وأخشى ما يخشاه المستعمر الدخيل هو انبعاث العربية وإحياؤها ، ولذلك كان وما يزال ينظر اليها نظرة شائنة ، ويعمل على هدر قيمتها حتى في أعين اصحابها تمهيدا للنيل من القرآن لان العربية لو ضاعت ، ضاع معها علوم القران أو تقيد مطلقه ، أو تشرح ما اشكل من مضامينه .

وقد الح علال الفاسي على لغة العرب وعلى اتقانها لما كان يدركه من ان معاول الهدم تبدا من نقض صروح هذه اللغة الغناء الشامخة ، فكم من ادعاء سمعناه وما نزال نسمعه حتى ايامنا بان العربية لغة متخلفة ان صلحت للرمال والجمال فانها لا تصلح اليوم للاقمار الصناعية والمخترعات الحديثة ، والعلوم البحتة المتقدمة ، وكم سمعنا ومازلنا نسمع بان التراث العربي لم يعد يؤدى دوره اليوم كما أداه أمس ، وما ذاك لشيء الا لان من يدعون ذلك لا يدركون بالفعل قوة هذا التراث وغزارته ومدى دوره الفعال في الحضارة الانسانية ، ولو وعاه المسلمون وعملوا بمقتضاه لكان لهم عونا ونصيرا على صعاب الحياة خصوصا اذا طوروه ونظروا اليه نظرة الفاحص المستنير ، ويقال ان احد كبار المستعمرين كان يرأس مؤتمرا فقال لجلسائه : علينا أن نمزق القرآن، ففهم بعضهم هذه القولة فهما حرفيا فقام فمزق المصحف، فقال له المستعمر بانه لا يقصد ذلك بل يريد ابعاد القرآن من قلوب المسلمين ، فذلك هو تمزيقه العملي ، فما دام هذا الارث لديهم فانه لا يمكننا ان نملك زمام أمورهم ، ولا يخفى أن القرآن هو الركن الركين للغة العرب وحصنها الحصين الذى لا يقهر مهما توالت السنون وتتابعت النكبات ، ولذلك الح الشاعر علال الفاسي مرة أخرى على الاعتناء بهذه اللغة المجيدة الصامدة فقال :

لـغـة الـعـرب اتقنوهـا فمنهـا
كـل مـا تبتغـونـه سيبيـن

ودعوا كل من يريـد عداكـم
فهـو مـا عـاش جاهـل مجنـون

وأما الدين فهو دين الاسلام الذى ارتضاه الله لخلقه وختم به الرسالات ، وهو دين يربي الانسان من أعماق الضمير ، ويغذيه بالايمان بالله ، وينور عقله بشتى المعارف ، لينمو المجتمع نموا طبيعيا راشدا لا ينحاز الى المادة على حساب الروح بل يجمع بينهما في تآلف بناء فريد وبهذا تؤدى العبادات في الاسلام اثرها الفعال في الفرد والجماعة ، فلا فرق بين عرب وعجم ، ولا بين ابيض وأصفر ولا اعتبار لحسب ولا نسب الا بقدر ما يقدمه المرء من صالح الاعمال ينفع بها نفسه ، ويفيد بها غيره من أفراد المجتمع ، فخير الناس انفعهم للناس .

وكل شيء في الاسلام يسعى لخدمة الانسان ، والعبادات الدينية برامج يومية تعمق في النفس إلتزام

13) الاية 4 من سورة ابراهيم .

النظام وضبط الوقت واحترام المواعيد ، والصلاة رباط روحي بين العبد وربه ، وهو صورة للتسليم لله الذى لايخشى بجانبه أحد ولذلك يشعر المسلم بامان وهو بين يدي ربه وخالقه ، والزكاة نوع من انصاف الفقير ، وحرب على الجشع والبخل والحرص الذى لا تخلو منه نفس انسان ، وبذلك يتكافل المجتمع ويتراحم اعضاؤه ويتوادون ، والصوم ارتفاع بالنفس من عالم المادة الى عالم الاشراق الروحي والصفاء النفسي والحج مؤتمر اسلامي يجمع أبناء الملة الاسلامية من جميع الاصقاع فيكون فرصة كريمة يتباحث فيها المسلمون في أمور دينهم ودنياهم ... وبناء المجتمع من هذا المنطلق الاسلامي الخالص هو ما يخافه اعداء الاسلام نظرا لما يحمله من قوة هائلة تقوي المؤمن من داخله ، وتدعوا المسلمين الى التماسك والتآزر والتضافر ولذلك ارسلها علال الفاسي صرخة مدوية الى الشباب يهيب بهم الا يهتموا بما يسمونه او يلاقونه من اعداء الدين ومناوئي المسلمين :

ودعوا كل من يريد عداكم
فهو ما عاش جاهل مجنون

ما يضير الشباب شيء اذا ما
رضي الشعب عنهم والدين

واعملوا واخدموا ولا تتوانوا
وأنا بالنجاح بعد ضمين

ان الشباب هو الدور الذى فيه تستكمل الحياة البشرية جميع معداتها ومتوماتها من دخائر جسمية وروحية ، وكنوز مادية ومعنوية ، فلحم الشباب ودمه يضطربان بالحرارة والحركة والحيوية والنشاط ، والظما الشديد الى المعرفة واختراق المجهول . لان الشباب هو المتن ، وما سواه من مراحل العمر فروع عنه ، فالطفولة والصبا من مقدماته ، والكهولة من حواشيه والشيخوخة من خواتيمه ، ان الشباب أساس كل قوة تطل على الحياة بعينين لا يختطف الملل بريقهما من تكرار المشاهد، وهو أصل كل قوة ترنو الى المستقبل بعزيمة لاتنهكها الازمات ولا تنال منها العوادي ، ولذلك بدأ الشاعر قصيدته بقوله :

كل صعب على الشباب يهون
هكذا همة الرجال تكون

قدم في الثرى وفوق الثريا
همة قدرها هناك مكين

وكأنه واقف أمام سر عظيم لا تسبر اغواره ، ولا تحد أعماقه ، اذ يحمل في طياته حبال التجدد الابدي الصاعد بالانسانية عبر الدهور والاحقاب في طويل الازمان والاباد :

ياشباب البلاد فيكم احيي
كل شهم بما يفيد يدين

ياشباب البلاد فيكم أحيي
مهما علقت عليها الظنون

والشعر اقدم ضروب النقل والتوصيل ، وما يزال أكثرها تحديا وتركيزا اذا ما قورن بفنون الادب الاولى ، كما أن استعماله للالفاظ أكثر دقة وغنى وقوة من النثر ، غير أن المبني في حد ذاته لاقيمة له دون المعنى فانهما متلازمان تلازم الفرقدين ولا ينفصلان ، ان الشعر استعمال خاص للغة ، وقيمة اي استعمال للغة هو أن تعني شيئا وتقصد الى مدلول ، ذلك ان اللغة وسيلة اتصال بين الناس والفنان المبدع المتحكم في اللغة يسعى دائما الى ان يحقق ثلاثة أمور : أولا – ان يصنع شيئا لا يستطيع غيره من عموم الناس ان يصنعه لتفرده عنهم برقة احساسه،ورهافة ذوقه : « وانما سمي الشاعر شاعرا لانه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما احجف فيه غيره من المعاني ، أو نقص مما اطال سواه من الالفاظ ، أو صرف معنى الى وجه عن وجه آخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازا لاحقيقة ولم يكن له الا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير » . (14)

14) العمدة لابن رشيق ج 1 ص 99 ، وقد عبر العقاد عن نفس الفكرة في مقولته المشهورة : « الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء لامن يعددها ويحصي اشكالها وألوانها » ، « وصفوة القول ان المحك الذى لا يخطيء في نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدر أعمق من الحواس ، وذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا تعود اليه المحسوسات كما تعود الاغذية الى الدم ونفحات الازاهر الى عنصر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية » (الديوان ص 16) .

ثانيا ـ ان يشعر بشيء يأتيه اما من عالـــم حسي خارجي ، أو من عالم شعوري داخلي ، فلا بد له من معاناة ما يحسه ويشعر به ، فيعيد التجربة الانسانية وينشئها خلقا جديدا من خلال الشعر ، والقصيدة الحقة هي التي تفتح قلوبنا فتجعلنا نحس بما تستقبلـــه من قلب الشاعر ووجدانه وعاطفته واذعانها لكل ذلـك ، فتكون بذلك تلقائية يستقيها الشاعـر مـن شرايين دمائه ، فتصبح ريا تطفح بتجارب الشاعر ومعاناته ، « قال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يعرف الاغريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على ابي عبيدة فرأيته لا ينقـل الا فيما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالانساب والايـام فلم اظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك » (15) .

وقال محمد بن يوسف الحمادي : حضرت مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد حضره البحتري ، فقال: يا ابا عبادة ، امسلم اشعر ام ابو نواس ؟ فقال: بل ابو نواس ، لانه يتصرف في كل فن ، ويتنوع في كل مذهب ان شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقا واحـدا لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه ، فقال له عبيد الله : ان أحمد بن يحي المعروف بثعلب لا يوافقك على هذا ، فقال : أيها الامير ليس هذا من علم ثعلب واضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، وانما يعرف الشعر من دفع الى مضائقه ، فقـال : ورت بـك زنـادي يا ابا عبادة ، وان حكمك في عميك ابي نواس ومسلم وافـق حكم ابي نواس في عميه جرير والفرزدق ، فانه سئل عنهما ففضل جريرا فقيل له : ان ابا عبيدة لا يوافق على هذا ، فقال ليس هذا من علم ابي عبيدة ، وانما يعرفه من دفع الى مضائق الشعر (16) .

فالشعر تجربة شعورية تزداد جمالا بقدر صدقها ، وتزداد عنفوانا بقدر تعبيرها عن مكنونـات الشاعـر وأحاسيسـه لا بالركام اللغوي من الالفاظ التي تحول الشعر الى نوع من الادب اللفظي .

ثالثا ـ ان ينقل احاسيسه الى الاخرين،وبالطبع فالالة الاساسية في هذا النقل هي اللغة ، ومن هنـــا ينبغي ان تكون يقظين ازاء البراعة ، فكلما كانت المعاني قوية وارقة الظلال في فن الشاعـر ، تجاوبنـا معه ، وتجاوبت معنا تجربته ، وكان شعره شعرا انسانيا حقا بغض النظر عن قدمه أو حداثته ، والشعر الحقيقي حالة شعرية يقول فيها الشاعر شعره مختارا لا مجبرا ولا مقهور ، وهو بالضبط ما حدث لعلال الفاسي حين القى قصيدته في الشباب الذي مثـل مسرحية صلاح الدين ، فلكل شيء سبب ولا بد للشاعـــر من اثارة تحرك فيه نورانية الشاعر ، قيل لكثير : كيف تصنع اذا عسر عليك الشعر ؟ قال : اطوف في الرباع المحيلة ، والرياض المعشبة ، فيسهل علي أرصنه ، ويسرع الي احسنـــه » .

وروي ان الفرزدق كان اذا صعبت عليه صنعـة الشعر ركب ناقته وطاف خاليا متفردا وحده في شعاب الجبال ، وبطون الاودية ، والاماكن الخربة الخاليـة ، فيعطيه الكلام قياده » .

قال ابن رشيق : ان الناس ضروبا مختلفــة ، يستدعون بها الشعر ، فتشحد القرائح وتنبه الخواطر، وتلين عريكة الكلام ، وتسهل طريقة المعنى : كـل امري على تركيب طبعه واطراد عادته » . (17)

وهكذا نجد ان قصيدة علال استجابت لواجبات القصيدة ، فظرفهــا كلـــه ظرف يتـدفق عاطفــة وانفعالا ، ويتفجر معاناة ومكابدة ، فجمعت بذلك الى عمق الفكرة ، متانة اللغة ، وجمال الاسلوب وحرارة العاطفة ، وهي لاتخلو من بعض الاصباغ التي زادته قوة ومتانة ، لسبب بسيط هو كونها صدرت عفو الخاطر دون تكلف أو تجشم ، ومن ذلك مايلي :

اولا ـ براعة الاستهلال اذ اشتمل البيت الاول من الضوء على ظروف النص ، ويبرز معاناة الشاعر ، فقوله :

كل صعـب على الشبـاب يهـون
هـكـذا همـة الرجال تـكـون

تلخيص مركز لمعاني القصيـدة ، ومضامينهـا وافكارها ، وهذه هي الغاية من حسن الابتداء وبراعة الاستهلال ، مع ما أشتملت عليه من الالفاظ الحسنة ، والمقاطع المستحسنة قال بعض الكتاب : « احسنوا

15) الغيث المنسجم للصفدى ج 1 ص 12
16) المصدر السابق في نفس الصفحـة .
17) العمدة لابن رشيق ج 1 ص 179 .

الابتداءات ، فانها دلائل البيان » ذلك ان مطلع القصيدة أول ما يقرع الاذان ، فيقبل عليه السامع ويعيه ، ويفتح له عقله وقلبه ومشاعره « فينبغي أن يأتي فيه باعذب اللفظ وارقه واجزله واسلسه ، واحسنه نظما وسبكا ، واصحه معنى وأوضحه ، وأخلاه من التعقيد والتقديم والتاخير الملبس او الذى لا يناسب » ، وقالوا ينبغي للشاعر ان يتحرز في ابتدائه مما يتطير منه ، ويستحقر من الكلام ، وانكروا على ابي نواس قوله في أول قصيدة مدح بها البرامكة :

أربع البلى ان الخشوع لباد
عليك واني لم اخنك ودادي

فلما انتهى الى قوله :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتم
بني برمك من رائين وغاد

استحكم تطيرهم ونكبوا بعد ذلك باسبوع واحد . (18)

واجمعوا على ان احسن الابتداءات قول امرى القيس بن حجر الكندي :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فقالوا : لانه وقف واستوقف وبكى وبكى ، وذكر الحبيب والمنزل في نصف بيت (19) واستحسنوا قول ابي تمام يهنيء المعتصم بفتح عمورية ، مع ان المنجمين كانوا قد زعموا انها لاتفتح في ذلك الوقت :

السيف اصدق ابناء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

فبدؤه هذا يشير الى فتح عمورية وبطلان قول المنجمين ، وقول عمارة اليمني :

اذا لم يسالمك الزمان فحارب
وباعد اذا لم تنتفع بالاقارب

فابتداؤه هذا يشعر بأن القصيدة في العتاب والشكوى وقول التهامي يرثي ولده :

حكم المنية في البرية جار
ما هذه الدنيا بدار قرار (20)

وبناء على ذلك نجد أن البيت الاول من قصيدة علال جمع الى جمال اللفظ حسن الابتداء ، وهو يشير الى أمرين عليهما مدار القصيدة بكاملها :

الامر الاول : سهولة كل شيء على عزائم الشباب مهما بلغ من الصعوبة والوعورة .

الامر الثاني : همة الرجال لايثنيها أمر ولا يقف دون مبتغاه حاجز مهما كان صفيقا ، فمطلع القصيدة يشير الى انها موجهة الى الشباب متحدثة اليهم شائدة بمالهم من عزم وحسم ، لان الشباب شغله نورانية لاتؤثر فيها العواصف ، ولا تعيق سيرها العوارض ، فهو عماد الامة وأملها في احياء التراث حضارة وأمجادا ولغة ودينا .. ولهذا لجا الشاعر الى بعض الاساليب المحركة للمشاعر الموقظة للعواطف ، مستفهما مرة ، متعجبا مرة ، ناديا مرة حاضا مرة متألما مرة مكتفيا بالجمل الخبرية عندما تسكن عاصفة ثورية ،

فمن التوجع والتالم لضياع الماضي وما كان يحمله من عزة وانفة قوله :

آه لو دام ذلك العزم فينا
لم تكن في الورى بلاد هجين

آه لو دام ذلك العزم فينا
كان للعالمين منا شؤون

ومن العتاب التعجب وحث الهمم قوله :

ما دهانا وما اعترانا فصرنا
هكذا قد عدا علينا الدون

ومن التذكير والافتخار قوله :

اين ضاعت عزائم ونفوس
أين ضاعت معارف وفنون

اين أباؤنا واين حماهم
اين ساحاتهم واين الحصون

18) البديع في نقد الشعر لاسامة بن منقذ ص 285
19) المصدر السابق ص 286
20) البديع في ضوء اساليب القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين ص 175

أين من دوخوا الفرنـــج ودانـــت
لهـم الهنـد عن رضـى والصيـن

ومن التهديد بفعل الامر قوله :

اخبـروا القـوم اعلمـوهـم بأنـا
قـد حـيينـا وأنـا سنـكـون

ومن الندب بفعل الامر قوله :

قـد بعثتـم رجـانـا فـأديمـوا
سيركـم واعملـوا ولا تستكينـوا

واحفظـوا ما ورثتـم مـن لسـان
فهـو روح الحيـاة والاكسجيـن

لغـة العـرب اتقنـوهـا فـمنهـا
كـل مـا تبتـغـونـه سيـبيـن

ومن الاحتقار والاستصغار للعدو ومعاونيه قوله بفعل الامـر :

ودعـوا كـل مـن يريـد عداكـم
فهـو ما عـاش جاهـل مجنـــون

ومن الارشاد الى الطريق الصواب وخير الامة قوله بفعل الامر :

اعملـوا واخدمـوا ولا تتـوانـوا
وأنـا بالـنـجـاح بـعـد ضميـن

ومن الاختصاص الذى يفرز دور الشباب عن غيره وينبه الى ماله وما عليه قوله مستعينا باسلوب النداء :

ياشبـاب البـلاد فـيكـم احيـي
كـل شهـم بـمـا يفيـد يـديـن

ياشبـاب البـلاد فيكـم احيـي
هممـا علـقت عـليهـا الظنـون

ومعلوم هنا أن خوالف الافصاح ، والاستفهام ، والامر ، والنداء .. لا يقصد لذاته اطلاقا ، وانما لذلك كله دوره الخطير فيما يرمز اليه من أبعاد نفسية وانفعالات وجدانية وخصائص اجتماعية . فالادوات الافصاحية في النص ، وبدون استثناء ، هي كلها من قبيل تعدد المعنى الوظيفي من مبنى الصرفي الواحد ،

ثانيا ــ الجناس ، وهو من الاصباغ اللفظية كما في قوله في البيت الثاني من القصيدة « قدم في الثرى وفوق الثريا » وقوله في البيت الخامس : « ليرى كيف ضاع عزم وحزم » وهو جناس عفوى مستحسن ساقه علال عفو الخاطر ، عذب الايراد ، سهل المقاد خاليا من كل كلفة ، وفائدة الجناس « الميل الى الاصغاء اليه ، فان مناسبة الالفاظ تحدث ميلا واصغاء اليها ، ولان اللفظ المشترك ، اذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر ، كان للنفس تشوق اليه » . (21) فانت ترى الشاعر كما يقول عبد القاهر الجرجاني « قد أعاد اليك اللفظة كانه يخدعك عن الفائدة وقد اعطاها ، ويوهمك كانه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها » .

وقد وقف النقاد وعلماء البلاغة من الجناس مواقف مختلفة متضاربة ما بين محبذ ومستحسن ، وبين مفيد ومستهجن ، فابن رشيق مثلا يراه « من أبواب الفراغ وقلة الفائدة ، وهو ما لايشك في تكلفه ، ويرفضه ابن الاثير فيقول عنه انه « غرة شادخة في وجه الكلام » ، والصفدي يرى «أن المواقف ثلاثة: اما عالم معاند يجعل محاسنه مساوىء ، أو جاهل بمواقع فضله فيستوي عنده حسنه وقبح غيره، او عالم خال من الحسد سلك محجة الانصاف ، واعترف بقيمة الدرة لغواصه .

ومهما يكن من أمر ، فان الاعتدال في الاستعمال الجناسي أمر محمود وطريقة مثلى ، والتلقائية فيه اجمل وأحلى ، فهو يحسن اذا قل واتى فى الكلام عفوا من غير كد ولا استكراه ولا ميل الى جانب الركاكة . وبذلك يكون من البلاغة الفطرية التي تسري على الالسنة بلا كد ولا تعمل ، ولذلك يوصي عبد القاهر الجرجاني الاديب ان يضع المعنى نصب عينيه أولا ولا ياتي بالتجنيس أو غيره من الاصباغ والمحسنات اذا كان ذلك مخلا بتوازن اللفظ مع المعنى ، فيقول : « أما التجنيس فانك لا تستحسن تجانس اللفظتين الا اذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا جميلا ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيد ...

ثالثا ــ الطباق وهو ظاهر فى قول علال فى البيت الاول من القصيدة :

---

21) الاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ج 3 ص 271

كـل صعـب على الشبـاب يهـون
هـكـذا هـمـة الـرجـال تـكـون

فقد طابق بين « صعب » و « يهون »

وفي قوله في البيت الثامن :

مـا دهانـا ومـا اعترنـا فصرنـا
هـكـذا قـد عـلا علينـا الـدون

فقد طابق بين « علا » و « الدون »

والطباق في كلا البيتين طباق إيجاب ، وهو طباق عفوي سمح حتى يكاد لا يفطن اليه ، فزاد المعنى تجلية وتوضيحا ، فلا شيء يصعب على الشباب مهما كان قاسيا ، بل كل شيء ازاءهم ينقاد انقيادا ، غير أن الاية عكست عندما أصيب المسلمون بالوهن واعتراهم الضعف فعلا عليهم الدون ، وتغطرس عليهم الادنياء ، وتلك الايام نداولها بين الناس .

والطباق حلية معنوية ، وسبب من أسباب الوفاء بالغرض وتمامه ، ولا يزال للطباق في الكتابة الادبية مقام رفيع لانه يعضد الغرض ويقوى المعنى ويوضح المقصود كما قال والضد نقله المنيجي :

ضـدان لـمـا استجمعـا حسنـا
الضد يظهـر حسنـه الضـــــد

رابعا ـ مراعاة النظير كما في قوله في البيت الثالث عشـــر :

واتت منهـم أسـود ضـــــوار
معهـا النصـر خادمـا والمنـون

فقد ناسب بين الاسود الضواري التي كنى عن الجنود البواسل الشجعان ، وبين النصر والمنون ، فالاسد تنتصر على فرائسها بدق عنقها ، وقتلها وحيا وانهاء حياتها ، وعلاقة المناسبة تفصح عنها مفردات البيت ويوضحها السياق ، والمقامات الاجتماعية المعروفة والتداعي النفسي ، ويقال ان بعض القبائل الافريقية تتحرج من ذكر الاسد ولو عرضا ، ففي اعتقادهم أن الاسد يحضر اليهم على التو بمجرد ذكره فيفترسهم ، وكفى بهذا هلعا وخوفا ، فالاسود الضواري والنصر والمنون امور متلازمة يستصحب بعضها بعضا ولذلك يبقى المعنى مبتسرا اذا اكتفينا بقراءة الشطر الاول من البيت دون الشطر الثاني ، فمراعاة النظير لها أهمية قصوى في بلاغة الكلام وتمامه وصفائه ووضوحه ، وقد روى أن اعرابيا سمع قارئا يقرأ قول الله سبحانه : « فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا انالله غفور رحيم » ولم يكن الاعرابي يقرأ القرآن فقال : « ان كان هذا كلام الله فالحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لانه اغراء عليه ... وقد تحقق فقه الاعرابي فختام الاية « فاعلموا ان الله عزيز حكيم » والعزة والحكمة هما اللتان تناسبان من يزل من بعد ما وضـح الحـق وتبيـن (22) .

خامسا ـ المبالغة وتظهر خصوصا في غلو الشاعر في وصف ضرواة الحرب ، وقوة اسلحتها وعتادها من مجانيق يقذف منها الموت الى رماح يعدلها ملك الموت ويقيم منآدها عـزرئيـن :

ومجانيـق يـقـذف المـوت منهـا
ورمـاح أقـامـهـا عـزرئـيـن

وفي الغلو يتسابق الشعراء المجيدون في مدحهم ومجائهم وفخرهم ووصفهم ولذلك فضله قدامة بن جعفر ، بل ولذلك قيل « اعذاب الشعر أكذبه » .

وهو غلو ترفضه العادة ولكن قد يتقبله العقل بما يوحيه البيت من صور الشجاعة النادرة والانتصارات الباهرة التي كانت يومها مضرب الامثال بل وضربا من الاساطير ، في الاقدام والاستبسال .

ونحن اذا تأملنا شواهد صور المبالغة في الشعر العربي نجدها تتطور من عميق الى أعمق، وذلك باختلاف الزمان والمكان ، فبينما لا نرى في الشعر الجاهلي الا مبالغات متبولة ، نرىفيما بعد اغرقا مقرونا بما يقربه ثم غلو جرد مما يجعله مقبولا والتحليل يخرج المبالغة من حد الغلو مادامت مستندة الى فكرة . (23)

22) البديع في ضوء اساليب القران للدكتور عبد الفتاح لاشين ص 46 ، والاية المقصودة هي الاية 209 من سورة البقرة .
23) المرجع السابق ص 68

على أن القصيدة لا تخلو من بعض الصور البيانية والوجوه البلاغية والاخيلة التي تستقي ظلالها من الاساليب العربية القديمة ، بل ان الفاظ القصيدة كلها الفاظ قديمة الا مفردة واحدة هي كلمة « الاكسجين » ، ونذكر على سبيل المثال — من الاخيلة ما يلي :

أولا — التشبيه كما في قوله : « وجنود مثل الدبى وسفين ، وهو تشبيه مادي محض ، ولا طرافة فيه ، بل هو من قبيل النقل الحرفي من اخيلة العرب القدماء وصورهم ، فقد كان العرب يشبهون بالدبى كل شيء كثير العدد صعب الحصر ، ويقولـون : « أكثر من الدبى » (24)

وعن ثعلب « جاء بدبى دبي ودبى دبيين ودبي دبيين » يقال ذلك في موضع الكثرة والخير ، والمال الكثير ، « والتشبيه من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه الطف ، كان بالشعر الطف ، وكلما كان بالمعنى اسبق ، كان بالحذف اليق » (25) ولم يكن علال الفاسي سباقا لمثل هذا التشبيه ، وانما يعود اليه الفضل في احيائه وبعثه من جديد ، ولا يضيره ان يبقى تشبيها ساذجا فطريا يعود بالذاكرة الى الذوق العربي الاول ويصور الهول والقشعريرة التي يثيرها منظر الدبى والجراد ، وقد ينظر هذا التشبيه الى قوله تعالى « كأنهم جراد منتشر مطعين الى الداع » (26) ولو من بعيـد .

وكان للعرب القدماء اجلال واعظام للتشبيه ، فقد توسموا فيه البراعة والفطنـة وجعلوه مقياسا للفـن والشاعرية ، خصوصا اذا كان تشبيها ادبيا ، يجعل الصورة تعتمل بالحركة ، وتضطرب بالاثارة الجمالية النابعة من يسر واسماح .

ثانيا — الكناية كما في قولـه :

قـدم في الثـرى وفـوق الثريـا
هـمـة قـدرهـا هـنـاك مكيـن

فقد كنى بذلك عن تطلب الشباب للمعالي ، وبحثهم عن سامي الاغراض ونبيل المقاصد فهم كالشجرة الطيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء ، وذلك لعلو شانهم ، وترفعهم عن المذلة والهوان والخضوع للاجنبي أو الانصياع للدخيل ، وتتداخل هنا لوازم الكناية ، ويمكن أن تفهم على أنها كناية عن موصوف ، او على انها كناية عن نسبة ، والكناية صورة خيالية ، والتعبير بالخيال أبلغ من التعبير بالحقيقة ، وهي تعبير بلازم المعنى ، فكان الشاعر عبر عن المعنى مصحوبا بدليله ، وهو اقوى من ترك الدليل ، فالقدم الثابتة في الارض المتمسكة بها سمح لصاحبها ان ينظر الى العلاء ، ويرنو الى الافق البعيد بثقة واطمئنان ومعنوية عالية وقد اعجب القدماء كثيرا بالكناية وذكروا انها من القول دقيق المسلك لطيف المأخذ فيها محاسن تملا الطرف ، ودقائق تعجز الوصف لما تدل عليه من احترام المخاطب أن الابهام على السامعين او النيل من الخصم او غير ذلك من المقامات الاجتماعية الكثيرة المتشابكـة .

ثالثا — الاستعارة المصرحة كما في قوله :

واتـت مـنـهـم اسـود ضـوار
معهـا الـنـصـر خادمـا والمنـون

فقد صرح الشاعر بالمشبه به وهو الاسود والضواري ولم يصرح بالمشبه الذى سيقت من اجله الصورة وهم الجنود المسلمون البواسـل .

والاستعارة اساس أصيل ، ومبدا جوهري يرقى عليه الاديب ، ويتدرج ليحشد موهبته على استخلاص العلاقات بين الاشياء الخارجية المنفصلة عن ذاته ، والافكار والمشاعر الباطنة الداخلة التي تعتلج في كيانه ، وتضطرب في خلده ، كما ان الاستعارة اداة سحبية تقرب ما بين الاشياء ، وتمحو الفوارق بين صنوف من الحسيات والمعنويات فتؤلف بينهما تاليفا يخدم الحياة ويفتق العقل البشرى عن جفاف الفروق الدقيقة التي تتمايز بها الكائنات ، واليها يرجع الفضل في اخراج ما زخم من الحشود النفسية المزدخرة في ذهن الاديب

---

24) حياة الحيوان للدميرى مادة « الدبى » ولسان العرب لابن منظور مادة « دبى » أيضا ، ويطلق الدبى أو الدبا بالقصر على النمل ايضا وهو غير وارد هنا حسب ما يظهر .

25) نقد النثر لقدامة بن جعفر ص 58 .

26) بعض الاية السابعة والثامنة من سورة القمر .

أو الشاعر لتحلق بهما عاليا بأجنحة ترفرف فتنفض عنها الصور الموحية المعبرة ، فهي أعلى درجة من التشبيه وأشد ايغالا في مسلك الشاعرية ان لم تكن سمتها الاولى وخاصيتها المميزة ، لاتعدلهـا سمة أخرى فالتشبيـه الضمني في قولـه :

واحتفظـوا ما ورثتـم من لسـان
فهـو روح الـحيـاة والاكسجيـن

تشبيه جميل لا يخلو من طرافه وجمال خصوصا اذ زينه بلفظة الاكسجين المستحدثة فكل منا يعلم أنه لا حياة لامة بدون لغة ، كما لا حياة لانسان بدون اكسجين وروح ؛ غير ان التشبيه هنا يظل أقل جمالا من تشبيه الجنود بالاسود الضوارى على سبيل الاستعارة بالرغم من أن مثل هذه الاستعارة وهذه الصورة مستهلكة موظفة بكثرة في الادب العربـي والاساليب المتانقـة القديمة .

والصميم الخالص من الاستعارة هو ما كان فيها المشبه ماخوذا من الصور العقلية ، وهو ما تفتقت عنه عبترية علال فجعل من النصر والمنون خادمين للاسود الضواري والجنود المقاديم ؛ فهي حجة كاشفة عن الحق ، مزيلة للشك في الانتصار نافية للريب في الغلبة ، يقول عبد القاهر الجرجاني : « واعلم ان هذا الضرب هـو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال في تفننها وتصرفها وها هنا تتلخص لطيفة روحانية ، فلا يبصرها الا ذوو الاذهان الصافية ، والعقول النافذة ، والطباع السليمة والنفوس المستعدة لان تعي الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب » .

وبتحليلنـا للقصيـدة واستقراء أساليبهـا التعبيريـة مضمونـا وشكـلا نجدهـا تتميـز بخصائص كثيرة نجعل بعضها فيما يلي :

1) النزعة الخطابية المعتمدة على التفصيل والشرح وتوليد المعاني واتساقها كانما ياخذ بعضها بحجز بعض ، لتعميق اثرها في نفوس السامعين وزرع الروح الحماسية فيهم .

2) الوضوح الشديد ، فلا أثر للالفاظ الحوشية الغريبة ، وان تبدي للقارىء شيء من ذلك فانه يفهم معناه من السياق ، والوضوح في المواقف الخطابية أساس الاقتناع والاستمالة وليس المقصود من الوضوح ان يهبط الاسلوب الى السوقية أو ان يكون مبتذلا شائعا وانما الغرض منه السهولة في قوة والبيان في يسر ، يفهمه أغلب الناس ولكنهم يعجزون عن الاتيان بمثله .

3) اختيار الكلمات التي تناسب الموقف والسامعين معا ، ولعل الشاعر أتى بالجديد ولو قليلا حينما عبر بلفظه « الاكسجين » عن مفهوم اجتماعي عصرى ما كان ليأتي لغيره من الشعراء ، فقد طوع المفردة للشعر ولم تشعر بنشاز رغم كونها مفردة علمية مادية محضة .

4) ترتيب الموضوع ترتيبا منطقيا ، فمقدمة القصيدة تستدرجنا الى النتائج ، وتسلمنا معانيها الاساسية الى يتبعها من المعاني الفرعية .

5) قوة العاطفة ، فعاطفة علال هنا مشبوبة متاججة ، تثير الذكريات وتلهم النفس وتندلع في قلب المسلم اندلاع النار في الهشيم أو أكوام القضبان اليابسة . وقد قال شوقـــي :

والشعـران لم يكن ذكرى وعاطفـة
أو حكمـة فهـو تقطيـع واوزان

والكلمة عند الشاعر والاديب لا تدرك بالعقل وحده ، ولكنها كذلك تحس بالقلب والخيال لان للفظ اثارا في الذهن تضطرب في أعماق النفس ، وتسرى في الوجدان فتعيد اليه الماضي وذكرياته ويستعيد العواطف التي اثارتها تلك الكلمات في نفوس الناس وفي معترك الحياة .

6) التكرار ، وهو تكرار لفظيغالبا كتكرار أدوات الاستفهام وافعال الامر واسماء الفعل ؛ للتنفيس عن الشجي والترويح عنالنفس ونفث الالم وايراء نار الحماسة في السامعين الخ ... وان كان تكرارا في مظهره ، فهو تعبير عن افكار شتى لاتتشابه أبدا فهو يتحفنا غالبا بشـيء من التلوين الصوتـي والمنوى ، فيه جدة وطرافة يستقل بها كل بيت عن سابقه ولاحقه ، والاسلوب الادبي من شانه ان يعنى بالصورة ويستجيدها ويتانق فيها فيجلو علينا المعنى الواحد في حلل مختلفة ، ومعارض متباينة ؛ زيادة في الامتاع والاطراف ؛ وذلـك يقتضي التكرار والترادف في كثير من الاحيان

« والتكرار المعنوي جائز في الخطابة لتثبيت الافكار في الاذهان ، وتمكين السامعين من الفهم ولقوة التأثير ولكن لابد من تغيير العبارات . (27)

كما أن التكرير أبلغ من التاكيد ، وهو من محاسن الفصاحة لماله من فوائد جمة ، فهو يقرر الموضوع ويؤكده ولذلك قيل : « ان الكلام اذا تكرر تقرر » وبهو يزيد انتباه السامع ويشحذ ذهنه ويشعره بعظمة الموقف أو هول المقام ، وذلك واضح في تكرير الشاعر للنداء حينما قال :

يـاشبـاب البـلاد فيكـم احيـي
عممـا علقـت عليهـا الظنـــون

يـاشبـاب البـلاد فيكـم احيـي
كـل شهـــم بما يفيـــد يديـــن

وتكون فائدة التكرار أقوى خصوصا اذا أطنب الشاعر وطال كلامه وخشي تناسي الاول فيعيده مرة ثانية وثالثة ... تطرية له وتجديدا ،

7) المراوحة بين الخبر والانشاء ، فالجمل الخبرية في القصيدة تبرز وكأنها تدعو القارىء الى تامل التاريخ والاعتبار بالاحداث فتكون محل البديهيات احيانا ، ومحل امعان الفكرة احيانا اخرى ، واما الجمل الانشائية في القصيدة فهي في مجموعها صورة لانفعال الشاعر وقلقه على الاوضاع المتدنية التي تردى فيها العرب والمسلمون ، والاديب الخبير يراوح عادة بين الاخبار والانشاء حتى يتلافـى الرتابة في اسلوبه فلا يكون على وتيرة واحـــدة فيمل ، وليجدد نشاط القارىء أو السامع بهذه المغايرة ، ويصور احاسيسه ومشاعره في دقة متناهية ، فان المعاني المختلفة والانفعالات المنوعة تعوزها دائما اساليب متغايرة لتفصح عنها ، وتعرب عن مقاصدها ، وقد تخير علال الفاسي مالاءم من الاساليب لتخدم المعاني ، من خبر وافصاح وامــر ونهي واستفهام وندب وتعجب الخ ... ليتحقق بذلك ، زيادة على ما سبق عرضه ـ مغايرة في نبرات الصوت ، وطريقة الالقاء ، والوقفة والاشارة والايماءة وهنا فيه مافيه من عون على الوضوح من جهة ، وعلى التأثير من جهة ثانيـة .

3) الموسيقية ، فالشعر قيثارة أوتارها النغمـات والفونيمات زيادة على القافية ، وقد تنوعت فونيمات البنى الصرفية في القصيدة ، من انفجاري الى رخو ، الى متراخ ، الى مجهور ومحموس ومطبق ومنفتح وحافـي وتكراري وانفي ، الى مقاطع قويـة ومتوسطة وضعيفة ، ومنبور وغير منبور ، وتكاد القصيدة تجمع مختلف الصوامت ذات الوقع الخاص المناسب للمقـام لما يوحي به كل منها نطقـا وموسيقـى .

اما الاصوات الصائتة في القصيدة طويل عند البنى الصرفية المعبـرة عن الانفعال المترجمة عـن العواطف المشبوبة خصوصا في الاساليب الافصاحية والانشائية ، والاصوات الصائتة القصيرة تاتي عفوا ، ولا تكاد تظهر الا في البنى الصرفية ذات المفهومات المقررة ، او التاريخية الثابتة ، او الاجتماعية المحصنة مثل (الفرنج ، لغة العرب) رضي الشعب الخ ....

والاصوات الصائتة قصيرها وطويلها مجهور ، وهي أقوى في الوضوح السمعي من الاصوات الصامتة ، ويظهر الاثر السمعي بصورة اقوى خصوصا مع الفتحة الطويلة والكسرة الطويلة والضمة الطويلة فهي اكثر استجابة للتاوه والتنفيس عن العاطفة المكبوتة وذلك لسبب آلي محض فالفتحة الطويلة يكاد يكون اللسان معها مستويا في قاع الفم مع اندفاع خفيف الى وسطه ، وحركته متسعة ، والكسرة الطويلة أمامية الحركة ضيقة تصدر من ادنى اللسان ، أما الضمة الطويلة فخلفية ضيقة شفوية محلها أقصى اللسان ، والفتحة اخف من الكسرة ، والكسرة أقوى من الفتحة والضمة أقوى منهما جميعا ، وتدل على الخشونة والغلظة ، بل وعلى عنف الموقف وشدته ولامر ما اختار علال الفاسي لقصيدته قافية نونية مضمومة باشباع زيادة على انتقاء الالفاظ العذبة التي يهواها السمع ، وتسهل في النطق لتنساق مع بحر القصيدة هو الخفيف التام ، والخفيف بحر يستعمل عادة في حالات الانفعال وطماح العاطفة كالشكوى والغزل وذلك لخفته وتنوع تفاعيله ، وهو أخف البحور الشعرية عى الطبع ، وأحلاها للسمع ، واذا جاد نظمه صار سهلا ممتنعا لقرب الكلام المنظوم فيه من القول المنثور وليس في جميع بحور الشعر بحر نظيره يصح للتصرف بجميع المعاني ،

27) الاسلوب لاحمد الشايب ص 144 .

ويظهر ان علال الفاسي تأثر بتدافع المحفوظ من الشعر القديم في صدره وهو يلقي هذه القصيدة ، فرائحة قصيدة ابي الغول الطهوى الحماسية تشم من وراء ظلال معاني قصيدة علال،وقصيدة ابي الغول الطهوي منظومة على البحر الوافر ، وهو بحر يستعمل فى اغلب استعمالات الخفيف، واكثر ما يجود به النظم فى الفخر والرثاء،ولا يخفي ما فى قصيدة الشاعر علال الفاسي من فخر وبكاء على القديم الضائع،بل انا قافيتي القصيدتين تتشابهان صوتا وان اختلفتا حركة ، يقول ابو الغول الطهوى :

فدت نفسي وما ملكت يميني
فوارس صدقوا فيهم ظنوني

فوارس لا يملون المنايا
اذا دارت رحى الحرب الزبون

ولا يجزون من حسن بسيء
ولا يجزون من غلظ بلين

ولا تبلى بسالتهم وان هم
صلوا بالحرب حينا بعد حين

هم منعوا حمى الوقبى بضرب
يؤلف بين اشتات المنون

فنكب عنهم درء الاعادي
وداووا بالجنون من الجنون

ولا يرعون اكناف الهوينى
اذ احلوا ولا ارض الهدون

لقد ظل المغرب في تاريخه الطويل بناء شامخا تزهو به قلائد الاجيال ، فكان وما يزال قلعة للقرآن ، وحصنا للقران ، وموئلا للعربية ، واستحق الريادة في العلم والحضارة في العالم ، وقد عبر عن ذلك الشاعر أحسن تعبير وصوره ابرع تصوير ، ملتزما أصول الشعر العربي وقواعده ، لم تعوزه القافية ولا خانته اللغة فكان بذلك مثلا للشعر الاصيل ، خلافا لمن يدعون ان القافية من معوقات الشعر ومثبطات الشاعر فيهربون الى سفاسف القول ظنا منهم أنهم يقولون شعرا ، وهم في الواقع يجترون شعيرا ،

وبذلك أثبت أن المغرب بفضل شبابه يظل شامخا كالطود العظيم رغم عوادى الزمن لايبخل بالعطاء ولا يضن بشعاع السماء ، فحق للشاعر أن يتغنى بأمجاد هذا الوطن خصوصا وبما يتفرع عنها من امجاد المسلمين عموما ، ومن أراد أن يلتمس اثر المغرب في الحضارة الانسانية فانه يجد ذلك في عمرانه وعلمائه ، والمصلحين من ابنائه والمحنكين من رجالاته ،

وللنص قيم كثيرة متعدد الجوانب تلخص بعضها فيما يلي :

أولا – القيمة الادبية الاسلوبية ، ففي القصيدة ميزات لاتطرد كثيرا فيما يسمونه بالكتابة الحديثة ومن ذلك :

ا – الاعتماد الشديد على حروف الجر التي تسمح للافعال بالمرونة واتساع الاستعمال فيتقلب الشاعر في المعاني تقلبا عجيبا ،

ب – اللجوء الكثير الى الحذف ، والحذف شجاعة العربية كما قال ابن جني ، وبذلك يصبح الايجاز والرص ميزة العبارة ،

ج – التقلب السريع بين الخبر والانشاء بحيث تزداد العبارة حيوية وانطلاقا ،

د – التوتر العصبي في العبارة بحيث نشعر بها وكأنها تركض وتنبض وتتوثب ،

هـ – التجاوب اللفظي بين معناه ومبناه بحيث نشعر ان لاكثر عبارات القصيدة صدى موسيقيا يردد النغمة ترديدا عذبا ما فيه من اطناب معنوى أو تكرير صوتي ،

و – المتانة التعبيرية بحيث أن كل عبارة تعبر عن وضع خاص ولا يقوم سواها مقامها في اداء المعنى ، ثانيا – قيمة فكرية ، وتتلخص فيما يوحي به النص من أفكار تشير بلمحة خاطفة الى حادث او مكان جغرافي او اسلامي ، أو عتاد حربي ، او مناوءة عدو او غدر زمان ، أو ايقاظ همة ، أو سير لاغوار التاريخ ،

ثالثا – قيمة اصلاحية وعليها يدور النص كله من دعوة الى الرجوع للدين الاسلامي وقيمه الرفيعة، ومن دعوة الى اتقان العربية التي هي روح الحياة واكسجينها ومن تخليص الوطن من براثن الاستعمار وشرور اذنابه . ولا يخفي ان زعماء الاصلاح في عصرنا يوقعون كلهم على نفس الوتر في المشرق العربي كما في مغربه بل ومن عصر ابن تيمية وابن القيم الجوزية الى ايامنا هذه .

وبعد، فقد كان الاسلام وكتابه عرضة لكيد الكائدين ومرمى لسهام الحاقدين منذ ظهور الحنيفية السمحاء ، غير أن الله وعد باستخلاف أهله في الارض ، وبحفظ كتابه المنزل باللسان العربي المبين، ولئن اذاق المسلمين شيئا من البلايا فما ذلك الا لابتلائهم وامتحان درجة ايمانهم وتمسكهم وتفقهم من قصيدة علال أنه لا يجب الاكتفاء بالقول دون العمل لان ذلك أكبر مقتا عند الله ، والقصيدة كلها تهيب بايقاظ همم المسلمين واحياء تاريخهم وتراثهم وقد عبر الشاعر عن ذلك كله بقوة ادراك وحصافة راي ، وعمق تفكير ، واصالة رؤية ، فكان بحق علما عملاقا حجمه في الزمان والمكان أكبر من السنوات التي عاشها والارض التي وجد فيها .

محمد حمزة – الرباط

من مواضيع الأعداد القادمة

- الوزارة والوزراء بالمغرب الأقصى
- ورقات من تاريخ الحركة الوطنية بشمال المغرب
- السلطان المولى محمد بن عبد الله ومآثره الخالدة
- بيعة الشعب المغربي خالدة ورسالة العرش العلوي متواصلة
- الصحوة الاسلامية تاريخا ومنهجا ودور المغرب في تدعيم أسسها.
- ذكريات عيد العرش المجيد .

رُبابة

للشاعر الأستاذ عبد العلي الودغيري

رشيقة ، خفيفة ، ربابه   سمراء في بلورها مذابه
شهدية ، وعسل لماها   يزيد البعد لها صبابه
لؤلؤة بحرية فريدة   يرزقها الله لمن اثابه
وبلسم منطقها الرخيم   ومرح ، ومصدر الدعابه
تضحك او تفصح عن جواهر   مكنونة ، مصونة ، خلابه
ونظرة تمنحك السعادة   وتفرج الغمة والكآبة
حمامة تشدو على الاعراش   بلحنها صداحة ، شبابه
باسم ابيها تملأ الاكوانا   تنشده ذاهبة اوابه
فتبعث الاشفاق والحنانا   في كل من بقلبه صلابه
وفطنة في طبعها خليقة   قد ورثت عن جدها النجابه
وشابهت اباها في السمات   تنوب في اوصافها منابه
كأمها في شدة المراس   عفيفة ، لبيبة ، لبابه
اليفة تحفل بالصحاب   وتحفظ الوداد للقرابه
تهش في الوجوه بالبشارة   حفية باهلها رحابه
فراشة تطوق الاعناقا   تطوف في حقولها جوابه
بنكهة تحسبها علامه   وشامة خصت بها الربابه

* * *

يا بسمة من وهج الضياء … ودعوة في وقتها مجابه
ورحمة تسعها القلوب … وجنة لمن جنى ثوابه
يا قدرا أراه ما أنصفني … أفحمني ولم أجد جوابه
لو كان مثلي حظه شقيا … او ان ما أصابني أصابه
وهده التقريب والبعاد … وافقدته طفلة صوابه
اذن لكان اسعد الاوطانا … وكل حب قد راى احبابه
وانجلت الكربة عن فؤادي … وهتكت ستائر السحابه
تحجب عني مطلع الشموس … ومنزل الاهلة الصحابه

باريس : عبد العلي الودغيري

كتاب جديد للأستاذ عبد العلي الودغيري

●● يصدر قريبا عن وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية كتاب جديد للأستاذ عبد العلي الودغيري بعنوان "أبو علي القالي" وهو دراسة أكاديمية نالت جائزة المغرب 1977 ●●

رسالة إلى محتسب

للأستاذ محمد الحلوي

باعادة الاعتبار الى نظام الحسبة يكون المغرب قد استرجع اسلوبا من اقوم الاساليب التي عرفتها المجتماعات الاسلامية والتي ازدهرت فيه قبل الحماية ولم تفقد مكانتها الا بحلول المراقبة البلدية محلها ، والذي يدرس تاريخ الحسبة في المغرب لا يسعه الا الاعجاب بالاعلام البارزة التي شغلت هذه الوظيفة وأعلتهم لها كفاءتهم الخلقية والدينية فاستطاعوا أن يوفروا للناس سلما اجتماعيا امن فيه بعضهم احتيال بعض وامنت معه اموالهم من الابتزاز وصحتهم من الاعتلال والاهتزاز ،، ، ومن الطريف ان تسوقني المصادفة وأنا أقرأ عن لسان الدين ابن الخطيب الاندلسي الى رسالة كتبها الى صديق له يهنئه بالحسبة ويهيب به الى التزام الحق والجد في ما اسند اليه وكانما يوجهها الى كل الذين يضطلعون بعبء هذه المسؤولية ويتحملون ثقل هذه الامانة ،

كان الصديق المحتسب هو محمد بن قاسم المالقي ترجم له في الاحاطة فنونه بمناقبه واثنى على مثاليته ونزاهته ، فهو كما وصفه جملة جمال ، من خط حسن ، واضطلاع بكتاب الله ، وهو بلبل السبع المثاني نسيج وحده في حسن الصوت وطيب النغمة ، عذب الفكاهة ، طريف المجالسة ، وهو مع نزاهته واستقامته، متسور حمى الوقار ، ملب واعي الانبساط ، ثم يقول لسان الدين في التمهيد لرسالته ، انه كتبها اليه مداعبا لا يقصده بنقايضها وانما يشير بذلك الى اضداده من المحتسبين الذين لايقدرون هذه الخطة قدرها ، ولايعرفون خطرها ، ويتخلص الى كتابة الرسالة فيبداها هكذا ،

يا ايها المحتسب الجزل
ومن لديه الجد والهزل

يهنيك والشكر لمولى للوري
ولاية ليس لها عزل

كتبت ايها المحتسب ، المنتمي الى النزاهة المنتسب ، أهنيك ببلوغ تمنيك واحذرك من طمع نفس بالغرور تمنيك ، فكاني بك وقد طافت بركابك الباعة ولزم أمرك السمع والطاعة ، وارتفعت في مصانعتك الطماعة ، واخذت اهل الريب كما تقوم الساعة ، ونهضت تقعد وتقيم ، وسطوتك الريح العقيم وبين يديك القسطاس المستقيم فان طرفك امنت على الولاية صرفك ، وان ملات ظرفك رحلت عنها حرفك ، وان كففت فيها كفك ، حنك العز فيمن حنك ، فكن لقالي (1) المجبنة قاليا ، ولحوت السلة ساليا ، وأبد لدقيق الحواري زهد حواري ، وازهد في ما بايدي الناس من القواري ، وسر في اجتناب الحلواء على السبيل السواء ، وارفض في الشواء ، لا دواعي الاهواء ، وكن على الهراس وصاحب

1) ـ المجبنة : طعام يصنع من الجبن ، والقالي الاول من قلى اللحم ، والثاني المبغض ،

ثريد الراس ، شديد المراس،وثب على طبيخ الاعراس ليلا مرهوب الافراس ، وادب اطفال الفسوق في السوق سيما من كان قبل البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق والناس اصناف ، فمنهم خسيس يطمع منك في اكلة ومستعد عليك بوكزة أوركلة وحاسد فى معطية تركب وعطية تسكب ، فاخفض للحاسد جناحك وسدد الى حربه رماحك ، واشبع الخنسيس منهم مرقة فانه جنق ودس له فيها عظما لعله يختنق ، واحفر لشريرهم حفرة عميقة فانه العدو حقيقة ، حتى اذا حصل وعلمت ان وقت الانتصار قد اتصل ، فأوقع واوجع ولا ترجع،وأولياءه من السياطين فافجع ،والحق اقوى ، وان تعفوا اقرب للتقوى ، سددك الله الى غرض التوفيق ، وأعلقك من الحق بالسبب الوثيق ، وجعل قدومك مقرونا برخص اللحم والزيت والدقيق هـ) .

تلك هي الرسالة والتهنئة التي كتبها لسان الدين لصديقه المحتسب وكأنما يكتبها لكل الاجيال المتعاقبة ، وهي الى ما فيها من فنية وجمالية تطبع كل ما كتبه ابن الخطيب في معلمة ودستور يستضاء به،ووثيقة تاريخية تحدد آفاق هذه الخطة في الاندلس ومجالها وترسم الخطوط الواضحة لطبيعتها ،،، ويبدو واضحا ان ابن الخطيب يقدر جسامة المهمة التي اضطلع بها صديقه ، لذا فهو يشفق عليه خوف ان ينجرف مع التيار وتطوح به الاهواء ، ويحذره من المزالق التي تزل فيها اقدام الرجال ، ، ويحمل لسان الدين اختصاصات المحتسب في مجالات ثلاثة : مراقبة المواد الغذائية ونصرة المظلوم واستخراج الحقوق ، وحماية الاخلاق والاداب العامة ابتداء بالاطفال في السوق ، ثم هو يحاول ان يساعد صديقه اكثر فيصنف له الناس اصنافا ثلاثة يتفاوتون في خطورتهم على المجتمع ومدى ما يلحقون به من اضرار ، فهناك الخسيس الذي لا يهتم الا ببطنه ، والحاسد الذي يخلق لك المتاعب ، والشرير الذي يتعدي ضرره الى المجتمع ، وهو العدو حقيقة الذي يجب أن يحفر له حفرة عميقة ، واما من عداه فالعفو عنه اقرب للتقوى .

ويختم ابن الخطيب رسالته متمنيا لصديقه ان يكون طالع يمن وبشير خير ، يعم في ولايته الرخاء ويسود الامن والهناء وذلك كل ما يعلق على المحتسب النزيه من آمال ، فانه لاشيء يصلح الملح اذا ما فسد الملح ! .

أبو الوليد الباجي

وكتابه "المنتقى في شرح الموطأ"

للأستاذ محمد صلاح الدين المستاوي
(تونس)

لم يكن ابو محمد بن حزم الظاهري مبالغا عندما اعترف لمنافسه ومجادله ابي الوليد الباجي بالرئاسة العلمية لمذهب المالكية، فقد قال : (لم يكن للمالكية بعد عبد الوهاب مثل ابي الوليد الباجي رحمه الله) (1) .

ولمعرفة ما كان عليه ابو الوليد الباجي من علم غزير في شتى الفنون العلمية السائدة في عصره لا سيما العلوم الشرعية ، الوسائل منها والمقاصد . يجدر بنا ان نتتبع مراحل حياته مرحلة بعد اخرى لندرك ما بلغه أبو الوليد من درجات عالية ومقامات سامية تبواهما بعد جهود مضنية وتضحيات جسيمة ، وسنوات غربة طويلة عن الاهل والوطن كانت مصحوبة في بعض الاحيان بفاقة وحاجة دفعت ابا الوليد الى تعاطي اعمال شاقة من اجل ضمان قوته .

اسمه ونسبه :

هو سليمان بن خلف بن سعدون بن ايوب بن وارث الباجي ، اصلهم من بطليوس ثم انتقلوا الى باجة الاندلس وسكنوا قرطبة .

اما ابو الوليد فقد استقر بشرق الاندلس ونشأ كما ينشأ أترابه في بلاد الاندلس التي كانت تشهد حركة علمية ونهضة ثقافية وانطلاقة حضارية فبادر الى تلقين مبادىء الثقافة الاسلامية من حفظ للقرءان ، وتعلم لمبادىء العربية من نحو وصرف ، كما تلقى أوليات معلوماته الفقهية والعقدية ليتوجه بعد ذلك صوب علماء عصره ليأخذ عنهم ويتلقى منهم في مختلف فنون المعرفة السائدة .

شيوخه بالاندلس :

تلقى ابو الوليد الباجي على عدد كبير من علماء عصره بالاندلس واجتمع بهم ونذكر منهم ابن الرحوي وابن الاصبغ وابي محمد مكي وابي شاكر القبري ومحمد بن اسماعيل ابن فورتش وابي سعيد الحفري والقاضي يونس ابن مغيث .

ولم تكن همة ابي الوليد لتقف عند هذا الحد ، فقد اجازه علماء الاندلس وشهدوا له بالاهلية مما دفعه الى الرحلة الى بلاد المشرق رغبة في الاستزادة والتحصيل .

رحلته الى الشرق :

رحل ابو الوليد سنة 426 هـ او نحوها فاقام بالحجاز مع ابي ذر ولازمه وحج أربع حجج ، وقد

(1) ترتيب المدارك ج 3 ـ 4 ص : 802 للقاضي عياض ؛ تحقيق الدكتور احمد بكير .

اخذ عن علماء الحجاز والقادمين على الحرمين من العلماء القادمين من كل البلاد الاسلامية . ومن هؤلاء ابو بكر المطوعي وابو بكر ابن سحنون وابن صخر وابن ابي محمود الوراق وغير هؤلاء .

ثم رحل الى بغداد حيث اقام ثلاثة اعوام يسمع الحديث ويتلقى الفقه عمن لقيهم من خيرة الفقهاء على مختلف المذاهب : مالكية وشافعية واحناف ، لا يفرق بينهم ضالته المنشودة التحصيل ، ثم العودة الى بلاده بعلم غزير . فلا غرابة ان نجده يلازم ابا الفضل ابن عمروس امام المالكية وابي الطيب الطبري ، كما تلقى عن ابي اسحاق طاهر بن عبد الله الشرازي الشافعي ، ابي عبد الله الدامغاني ، والصيمري رئيس الحنفية وابي الحسن العيثقي ، وابي الفتح الطناجري ، وابن حمامة ، وابي علي العطار وابي القاسم التنوخي وغير هؤلاء من علماء العراق .

وقد روى ابو الوليد الباجي عن الحافظ الخطيب البغدادي ، وروى الخطيب عنه .

قال الخطيب انشدني ابو الوليد لنفسه :

اذا كنت اعلم علما يقينا
بأن جميع حياتي كساعة

فلم لا اكون ضنينا بها
وانفقها في صلاح وطاعة (2)

ثم دخل بعد ذلك الشام فسمع وتلقى عن ابي السمسار وطبقته وانتقل الى الموصل حيث اقام هناك سنة حاز فيها علما غزيرا ودرس على السمناني الاصول .

وفي مصر سمع من ابي محمد بن الوليد وغيره .

وهؤلاء العلماء الذن اجتمع بهم ابو الوليد بالحجاز والعراق والشام والموصل ومصر هم اعلام زمانهم ورؤساء المذاهب الفقهية والعقدية ممن تشد للاجتماع والتلقي عنهم الرحال ويسافر لهم الرجال .

كان مقام ابي الوليد بالمشرق طويلا ، اذ بلغ نحو ثلاثة عشر عاما ، فلا غرابة ان يعود بعلم غزير ومقام رفيع شهد له به من تلقى عنهم واجتمع بهم .

عودته الى الاندلس :

بعد ان نال ابو الوليد بغيته وقد طال شوقه الى ملاقاة اهله ووطنه قفل راجعا الى الاندلس حيث تنتظره مهام كبيرة وبدع كثيرة سيسعى الى اماتتها واسكات مروجيها بحجج قوية مقنعة وعلم غزير يجمع الى النقل العقل .

ولم يشأ ابو الوليد ان يتوجه الى مقام الصدارة والرئاسة في الاندلس وهو بها جدير بل فضل وهو الذي اجر نفسه ببغداد مدة مقامه لحراسة درب كان يستعين باجرته على نفقته . لم يشأ — من هذه همته — ان يطلب الرئاسة بل على العكس ، رغب عنها وفضل سعيها اليه ما دام اهلا لها . وهي عزة نفس وهمة عالية وصيانة للعلم وتعظيم له ، عملا بقول من قال :

ولو ان اهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه في النفوس لعظما

ولم تقبل الدنيا بسرعة على ابي الوليد فتولى في اول وروده الى الاندلس ضرب اوراق الذهب وعقد الوثائق وقيل انه كان يخرج للاقراء وفي يده اثر المطرقة الى ان انتشر علمه واشتهرت تآليفه وعرف قدره فاتسعت حاله وكثر ماله واستعمله الرؤساء للوساطة والسفارة فيما بينهم ونال لاجل ذلك اقصى التكريم والتبجيل .

تلاميذه بالاندلس :

تفرغ ابو الوليد التعليم والاقراء فاقبل عليه خلق كبير واستفاد منه عدد كبير وذاع صيته وشهرته بين الناس فصارت حلقته محط رحالهم ، وحاز الرئاسة العلمية بالاندلس على حد تعبير القاضي عياض (3) .

---

(2) الديباج لبراهن الدين بن فرحون ص 121 .
(3) ترتيب المدارك ج 3 — 4 ، ص : 802 . تحقيق الدكتور احمد بكير .

ومن أبرز من تلقى عنه وتفقه على يديه : ابو بكر الطرطوشي والقاضي ابن شيرين ، وسمع منه القاضيان الحافظان : ابو علي الجباني والصدفي والقاضي ابو القاسم المعافري والسبتي وابن ابي جعفر المرسي وغيرهم .

وهؤلاء الذين ذكرناهم من تلاميذ ابي الوليد يشهدون بسعة علمه وافقه ، فاذا كانت شهرتهم قد طارت وصيتهم قد ذاع فان لاستاذهم ابي الوليد اليد الطولى في ذلك .

شهادات العلماء فيه :

ان الشهادة تكون اصدق واقرب الى الواقع عندما تصدر عن الزملاء والخصوم والمنافسين ، فلا غرابة ان تجتمع كلمة هؤلاء على الشهادة لابي الوليد بالرئاسة العلمية .

فهذا القاضي ابو علي بن سكوة كما اورد ذلك بن بشكوال في كتاب الصلة ، يقول : ما رايت مثله على سمته وهيبته وتوقير مجلسه وهو احد ائمة المسلمين .

واورد ابن بسام لابن حزم الظاهري شهادة هي من اعتراف وتجرد لمن انتصب مفندا لمذهبه مهدما لما بناه .

قال ابو محمد بن حزم : لم يكن لاصحاب المذهب المالكي بعد القاضي عبد الوهاب مثل ابي الوليد) (4) .

ولهذه الشهادة من ابن حزم قيمتها وقدرها وسيتجلى ذلك عندما نعرض الى ما دار بينهما من جدل طويل ومناظرات علمية انتهت بانتصار ابي الوليد ، وقد كان ابن حزم قبل مجيء الباجي ظاهرا منتصرا على علماء الاندلس .

اما القاضي ابن العربي الفقيه والمفسر المالكي الاندلسي فانه يصور بدقة وضع العلماء والعلم قبل ابي الوليد وما كان عليه الوضع من انحطاط وتدهور وتقليد اعمى ، ثم تغيرت الاحوال ببروز ابي الوليد

يقول ابن العربي : (عطفنا عنان القول الى مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى لما كثرت البدع وذهب العلماء وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء وتعلقت بهم أطماع الجهال فقالوا بفساد الزمان ونفوذ وعد الصادق في قوله صلى الله عليه وسلم : اتخذ الناس رؤساء جهالا أفتوا بغير علم فضلوا واضلوا وبقيت الحال هكذا ، فماتت العلوم الا عند احاد الناس ، واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل ، وذلك بقدرة الله تعالى ، وجعل الخلف يتبع السلف حتى آلت الحال الى ان ينظر في قول مالك وكبراء اصحابه ، ويقال قد قال في هذه المسألة اهل قرطبة واهل طلمنكة واهل صلبوه واهل طليطلة وصار الصبي اذا عقل سلكوا به مثل طريقهم ، علموه كتاب الله تعالى ثم نقلوه الى الادب ثم الى الموطا ثم الى المدونة ثم الى وثائق ابن العطار ثم الى أحكام ابن سهل ثم يقال قال فلان الطليطلي وفلان المخريطي وابن مغيث لا اغاث الله يداه فيرجع القهقرى ، ولا يزال الى وراء ، ولولا ان الله تعالى من بطائفة تفرقت في ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضي ابي الوليد الباجي وابي محمد الاصيلي فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة وعطروا انفاس الامة الذفرة لكان الدين قد ذهب ، ولكن تدارك الباريء سبحانه بقدرته ضرر هؤلاء بنفع هؤلاء وتماسكت الحال قليلا والحمد لله تعالى) (5) .

وقد تولى ابو الوليد الباجي قضاء مواضع من الاندلس دون مقامه وعلمه كقضاء اريولة ومثلها ، وكان ينيب عنه في بعض الاحيان ويقصدها بنفسه في احيان اخرى .

مناظراته لابن حزم :

اشرنا الى ظهور ابن حزم على علماء الاندلس قبل الباجي وانتصاره عليهم وتكاثر اتباعه ، واقبال الناس عليه وعلى مذهبه الظاهري ، وذلك لضعف مجادليه وقلة زادهم وعمق علمه وقوة حجته .

---

(4) ترتيب المدارك للقاضي عياض ج 3 – 4 ص :2 80 . تحقيق دكتور أحمد بكير محمود .

(5) الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي : محمد بن الحسن الحجوي ج 2 ص : 216 ، وترتيب المدارك للقاضي عياض ج 3 – 4 ص : 802 وما بعدها .

وما كانت هذه الحالة لتستمر لابن حـــزم ، اذ قيظ الله له ابا الوليد الباجي الذي لمس اثناء تنقله عقب عودته من المشرق في انحاء الاندلس ذيـــوع دعوته وانتشار مذهبه وفتنة الناس به وهم الذيـــن ينقادون لصاحب الحجة الاقوى والاقدر على الجدال.

وكان الناس مع عجزهم وعجز علمائهم عن الرد على ابن حزم الا انهم لم يقتنعوا ولم يسلموا له بصحة وسلامة ارائه ، بل انهم ليلمسون خلطــه ولكنهـــم لا يقوون على مجادلته ، فقد كان له تصرف في فنـــون تقصر عنها السنة فقهاء الاندلس في ذلك الوقت لقلة استعمالهم النظر وعدم تحققهم به ممـــا جعلهـــم لا يقومون لمناظرته ، ومما جعل صوته عاليا فقـــد كان لكلامه طلاوة تاخذ بقلوب الناس .

ولما قدم ابو الوليد الاندلس وجـــد النـــاس بغيتهم واملهم في الانتصار على ابن حـــزم والاخـــذ بثارهم منه خصوصا وقد كان عنـــده من الاتقـــان والتحقيق والمعرفة بطرق الجيال والمناظرة وهو ما جعله اثناء رحلته بالمشرق ، فبواه الناس لهذه المهمة الشاقة فكان فيها المنتصر ، اذ قد دارت بينهمـــا مناظرات طويلة ومجادلات قوية فضح ابن حزم فيها مما جعله يخرج من ميورقة ، ومما جعل صوته يخبو ودعوته تموت . وقد دون هذه المناظرات الشيقـــة ابو الوليد في كتاب الفرق من تاليفه .

محنتـــــه :

ولم يكن ابو الوليد لتهنا ايامه وتسعد ، فليست الدنيا بدار هناء ، ولا بد ان يعتري صفوها تعكير قد يكون سببه في بعض الاحيان حسد الازملاء ، فان كل ذي نعمة محسود ، وهم الذين يتبعون غيرهم ممـــن انعم الله عليه ليعثروا له عن سقطة قلـــم او لسان فيرتكزوا عليها للتنقيص من قيمة من جعلهم الحسد يعتبرونه خصما لدودا .

ولقد وجدوا لابي الوليد على ماذا يرتكـــزون ، وصورة ذلك : (انه قرىء عليه بداية كتاب البخاري حديث المقاضاة فمر في حديث اسرائيل فتكلم ابو الوليد في الحديث وذكر القول من قال بظاهر اللفظ فانكره عليه ابن الصائغ وكفره باجازته الكتابـــة على النبي الامي وان هذا تكذيب للقرءان الكريم ، فحمل عليه عدد من خصومه وقبحوا عند العامة ما اتى بـــه واكثر القول من لم يفهم غرضه حتى وصل الحد الى لعنه على المنابر نثرا وشعرا ، وفي ذلك يقول احدهم :

برئت ممن شري دنيا باخـــرة
وقال ان رسول الله قد كتب

وضمن الخطباء في المساجد معنى البيـــت في خطبهم وثارت ثائرة العوام الذين يتحركون في كـــل اتجاه مما دعا الباجي الى تاليف رسالة يوجه فيهـــا رايه ويبين سلامة قصده ، وان ما قاله لا يقـــدح في المعجزة كما لم تقدح القراءة في ذلك بعد ان لم يكن قارئا ، بل في هذا معجزة اخرى ، واطال في ذلـــك الكلام وذكر من قال برايه من العلماء (6) .

غير ان المحققين من العلماء فهموا قصده ورايه فلم يكن عليه منهم نكيـــر .

وفي سبيل تبرئة نفسه مما الصق به ، ومـــن اجل اسكات خصومه ومناوئيه كتب بالمسالـــة الى شيوخ صقلية وغيرها فصوبوا رايـــه وانكـــروا على المنكرين عليه وسوغوا تاوله وشهدوا لـــه بغزارة العلم وسلامة العقيدة ، ومن هؤلاء ابن الجرار .

مؤلفاته وتصانيفه :

لا شك ان من كانت هذه شهرته العلمية ومكانته الاجتماعية في تغيير بعض الاوضاع واماتة بعـــض الدعوات والانتصار على اصحابها ثم الاستقلال باراء اجتهادية تثير ضعاف العقول ثم الانتصار عليهم ، ان من كان هذا تاثيره في محيطه سيترك آثارا خالـــدة وتآليفا عميقة لن تكون من قبيل المكرر المعاد ؛ فـــلا غرابة اذا تعددت مؤلفات الباجي وتنوعت فشملـــت اغلب فنون المعرفة ، ولا عجب اذا كانت من المختصر والمطـــول .

---

(6) ترتيب المدارك للقاضي عياض ج 3 – 4 ص : 802 وما بعدها .
الديبـــاج لابن فرحـــون ص 121 وما بعدها.

ولم تقتصر كتبه على فن دون آخر واهم مـا كتبـه :

كتاب الاستيفاء في شرح الموطا ، وهو كتاب فيه علم غزيـر .

كتاب المنتقى في شرح الموطا ، وهذا اختصار الاستيفاء ، وهو كتاب جليل سنعود اليـه بالدرس والبحث ، اذ انه الشرح الوحيد من شروح الباجي الموجود بين ايدينا وهو مطبوع .

واختصر المنتقى في كتاب سماه الايماء قـدر ربـع المنتقـى .

وكتاب السراج في علـم الحجاج .
وكتاب مسائل الخـلاف لـم يتـم .
وكتاب المقتبس من علم مالك بن انسا لم يتم .
وكتاب المهذب في اختصار المدونة الكبرى .
وكتاب شرح المدونـة .
وكتاب اختـلاف الموطـا .
ومسالة اختلاف الزوجين في الصداق .
وكتاب مختصر المختصر في مسائل المدونة .
وكتاب احكام الفصول في احكام الاصول .
وكتاب الحدود في اصول الفقه .
وكتاب الاشارة في اصـول الفقـه .
وكتاب تبيـن المنهـاج .
وكتاب التشديد الى معرفة طريق التوحيد .
وكتاب تفسير القرءان لـم يكمـل .
وكتاب فـرق الفـرق .
وكتاب الناسخ والمنسوخ لـم يتـم .
وكتاب السنن في الوئائ والزهد والوعظ .

وكتاب التعديل لمن خرج له البخـاري فـي الصحيـح .

وكتـاب في مسح الـراس .
وكتـاب في غسل الرجليـن .
وكتـاب النصيحـة لولديـه .
ورسالته المسماة تحقيق المذهب وله غير ذلك.

ان هذه العناوين المختلفة والعديدة تبرهن عن سعة علم الباجي وغوصه في المسائل الدقيقة غوص من لا يهاب الغرق ، كما تبين التزام صاحبها الشديد بمذهبه المالكي التزاما وتمسكا عن غير تحجـر او تعصب يتجلى ذلك في خدمته للكتاب الاول للمذهب وهو الموطا ، فشروحه الثلاثة : المطول وهو الاستيفاء والمتوسط وهو المنتقى ، والمختصر وهو الايماء ، وكتاب اختلاف الموطا وعنايته بالمدونـة شرحـا واختصـارا .

ان هذا الجانب من تآليفه يبين مدى التزامـه بمذهبـه .

اما العمق والعلم الغزير فيتجلـى في بحثـه لمسائل فرعية من مثل اختلاف الزوجين في الصداق ومسح الراس وغسل الرجلين ثم كتبه الاصولية التي تبحث في قواعد الفقه وضوابطه مما يدل دلالة قطعية على سعة علمه وعمق تآليفه وكثرة فائدتها ، ولا شك ان ابا الوليد الباجي كان عميقا مصيبا الى حد بعيد في مختلف تآليفه وكتبه بما في ذلك كتـب المناظـرة والجدال التي دون فيها ما دار بينه وبين ابن حـزم الظاهـري .

وما بين ايدينا من هذه الكتب وهو النزر القليل سواء كان ذلك في الفقه او الاصـول او الجـرح والتعديل ، بل في علم الحديث . ان هذا القليل من كتبه الذي وصل الى ايدينا وراى النور يشهد بغزارة علم الباجي وابداعه واتيانه بالجديد المفيد .

ولما كان هذا البحث منصبا على شرح الموطا فساولي شرح المنتقى الموجود بين ايدينا اهتمامي فاقدم منهجه وطريقة شرحه وخصائصها مع عينات وامثلة اتخيرهـا .

وفـاتـــه :

توفي رحمه الله وهو في سن الواحدة والسبعين وقد كانت وفاته سنة 474 هـ ، وبذلك يكـون مولده سنه 403 هـ ، فكانت حياته مليئة بالاعمال المجيدة والآثار الخالدة ، وبقي ذكره لا ينسى لما قدمه لدينه وامته من اعمال جليلة ستكـون لـه بين يدي الله شفيعـا .

شرح المنتقـــى :

شرح ابو الوليد الباجي الموطا بثلاثـــة شروح وهي الاستيفاء ثم اختصره في المنتقى الذي اختصره ايضا في كتاب الايمـــاء

ويبدو ان شرح المنتقى هو الشرح الاوسط ، وهو الباقي الى اليوم والذي طبع طبعة اولى بامر من السلطان مولاي عبد الحفيظ ملك المغرب ، وذلـــك ســـنة 1331 هـ .

ثم اعيد طبعه بعد ذلك .

وهو شرح رائع لكتاب الموطا اعتنـــى فيـــه الباجي بالناحيتين : الحديثية والفقهية عناية كبيرة . وحاول ان يعيد مسائل الفقه المالكي الى اصولها من كتـــاب وسنـــة .

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن هـــذا الشرح ان نترك المجال لابن الوليد كي يبين الخط الذي رسمه لنفسه والمنهج الذي سيتبعه في شرحه لموطا الامام مالك بعد ذكر الدوافع التي دعته الى تاليف كتابـــه المنتقـــى .

ويبدو لنا منذ الوهلة الاولى ان الباجـــي الف كتابه المنتقى بناء على رغبة لمسها وطلب طلب منه اذ غايته هي النفع ما وجد الى ذلك سبيلا .

يقول رحمه الله : (وفقنا الله واياك لما يرضيه فانك ذكرت ان الكتاب الذي الفت في شرح الموطـا المترجم لكتاب الاستيفاء يتعذر على اكثـر النـــاس جمعه ويبعد عنهم درسه لا سيما لمن ليس يتقدم له في هذا العلم نظر ولا تبين له فيه بعد اثر ، فان نظره فيه يبلد خاطره ويحيره ، ولكثرة مسائله ومعانيـــه يمنع تحفظه وفهمه وانما هو لمن رسـخ في العلـــم وتحقق بالفهـــم) (7) .

وهو هنا يشير الى غزارة ما في كتاب الاستيفاء من علوم واحتياج من يباشره الى سعة اطلاع وقدرة وعمق قد لاتتوفر لاغلب الناس ، وهو اذا كان يختصر وييسر لاهل زمانه كتاب الاستيفاء فاننا الى ذلـــك احوج وعن ادراك ما في الاستيفاء اعجز واضعف .

ومهما يكن من امر فان قيمة المنتقى وشهادة العلماء الاعلام بأنه من احسن شروح الموطا دليـــل وبرهان على أن الاستيفاء اعظم شانـــا واغزر علمـــا واكثـــر فائـــدة .

ثم بين ابو الوليد المنهج الذي سيسلكـــه في كتاب المنتقى فيقول : (ورغبت ان اقتصر فيه على الكلام في معاني يتضمنه ذلك الكتاب من الاحاديـــث والفقه واصل ذلك من المسائل بما يتعلق بها في اصل كتاب الموطا ليكون شرحا له وتنبيها على ما يستخرج من المســائل منه وشير الى الاستدلال على تلـــك المسائل والمعاني التي يجمعها وينصها ما يخف منها ويقرب ليكون ذلك حظ من ابتدا بالنظر فـي هـــذه الطريقة من كتاب الاستيفاء ، ان اراد الاقتصار عليه وعونا له ، ان طمحت همته اليه فاجبتك الى ذلـــك وانتقيته من الكتاب المذكور على حسب ما رغبتـــه وشرطته واعرضت فيه عن ذكر الاسانيد واستيعاب المسائل والدلالة وما احتج به المخالف وسلكت فيه السبيل الذي سلكت في كتاب الاستيفاء مـن ايراد الحديث والمسالة من الاصل ثم اتبعت ذلك بما يليق به من الفرع واثبته شيوخنا المتقدمون رضـــي الله عنهم وسد من الوجوه والدلائل وبالله التوفيق وبـــه استعين وعليه اتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل) (8) .

فالمنهج الذي رسمه ابو الوليد الناجي لنفسه في هذا الشرح يبدو واضحا وسنرى مدى التزامه بما سطره لنفسه عند الاتيان بمثل لحديث شرحه . فهو يقول : ان اهتمامه سينصـــب على الناحيتيـــن الفقهية والحديثية وسيبحث للمسائل الفقهية عـــن جذور من نصوص الكتاب والسنة كما سيتبع بآراء المشايخ مع الاشارة الى مسائل الاستدلال والاستنباط وكلما امكن ذلك على غرار منهجه في شرح الاستيفاء ، ذلك ان المنتقى كما يقول ابو الوليد الباجي انتقاه من الاستيفاء واختار عيون الاستيفاء ليحتويها المنتقى .

(7) المنتقـــى للباجـــي ص : 2 ، ج 1 .
(8) المنتقـــى للباجـــي : ص 3 ، ج 1 .

ولا بد ان تكون لابـي الوليـد تخريجـات واستنباطات واجتهادات قد يخالف بها علماء عصره ، بل ومن سبقهم ، فغزارة علمه وسعة اطلاعه تبوئـه هذه الدرجة وتخول له ابداء آرائه عندما يقتضـي النص اجتهادا او تاويلا وتخريجا .

وخشية على نفسه من تالب الواقعين عند ظاهر النص المتمسكين بالقديم لا يتزحزحون عنه قيـد انملة ، وتواضعا منه واعترافا بامكانيـة مجانبتـه للصواب يضع ابو الوليد الباجـي القـارىء امـام مسؤوليته مبينا له انه سيجد في طيات الكتاب مخالفة لما تعارف عليه الناس واستقـلا دعا الباجـي الى اعتباره مجرد راي واجتهاد قابل للخطأ والصـواب . وهو لا يلزم برايه احدا كما يدعو الى عدم الانكار عليه ما دام الانسان يلاحظ من نفسه تغيرا في ارائه مـن اليوم والآخر ، فلا غرابة في اختلاف النـاس فـي ارائهم ومذاهبهم ، وما قد يكون رآه الباجي اثنـاء كتابته للمنتقى قد لا يكون رأيه بعد ذلك .

يقول : (وقد قدمت في الكتاب المذكور ما لا اخلي هذا الكتاب من حرف من ذكـره ، وذلـك ان فتوى المفتي في المسائل وكلامه عليها وشرحه لهـا هو بحسب ما يوفقه الله تعالى اليه ويعينه عليه ، وقد يرى الصواب في قول من الاقوال في وقـت ويراه خطا في وقت آخر ، ولذلك يختلف قول العالم الواحد في المسالة الواحدة فلا يعتقد الناظر في كتابي ان ما اوردته من الشرح والتاويل والقياس والتنظيـر طريقه القطع عندي حتى اعيب من خالفها ، واذم من راي غيره وانما هو مبلغ اجتهـادي وما ادى اليـه نظري ، واما فائدة اثباتي له فتبين منهـج النظـر والاستدلال والارشاد الى طريق الاختبار والاعتبار ، فمن كان من اهل هذا الشان فله ان ينظر في ذلـك ويعمل بحسب ما يؤدي اليه اجتهاده من وفاق مـا قلته او خلافه ، ومن لم يكن نال هذه الدرجة فليجعل ما ضمنته كتابي هذا سلما اليها وعونا عليها والله ولي التوفيق والهادي الى سبيل الرشاد وهو حسبنا ونعم الوكيـل) (9) .

ويجدر بنا ان نقدم نموذجا ومثالا للطريقة التي اتبعها ابو الوليد الباجي عند شرحه للموطا لعل ذلك يوضح لنا منهجه .

فقد اورد في باب النهي عن الصلاة بالهاجـرة حديث : (مالك عن زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان شدة الحر من فيح جهنم فاذا اشتد الحر فابردوا بالصـلاة ، وقال : اشتكت النار الى ربها فقالت : يا رب اكـل بعضي بعضا فاذن لها بنفسين في كل عـام نفس في الشتاء ونفس في الصيف) (10) .

الفيح سطوع الحر فاخبر صلى الله عليه وسلم ان لجهنم فيحا وان شدة الحر من ذلك الفيح ، وأمر بالابراد بالصلاة عند شدة الحر ، ومعنى ذلك ان يؤخر فعلها الى أن يبرد وقتها . وقوله اشتكت النـار الى ربها فقالت يا رب كقول الشاعر :

شكى الي جملي طـول السرى
وقوله أكـل بعضـي بعضـا

يريد بذلك كثرة حرها وانها تضيق بما فيها ولا تلبد ما تأكه وتشرقه حتى يعود بعضها على بعض .

وقوله فأذن لها بنفسين في كل عام ، يريد انه اذن لها ان تتنفس فيخرج عنها بعض ما تضيق بـه من انفاس حرها وزمهريرها اعاذنا الله برحمته منها وفي هذا الحديث من معنى الابراد مسالـة وقـت استحباب الصلاة ، وذلك انا حددنا اوقات الصلوات وبينا فضيلة اوقاتها بما يغني عن اعادتها ، وبقي علينا الكلام في الفضائل التي ترد على فضيلة اول الوقت فتكون لها الفضيلة في نوع من التاخير ، ولاصحابنا فيه اقاويل نحن نذكر منها ما يعول عليه ثم نخلـص معانيها ان شاء الله وذلك ان ابن القاسم روى عـن مالك في كتاب الصلاة من المدونة انه قال احب الي ان يصلي الناس الظهر في الشتاء والصيف والفـيء ذراعا . وقال ابن حبيب اول الوقت احب الينا في الاوقات كلها للعامة في ذات انفسها ، فأما الائمة في

---

(9) المنتقـى للباجـي ج : 1 ، ص : 3 .
(10) المنتقـى للباجـي ج : 1 ، ص 31 .

المساجد والجماعات فذلك على ما هو ارفق بالناس ويستحب في الصيف تاخير الظهر الى وسط الوقت وما بعده ، قليلا ، لان الناس لا يقيلون ، ويستحب تعجيلها في الشتاء في اول الوقت حين تميل الشمس عن الافق المواجه للقبلة لان الناس لا يقيلون .

وقال ابن وهب عن مالك انه كره تعجيل الصلاة لاول الوقت ، قال عنه ابن القاسم ولكن بعدما يتمكن ويذهب بعضه فمعنى التاخير الذي حكاه ابن القاسم ليس من معنى الابراد في شيء وانما هو لاجل اجتماع الناس فحصل في صلاة الظهر تاخيران احدهما لاجل الجماعة وذلك يكون في الصيف والشتاء في المساجد ومواضع الجماعات دون الرجل يصلي في خاصة نفسه فانه يستحب له تقديم الصلاة في اول الوقت اذ هو الافضل على ما تقدم والتاخير الثاني بمعنى الابراد وهو يختص بوقت الحر دون غيره من الاوقات ويستوي فيه الجماعة والفرد ، فوقت التاخير لاجل الجماعة الى ان يفيء الفيء ذراعا ، ووقت التاخير لاجل الابراد اكثر من ذلك ، ويصح ان يكون الى نحو الذراعين ، وقد فسر ذلك اشهب وذلك انه قال تاخير الظهر في الصيف والشتاء الى ان يفيء الفيء ذراعا ، ثم قال باثر ذلك ، وهذا في غير الحر ، فأما في الحر فالابراد بها احب الينا ، ولا يؤخر الى آخر وقتها ، ووجه ما ذكره من الابراد الحديث المتقدم الامر به ، ومن جهة المعنى ان المصلى مندوب الى الخشوع في الصلاة والاكمال لركوعها وسجودها وغير ذلك من افعالها واقوالها ، وشدة الحر تمنع من استيفاء ذلك من الصلاة على هذه الحال ، كما منع من الصلاة بالحقن الذي يمنع الخشوع واتمام الاقوال والافعال وكما أمر بتقديم العشاء بحضرة الصلاة لهذا المعنى والله اعلم .

مسالة : اذا ثبت ذلك فهل يبرد بصلاة العصر ام لا ؟ قال اشهب : احب الى ان يزيد المصلي ذراعا على القامة ولا سيما في الحر ، وقال ابن حبيب : وقتها واحد ، تعجل ولا تؤخر الا في الجمعة ، فان يعجل بها اكثر من سائر الايام ، وجه ما قاله ان هذه صلاة رباعية من صلوات النهار فثبت فيها الابراد وانتظار الجمعة كالظهر ووجه قول ابن حبيب ان العصر يكون في وقت يخف الحر ويطرا على الناس وهم متاهبون للصلاة ، وكان المستحب تقديمها كالمغرب ، واما المغرب فلا خلاف في استحباب تعجيلها وانما الاختلاف في جواز تاخيرها وقد تقدم ذكره .

مسالة : واما العشاء الآخرة فقال ابن القاسم عن مالك يستحب ان يؤخر بعد مغيب الشفق قليلا ، وقال ابن حبيب يؤخر في الشتاء قليلا لطول الليل ، ويؤخر اكثر من ذلك في رمضان توسعة على الناس فى افطارهم ، وقد تقدم ذكره ، وجملة ذلك ان فعل الصلاة في اول وقتها عند مالك افضل ، وانما يستحب التاخير لمعان توجب ذلك ، وقد تقدم بيانها .

مالك عن ابي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا اشتد الحر فابردوا عن الصلاة فان شدة الحر من فيح جهنم ، امر النبي صلى الله عليه وسلم بالابراد وعلل ذلك بان شدة الحر من فيح جهنم ، وذكر ان للنار فيحيا نفسين : نفس في الشتاء ونفس في الصيف ، ولم يامر بتاخير الصلاة في شدة البرد ، فلا يتعلق به حكم التاخير ، والاصل في ذلك ما رواه ابو خلده عن انس ، كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا اشتد البرد بكر بالصلاة واذا اشتد الحر ابرد بالصلاة ، ومن جهة المعنى انه لا رفق بتاخيرها بل الرفق في تقديمها ، لان بتاخيرها يزيد المانع من اتمامها بتزايد البرد كلما تمكن العشى ورقب الليل والله اعلم) (11) .

هكذا يتجلى لنا مدى عمق ابن الوليد الباجي وسعة علمه وافقه ووفائه للمنهج الذي رسمه لنفسه من تأصيل المسائل وذكر اراء المتقدمين من العلماء الذين يعتد بآرائهم والاعراض عن سواهم وتوجيه ارائهم وتصويب بعضها وتوجيه البعض الآخر منهيا ذلك برايه الذي يتجلى في موضعين : الموضع الاول حين يذكر الراى ثم يدعمه بالمنقول من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم . والموضع الثاني عند ما يبحث عن الحكمة والمعنى الذي يشير اليه الامر النبوي ويستفرغ الجهد والطاقة في سبيل دعم الراي الذي ذهب اليه او اختاره موجها راي كل واحد من الذين سبقوا الوجهة التي يقتضيها .

---

(11) المنتقى ج 1 ، ص : 32 .

ولا يفوتنا ان نشير ان الباجي لا يكتفي عند حد المسألة القريبة التي يشير اليها نص الحديث بل يبحث ويدرس ويشرح كل ما يتصل بها من قريب او بعيد ، فنجده مثلا يدرس ويبحث مسألة تأخير الصلاة في الصيف والشتاء ، وهل التأخير لصلاة الظهر أم انه يشمل غيرها ، ويبحث كل ذلك بالاستناد الى اقوال وآراء السابقين مدعما الراي الذي اختاره بما اوتي من حجة قوية وادلة لا تقبل الرد .

وما يمكن ان نلاحظه حول منهج ابي الوليد الباجي في شرحه للموطا هو اعراضه عن ذكر الاسانيد والحديث في الرجال وتعديلهم او تجريحهم وايصال المرسل من الاحاديث او المنقطع ، فاننا لا نرى لذلك اثرا يذكر في شرحه هذا ، ولعله توخى الاختصار والاجمال مثلما رسم ذلك في مقدمته او انه اشبع الاسانيد والمصطلح الحديثي درسا في شرح الاستيفاء ولا غرابة فقد يكون فعل ذلك ، فانه عالم بالحديث وبالرجال والاسانيد ، ألم نذكر له ضمن قائمة تآليفه كتابا جليلا في الجرح والتعديل لمن خرج لهم البخاري في الصحيح .

كما يمكن ان نلاحظ وفرة المسائل الفقهية والاحكام المستنبطة وآراء علماء المذهب المعتبرين .

ولا عجب فان كتاب الموطا كتاب احكام ودستور حياة المجتمع الاسلامي ، فالعناية بالفقه ومسائله طبيعية . وهذه العناية عند الباجي نجدها مصحوبة بمحاولة منه لعلها فريدة عند المالكية وهي تأصيل المسائل والبحث لها عن جذور في النصوص وبذلك تنفى عن المذهب المالكي شبهة خلو مسائله من النصوص الشرعية .

كما لم يحتل المنتقى من استنباطات وتخريجات واجتهادات نبه الباجي الى وجودها في مقدمته وهي تنم عن استقلالية في شخصيته وعمق في علمه لا ينكر ، وبذلك نستطيع ان نقول ان المنتقى من احسن شروح الموطا .

تونس : صلاح الدين المستاوي

من أعلام المحدثين البارزين بالمغرب الكبير :

أبو محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي

510 – 582 هـ / 1116 - 1186 م

للأستاذ عبد الهادي الحسيسن

ان الحركة الفكرية في العصر الموحدي ، تمتاز بكثرة العلوم المتعددة الجوانب ، من : لغة وأدب وتفسير ، وخصوصا في عهد الخليفة يعقوب المنصور (580 – 595 هـ 1159 – 1198 م) الذي يعد واسطة عقد ملوك الموحدين ، « ونجم بني عبد المومن » على حد تعبير لسان الدين ابن الخطيب .

تعد فترة المنصور من أخصب الفترات العلمية في بلاد المغرب الكبير ، فلم يكن ميدان من ميادين الانتاج العلمي ، الا واشتهر فيه علماء اجلاء ، تركوا لنا تراثا فخما ، وتآليف مفيدة جليلة .

لقد ازدهر في عهد يعقوب المنصور ، علم الحديث النبوي الشريف ، الذي قدمه على كتب الفروع في المذهب المالكي : ويرجع ذلك الى استدعائه لعلماء الحديث الى عاصمته مراكش سنة : 585 هـ 1189 م ، لنشره بها ، وما قدمه لهم من تشجيعات مادية ومعنوية،وما بناه لهم من مدرسة في مكان فسيح ، وما هياه لهم من مكان آخر ، يدعى « ببيت الطلبة » (1) الذي كان مخصصا لكبار العلماء ، وفيه امتحن المحدث أبو عمر ابن عات النفزي الشاطبي (ت سنة 608هـ 1212م) ، في كتاب صحيح الامام مسلم (2) وكان يعقوب المنصور نفسه يحضر هاته الدروس الحديثية ، ويختار لها أكبر عالم في الحديث ، امثال : ابي محمد عبد الله الحجري ت سنة 591 هـ 1194 م وابن الصيقل التلمساني (ت سنة 598 هـ 1201 م وابن القطان الفاسي ، (ت سنة 628 هـ 1230 م (3) ، ثم هو أمرهم بالتأليف في مادة الحديث وعلومه ، فهو بنفسه ألف كتاب « الترغيب

1) كلمة « طالب » كانت في العهد الموحدي تفيد أعلى رتبة علمية ، ورئيس الطلبة أو كاتم « مزوار » كان يجلب بها أكبر عالم زمانه،مثل أبي القطان الفاسي المحدث الكبير ، ت سنة 628 هـ وأبي جعفر الذهبي ت سنة 601 هـ الذي كان مزوارا للطلبة،كما كان مزوار الا طباء ، في آن واحد ، وما زالت كلمة(مزوار) تطلق الآن ، بالمغرب على المتولي امر الشرفاء المنتسبين الى فرعه، انظر «مظاهر النهضة الحديثية» ج 1 ص: 227 لصاحب المقال ،
وكلمة « حافظ لم يبق لها مدلولها العلمي لدى علماء الحديث وكبار الفقهاء في العهد الموحدي،وانما صارت تطلق على صغار الطلبة ، وعلى المبتدئين منهم في العلم ، وعلى بعض من يحفظ بعض كتب المهدى ابن تومرت ، وأحيانا كانت تطلق على بعض رجال الدولة الموحدية المقدمين على الاعمال لحفظها وصيانتها، انظر كتاب تاريخ (المن بالامامة) لابن صاحب الصلاة ، تحقيق عبد الهادي التازي ص 93 – 94 .

2) انظر عنوان الدراية للغبريني ص : 161 ط الجزائر ، ومظاهر النهضة الحديثية لصاحب المقال ج 2 ص : 13 ص : 238 ،

3) انظر « مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدى » ج 2 ص : 93 ،

في الصلاة » (4) وكان يمليه على الناس ويأخذهم بحفظه ، ويقدم لهم الهدايا على ذلك (5) .

يقول الرحالة السرخشي (6) : « وقد صنف يعقوب كتابا جمع في صنوف أحاديث صحاح سماه « الترغيب » ،

افادت هاته الحركة الحديثية من الوجهة العامة فائدة عظمى ، حيث جعلت الفقهاء المالكيين آنذاك يقللون ، من الاكباب على النظر في علم الفروع المجرد، وينصرفون الى دراسة الفقه في اصله الرئيسي : الكتاب والسنة ، فظهر الاشتغال بعلم التفسير والحديث ، وعكف العلماء على تفهمهما ودراستهما دراسة علمية صحيحة .

وعلى اثر هاته الحركة الحديثية ، نبغ عدد من العلماء الكبار في الحديث النبوي الشريف وغيره ، وأصبح الفقيه المالكي المغربي حرا من القيود التي كانت تجعله يثور لاقل بادرة من الخروج عن القواعد المتعارفة في كتب الفروع الفقهية ، فصار يجتهد لنفسه، ويستنبط مباشرة من كتاب الله وسنةرسوله عليه السلام ، شأن العلماء الذين لهم القدرة على الاستنباط والاجتهاد .

ومن اعظمهم قدرا في هذا الشأن ، ومكانة مرموقة عبد الحق الاشبيلي صاحب كتاب « الاحكام الشرعية » في الحديث .

نشأته :

هو ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الازدي الاشبيلي ، يعرف بابن الخراط ، محدث حافظ ، فقيه ، خطيب ، شاعر ، مشارك .

ولد سنة : 510 هـ 1116 م ، تلقى العلم اولا ببلده اشبيلية عن جلة علمائها وكبار شيوخها ، أمثال المحدث الكبير أبي الحسن ابن شريح ، وابي حفص عمر بن أيوب ، وطاهر بن عطية المري ، وابي بكر ابن مديد ، وطارق بن موسى ، وغيرهم ،

اخذ بالخصوص عن المحدث الشهير ، احمد بن عبد الملك الانصاري ت سنة (549 هـ 1154 م) الذي فاق اهل عصره في الحديث وعلومه ، حتى كان يقال عنه : ابن معين وقته ، وبخاري زمانه » ، الف في السنن كتابه الكبير المسمى : « المنتخب المنتقى »، الذي جمع فيه مفترى الصحيح من الحديث الواقع في المصنفات والمسندات (7) .

لقد لازم عبد الحق الاشبيلي ، هذا المحدث الكبير الانصاري ، وعليه تخرج ، ومنه استنتج طريقه في تأليف كتب الحديث في الاحكام الشرعية ، وحذا حذوها .

على اثر الواقعة النكراء التي حلت «بلبلية » قرب مدينة اشبيلية سنة (549 هـ 1154 م) زمن الموحدين، التي ذهب ضحيتها جمهرة من العلماء الافذاذ ، خرج عدد كبير من الاشبيليين فارين بحياتهم لما اصابهم من احتلال الموحدين بلادهم فمن بينهم عالمنا عبد الحق ، الذي قصد الديار المقدسة من اجل تادية فريضة الحج ، والمجاورة هناك ، ولكن الاقدار عاقته عن هاته الامنية ، فحل بمدينة بجاية بالجزائر واتخذها موطنا له ودارا لسكناه ، بعد الخمسين وخمسمائة ، من الهجرة (8) .

يقول ابن الابار في كتابه « التكملة » (9) « نزل عبد الحق بجاية عند الفتنة الواقعة بالاندلس ، عند انقراض الدولة اللمتونية ، نشر بها علمه وصنف، تولى الخطبة والصلاة بجامعها ، وكان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله ، عارفا بالرجال ، موصوفا بالخير والصلاح ، والزهد والورع ولزوم السنة مشاركا في الادب وقول الشعر » ،

تفرغ عبد الحق لنشر العلم وتدريسه ببجاية ، فبعث بها نهضة علمية ذات أثر كبير جعلت من هاته

---

4) مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 6478 .
5) انظر المعجب ص : 500 دار الكتاب 1978
6) نفح الطيب ج 3 ص : 102 تحقيق د. احسان عباس .
7) انظر « الذيل و التكملة » لابن عبد الملك المراكشي ، تحقيق د. محمد ابن شريفة ، السفر الاول : القسم الاول ص : 265 ، والسفر الرابع ص : 149 .
8) انظر عنوان الدراية للغبريني ، تحقيق عادل نويهض ص : 41 — 44 وكتاب عصر المنصور الموحدي، لمحمد مليين ص : 66 .
9) 547 ع 1805 ط، مدريد .

المدينة صلة الوصل في الثقافة بين المغرب والمشرق .

موقف عبد الحق من مهدوية الموحدين :

كان عبد الحق الاشبيلي من العلماء الاجلاء الاتقياء المخلصين ، لا تاخذهم في الله لومة لائم اعتبر دعوة المهدي ابن تومرت ، زعيم الموحدين بدعة ظهرت في الدين لا يحل لمسلم ان يرضاها عقيدة له ؛ وكم سعى الموحدون في اكتساب رضاه واستمالته اليهم ، فعرضوا عليه خطة القضاء والخطبة بمدينة بجاية ، فرفض التعاون معهم ، لانهم يقولون بعصمة المهدي ابن تومرت ، التي ليس لها اساس وانما هي دعوى مجردة للاستيلاء على عقول الناس ، وفضل ان يتعامل مع ابن غانية اللمتوني احد امراء المرابطين ، لما استرد مدينة بجاية من قبضة الموحدين ، فاصبح له قاضيا وخطيبا (10) .

بقي عبد الحق في هاته المهمة التي اسندت اليه من طرف ابن غانية الى ان قضى الموحدون على جيشه واخرجوه من المدينة ، وقبضوا على المتعاونين معه ، منهم صاحبنا عبد الحق الاشبيلي الذي احنق عليه الخليفة يعقوب المنصور الموحدي ، ورام سفك دمه ، فعصمه الله منه ، وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه(11)

تآليفه :

فعبد الحق يعد من المكثرين في التاليف ، اذ صنف عدة كتب في الحديث وغيره ، منها :

1 ـ الجمع بين الصحيحين في مجلدين (12) .

2 ـ كتاب المعتل في الحديث .

3 ـ وكتاب المرشد ، ضمنه حديث مسلم كله ، وما زاد البخاري على مسلم ، واضاف الى ذلك احاديث حسانا وصحاحا من كتاب ابي داود ، والنسائي ، والترمذي ، وما جاء في كتاب الموطا ، مما ليس في البخاري ومسلم ، وهو أكبر من صحيح مسلم .

4 ـ وكتاب الجامع الكبير في الحديث جمع فيه احاديث الكتب الستة واضاف اليه كثيرا من مسند البزار وغيره .

5 ـ وكتاب التوبة في سفرين .

6 ـ ومعجزات الرسول عليه السلام في سفر .

7 ـ وكتاب العاقبة في الزهد (13) .

8 ـ وكتاب تلقين الوليد في الحديث (14) .

9 ـ وكتاب الانيس في الامثال والمواعظ والحكم والآداب من كلام الرسول عليه السلام .

10 ـ وكتاب مختصر الكفاية في علم الرواية .

11 ـ وكتاب فضل الحج والزيارة .

12 ـ وكتاب المنير .

13 ـ وكتاب الرقائق .

14 ـ وكتاب الرشاطي في الانساب من القبائل والبلاد ، وهو في سفرين .

15 ـ وكتاب الحافل في اللغة ، ضاهى به كتاب « الغريبين » للهروى يقع في 17 سفرا (15) .

16 ـ وله كتاب مهم في الفقه المالكي ، تعقب فيه على كتاب « التهذيب » للبراذعي ، انتقد عليه اشياء كثيرة احالها على معناها (16) .

ومن أهم الكتب الحديثية التي الفها عبد الحق الاشبيلي .

---

10) انظر : عنوان الدراية للغبريني ص : 20 و عصر المنصور الموحدي لملين ص : 68 .

11) « المعجب لعبد الواحد المراكشي ص : 321 ط. دار الكتاب 1978

12) يوجد بخزانة مراكش ، قسم المخطوطات تحت رقم : 70 ، ويوجد الجزء الاخير بخزانة القرويين بفاس (ق 189) .

13) موجود بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم : 1551 .

14) نشره الاستاذ عبد الله كنون في مجلة « لسان الدين » التي كانت تصدر بتطوان حوالي ثلاثين سنة .

15) انظر « التكملة » لابن الابار ص : 548 ، وحسب ، رواية « الديباج المذهب » يقع في 25 سفرا،انظر ص 175 .

17 ـ «الاحكام الشرعية» وهي كبرى،ووسطى،وصغرى التي عرف واشتهر بها بين المحدثين،فانتشرت في جميع الاقطار الاسلامية ، وكثر تداولها بين العلمـــاء .

تقع « الاحكام الكبرى » في ست مجلدات ضخام استقاها عبد الحق من كتب الاحاديث الصحاح ،

واحاديثها مسندة الى النبي صلى الله عليـــه وسلم (17) .

اما « الاحكام الوسطى » فتقع في مجلدين ، قال تاج الدين السبكي في كتابه « شفاء السقام » (18)

وهي المشهورة اليوم بالكبرى مع ان سكوته عن الحديث دليل على صحته فيما نعلم .

« والاحكام الصغرى » وتعرف ايضا « بمختصر الاحكام الشرعية » تقع في مجلد متوسط الحجم،وهي في لوازم الشرع والنهي واحكامه وحلاله وحرامه ، في ضروب الترغيب والترهيب ، وذكر الثواب والعقاب ،

اخرجها عبد الحق من الكتب الستة ، ومن الموطأ، ومن كتب الاحاديث الاخري الصحيحـــة ، فتخيرها صحيحة الاسناد ، معروفة عند النقاد من المحدثيــن الكبار ، وهي محذوفة الاسانيد (19) .

شرح هاته « الاحكام الصغرى » القاضي محمد ابن علي الصنهاجي (ت سنة 663 هـ) في كتـــاب سماه « الاعلام بفوائد الاحكام » لعبد الحـــق الاشبيلي (20) كما شرحها ابو محمد عبد العزيز بن بزيزة التونسي (ت سنة 663 هـ) ، ثم تعقبها كذلك ابن دقيق العيد المصري (ت سنة 702 هـ) .

يقول ابن رشيد المحدث السبتي (ت سنـــة 721 هـ) (21) : «ولشيخنا الحافظ ابن دقيق العيد، املاء على مقدمة كتاب « الاحكام الصغرى » لابن محمد عبد الحـــق .

وشرحها كذلك ، ابو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت سنة 781 هـ) ، ومحمد بن القاسم القصار القاسمي من اهل القرن العاشر الهجري،

و«الاحكام الصغرى » هاته ، كانت تدرس مـن بعض شيوخ العلم بمدينة سبتة وغيرها من المدن المغــربية (22) .

جاء في تذييل ابن سعيد على«رسالة المفاضلة» لابن حزم (23) : وكتاب الاحكام لابي محمد عبد الحق الاشبيلي ، مشهور متداول القراءة ، وهي احكـــام كبرى ، واحكام صغرى ، وقيل ووسطى .

وابن عربي الحاتمي الصوفي (ت سنـة 638 هـ 1240 م) لما تكلم عن المجيزين له من شيوخه ، خص من بينهم عبد الحق الشبيلي ، فقال (24) :

---

16) انظر شجرة النور الزكية ص 501 ع 270 والفكر السامي للفقيه الحجوى ص : 61 ـ ج 4 ،
جل هاته الكتب ذكرها صاحب الديباج المذهب ص : 175 ،
17) لقد ورد في كتاب « الرسالة المستطرفة » للشيخ محمد بن جعفر الكتاني ص : 178 ط . 3 : ان الحافظ ابي القطان الفاسي ، وضع على الاحكام الكبرى « لعبد الحق الاشبيلي كتابه » بيان الوهم والايهام وهذا خطا ، بل ان ابي القطان وقف على « الاحكا م الوسطى » ولبقية البحث ، انظر مظاهر النهضـــة الحديثية لصاحب البحث ج 2 ص : 99 وما بعد هـــا .
18) الرسالة المستطرفة ص : 179 ،
19) نفس المصدر والرقم ،
20) عنوان الدراية ص : 128 ،
21) رحلة ابن رشيد ج 3 مصورة بمكتبة مولاى الحسن بتطـوان ،
22) انظر برنامج ابي القاسم التجيبي السبتي ص : 151 ، تحقيق عبد الحفيظ منصور ط، الدار العربية للكتاب 1981 ، يقول التجيبي : « سمعت طائفة من هذا الكتاب « الاحكام الصغرى » تفقها على العلامة ابي الحسن القرشي ، وسمعت ايضا يسيرا من علي ابي محمد الجزيرى ،
23) نفح الطيب ج 3 ص : 180 ، تحقيق د. احسا ن عبـــاس .
24) نفس المصدر ج 2 ص : 164 :

ومنشيوخنا الاندلسيين ، ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الاشبيلي ، حدثنا بجميع مصنفاته من الحديث ، وعين لي من اسمائها :

« تلقين المهتدي » و « الاحكام الكبرى » و « الوسطى » و « الصغرى » وكتاب « التهجد » وكتاب « العاقبة » ونظمه ونثره .

ومما ورد في كلام ابي عربي الحاتمي . قال شيخنا ابو مدين عنه (25) : كان الشيخ ابو محمد عبد الحق الاشبيلي مجال الحفاظ ، زين العلماء ، عماد الرواية ، راس المحدثين ، وقد وافاه ببجاية ؛ واقر له بالصدق في طريق الحق .

وعلى هذا ، فكتاب « الاحكام الشرعية » هي الكبرى (26) والوسطى (27) والصغرى « 28 » : وهي موجودة مخطوطة كلها .

و« الاحكام الوسطى » هي التي عقب عليها حافظ المغرب ابن القطان الفاسي (ت سنة 628 هـ) في كتاب سماه « بيان الوهم والايهام » (29) .

وهاته الكتب الحديثية العديدة ، الفها عبد الحق الاشبيلي في زمان الموحدين الذين الزموا العلماء بالاجتهاد ، والعمل بالكتاب الكريم ، والسنة المطهرة النبوية الشريفة .

ولقد سبق عبد الحق الى هذا الصنيع ، استاذه احمد بن عبد الملك الانصاري ، فحظى عبد الحق بالاقبال على « احكامه » دون كتب شيخه ، كما انه استمد من كتاب « الاحكام » لابي القاسم الزيدوني ، وزاد عليه في العلل ، وقال : « وعلى كتاب مسلم في الصحيح عولت ، ومنه اكثر ما نقلت » (30) .

مكانة عبد الحق العلمية :

ومكانة عبد الحق الاشبيلي العلمية لاتخفى على كبار العلماء ، فقد اعتمده الحفاظ المحدثون النقاد في التعديل والتجريح ، ومدحوه بذلك ، كالحافظ الذهبي (ت سنة 748 هـ) والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت سنة 852 هـ) كما اعتمده الفقهاء الكبار ، امثال ابن الحاجب ، والشيخ خليل وابن عرفة ، وغيرهم كثير ، لان عبد الحق اذا سكت عن الحديث ، فانه لايسكت الا على الصحيح والحسن (31) .

قال الفقيه ابن عبد السلام (32) : ومواد الاجتهاد في زماننا ايسر من زمان المتقدمين ، لو اراد الله بنا الهداية : لان كتب الاحاديث والتفاسير دونت، وكان الرجل يرحل في سماع الحديث الواحد .

ولقد عقب الفقيه ابن عرفة التونسي على هذا الكلام بقوله (33) وما اشار ابن عبد السلام من يسر الاجتهاد ، يساعد عليه مثل قراءة « الجزولية » في النحو ، والكتب الفقهية ، والاطلاع على احاديث « الاحكام الكبرى » لعبد الحق ، ونحو ذلك يكفيه آلة الاجتهاد ، مع الاطلاع على فهم مشكل اللغة ، « بمختصر العين » و « صحاح الجوهري » ونحو ذلك

---

25) عنوان الدراية للغبرني ص 42،

26) توجد بدار الكتب المصرية بقسم المخطوطات ، عدد هاته ، ينقصها مجلدان ، الثالث والرابع ، وتوجد كذلك بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، رقم 291 (0 ـ ا) أنظر فهرس المخطوطات الظاهرية بدمشق 1970 ،

27) تحت رقم : 235 الخزانة الملكية بالرباط ،

28) تحت رقم 5380 ـ 5682 ، بالخزانة الملكية بالرباط

29) يقع في مجلدين ، والموجود من المجلد الاول بخزانة القرويين بفاس تحت رقم : 1068 وهو من حبس والدة السلطان محمد المنصور الذهبي السعدى (ت سنة 1012 هـ) والمجلد الثالث يوجد بدار الكتب المصرية بالقاهرة ،

30) مخطوط تحت رقم : 235 ، بالخزانة الملكية ، والاجزاء الاربعة الموجودة من الاحكام بمكتبة مراكش الان مصورة كلها بالخزانة الملكية بالرباط ،

31) الرسالة المستطرفة ، ص : 179 .

32) أنظر التعليق في الاحكام عبد الحق ، رقم : 235 مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ، وهذا التعليق منقول من شرح ابن الحاجب في « باب القضاء » ،

33) نفس المصدر ،

من غريب الحديث ، سيما مع نظــر ابن القطـــان ، وتحقيقه احاديث الاحكام .

وكثيرا ما يذكر ابن عرفة في « مختصره » الفقيه المحدث ، ويعني به عبد الحق الاشبيلي في كتابـــه « الاحكام » ويقول ، عقبه ، ولم يعقب ابن القطان ، او تعتبه ، والله اعلم واحكم .

صنيع عبد الحق في كتابه « الاحكام » :

وهذا نموذج من صنيع عبد الحق الاشبيلي في كتابه « الاحكام » (34) : « باب الايمان »

قال ابن عمر : حدثني ابي عمر بن الخطـــاب ، قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، اذ طلع علينا رجل شديـــد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه اثر السفر ولا يعرفه منا احد حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم،فاسند ركبتيه الى ركبتيه،ووضع كفيه على فخذيه ، وقال يا محمد ، اخبرني عن الاسلام،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة، وتوتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيـــت ان استطعت اليه سبيلا ، قال صدقت ، فعجبنا له يساله ويعرفه الحديث الخ . . .

قال عبد الحق في تعليقه على هذا الحديث (35) : وذكر هذا الحديث ابو جعفر العقيل من طريق عبـــد العزيز بن اليارود ، عن علقمة بن فرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن يحي بن يعمر ، قال فيه :

فما شرائع الاسلام ؟ قال : تقيم الصلاة ، وتوتي الزكاة ، الحديث .

قال العقيلي : كذا قال ، شرائع الاسلام ، وتابعه على هذه اللفظة ابو حنيفة .

وجراح بن الضحاك قال : وهؤلاء مرجئة ، لم يزد على هذا ، وعبد العزيز ثقة مشهور في الحديث متعبد ، انما كان صاحب راي .

وفـــاة عبـد الحـــق :

اختلف المؤرخون ، في السنة التي توفي فيها، فمنهم من يقول ، انه توفي سنة 581 هـ (35) وفريق آخر يقول انه توفى سنة 582 هـ ومنهم الفقيه الغبريني الذي الف لعلماء بجاية لهذا العهد كتابه : « عنوان الدرايـــة » .

يقول الغبريني : « وكان تاريخ وفاة عبد الحق مكتوبا في رخامه عند قبره الذي يوجد خارج بـــاب المرسي ببجاية ، وتوفي بها أواخر ربيع الثانـــي من عام اثنين وثمانين وخمسمائة (582) .

هذا هو عبد الحق الازدي الاشبيلي المحـــدث الكبير ، صاحب التآليف الحديثية المفيدة العديدة وغيرها ، الذي عاش عمره كله قارئا كاتبـــا باحثـــا منقبا ، محققا ، انتهت حياته الثقافية ، وهو على قمة مجد علمي بعد عمر مديد يزيد على سبعين سنـــة ، رحمـــه الله .

وبعد فهذه نظرة عجلى عن علم من اعلامنا الاجلاء في الحديث ، عبد الحق الاشبيلي محدث المغرب الكبير ، وقد اقتضبت فيه القول اقتضابا ، ومثله لا تكفي فيه هاته العجالة السريعة ، وانما هو يحتاج الى دراسة أعمق من مستوى الرسائل والاطروحات الجامعية .

وما كتاب « الاحكام الشرعية » ـ كبرى ـ ووسطى، وصغرى وغيرها الاشاهدة على هذا العمل المثمر الجاد، الذي نوه به علماء الاسلام شرقا وغربا ، كالحافظ الذهبي ، وابي حجر العسقلاني ، وابي دقيق العيد المصري وابن القطان الفاسي وغيرهم كثير .

ومادار الحديـث الحسنيـة التي انشاها ملـك المغرب الهمام ، الحسن الثاني حفظه الله ، والتـي تعد حسنة من حسناته ، الا لهاته الغاية النبيلة ، الدراسة مثل هذا التراث القيم ، الذي خلفه لنا سلفنا

---

34) كتاب « الاحكام » باب الايمان ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم : 235 ص : 4 ونسخة اخرى تحـــت رقـــم : 5682 .

35) نفس المصـــدر .

36) ابن الابار في « التكملة » ص : 598 ، وصاحب الديباج المذهب ص 175 ، وصاحب شجرة النور الزكية ص 155 .

الصالح ، لمواصلة سير الحضارة الفكرية الاصيلة ، ولربط حاضرنا بماضينـــا .

ودارنا الحديث الحسنية ، ما هي الا امتـــداد علمي أصيل «لبيت الطلبة» دار الحديث المنصورية ، الذي أنشاه يعقوب المنصور الموحدي بعاصمته مراكش آنذاك ، لنفس الغاية والهدف الاسمى .

واذا كان «بيت الطلبة» استقطب عددا كبيرا من العلماء ، شرقا وغربا ، كالسرخسي ، والسهيلي ، صاحب كتاب « الروض الانف » ، والحجري ، وابـي القطان ، وسواهم ، فان دار الحسنية ، هي بدورهـا سارت على هذا المنوال ، وهاته الغاية النبيلة .

واذا كان « بيت الطلبة » خلف لنا تآليف عديدة مفيدة في جل الميادين العلمية، تذكرها المعاجم والفهارس وكتب التاريخ ، وان ندرا منها يوجد لحـد الساعة محفوظا في المكتبات العامة والخاصة ، ينتظر اخراجه ودراسته من طرف المثقفين الاكفاء ، فـان دار الحديث الحسنية ، هي كذلك اعطت اكلها ، رغم فترة يسيرة على انشائها ، وما ذلك الا للعمل المتواصل من طلابها وخريجيها ، وهاهي آثارهم تشهد بهذا .

فكم من رسائل واطروحات جامعية في مختلـف المواضيع العلمية ، من تفسير ، وحديث ، وفقـه ، واصول ، وتاريخ ، ومواضيع اجتماعيـة وغيرهـا نوقشت برحابها من طرف كبار العلماء والاساتذة ،

وبعض الرسائل ـ والحمد لله ـ شاهد النور ، حيث طبع بواسطة وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، التي تشكر على هذا المجهود ، واكثر هاته الرسائل ما زالت مرقونة بدار الحديث الحسنية تنتظر الطبع، كما ان عددا آخر موقوفا ينتظر المناقشة ـ يسر الله مناقشتها وطبعها ـ ليستفيد منها الخاص والعام ، وحتى يكون مستقبل هاته الامة المجيدة ، امتـدادا لماضيها المشرق ، بكل ما يحمل ذلك الماضـــي المغربي المسلم ، من ايجابيات وعطاءات ، ومـا دار الحسنية ، الا م ن تلك العطاءات الايجابية ، امد الله في عمرها وحفظها ، وجزى الله العاملين المخلصين انه لايضيع اجر من احسن عمـلا .

تطوان : عبد الهادي الحسيسن



من نفائس مخطوطات خزانة القرويين

المثلث لابن السيد البطليوسي (1)

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

تعددت الدراسات اللغوية عند القدماء وتنوعت أشكالها فمن الاهتمام بالقواعد المحصنة للاعراب والمجددة لبنية الكلمات الى الاهتمام بالمعاني وربطها بالنصوص الواردة عن العرب في شعرهم ونثرهم وأمثالهم وخطبهم وكيفية ورودها في القرآن والحديث .

ومن ثم اصبحت الدراسات اللغوية جزءا لا يتجزأ من الدراسات الاسلامية بحيث لا يمكن لمن يتناول القرآن بالدرس أن تكون خبرته اللغوية في مستوى لا يسمح له بذلك سواء من حيث دراسة اللهجات العربية أو من حيث ما يتعلق بالتشابه والتضاد أو من حيث تقويم القراءات الواردة التي لا يستطاع فهمها الا اذا كانت اللغة واضحة معروفة امام الدارسين والباحثين والمفسرين .

وهذا هو السبب الذى جعل التداخل كاملا في الكتب المتعلقة بدراسة اللغة بين النصوص القرآنية والنصوص الواردة عن العرب لتكون المقابلة مبنية على أساس من البيان ولتكون الشروح معتمدة على موازنة كاملة تعين الراغبين في المعرفة وتساعدهم على فهم المقصود .

اتضح هذا المنهاج في الكتب النقدية وفي الكتب التي تهتم بمعاني القرآن وشرح كلماته كما اتضح في المعاجم التي ألفت لشرح الغامض وتبين المشترك الا أن بعض اللغويين لم يكتفوا بالجمع الترتيبي للكلمات كيفما اتفق بل حرصوا على أن يختاروا نوعا بعينه ورأوا في هذا الانتقاء مساعدة تقريبية تيسر البحث وتعين على الاطلاع .

ومن بين ما فكروا فيه جمع كلمات مشتركة الجذور مع اختلاف في نوع حركاتها في كتب اللغة . عرفت بالمثلثات وشرحوا هذه الكلمات شروحا ضافية وأضافوا اليها استدلالات مساعدة ترجع هذه الكلمات الى استعمالها العربي لتكون واضحة وميسرة .

ولم تكن طريقة جمع المثلثات أول الامر متسعة الاختيار ولكنها رغم ذلك مهدت لتساعدهم على ترجيح معنى على آخر اذا تعذرت الرواية وعسر السند الصحيح، واقدم هذه المثلثات مثلث قطرب احد ائمة النحو واللغة في البصرة (2) لقد كان هذا العالم اللغوى مشهورا بالدقة والمعرفة في أواخر القرن الثاني الهجرى

---

1 ـ حققه الدكتور صلاح مهدي علي القرطوسي استاذ اللغة بجامعة سيدى محمد بن عبد الله كليه الاداب بفاس طبعة وزارة الثقافة والاعلام بالجمهورية العراقية ضمن سلسلة كتب التراث عدد 11 .

2 ـ هو أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد البصرى توفى ببغداد سنة ست ومائتين (أنظر ترجمته بالجزء التاسع عشر من كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي ص 52) .

وأوائل القرن الثالث اخذ عن سيبويه وعيسى بن عمر والنظام وأخذ عنه ابن السكيت في أيامه الاولى ثم أوقف الاخذ عنه لشكه في نزاهته ، ولقد خلف كتبا كثيرة منها المثلث الذى اقبل الناس على قراءته وحفظه وحرصوا على نظمه لتسهيل تداوله .

ومن بين الذين نظموه سديد الدين ابو القاسم عبد الوهاب بن الحسين الوراق البهنسي الشافعي المتوفى سنة 685 هجرية .

بدأ منظومته بقوله :

يا مولعا بالغضب
والهجر واتجنب

هجرك قد برح بي
في جده واللعب

إن دموعي غمر
وليس عندي غمر

فقلت ياذا الغمر
اقصر عن التعتب

بالفتح ماء كثرا
والكسر حقد سترا

والضم شخص ما درى
شيئا ولم يجرب

وقال في آخرها :

لما رأيت دله
وهجره ومطله

نظمت من حبي له
مثلثا لقطرب

وعمل بعض اللغويين على شرح هذا المثلث وتبيين وجوه كلماته وكان من بينهم محمد بن علي بن ابراهيم المعروف بابن زريق المتوفى سنة 977 هجرية (3) وقد اضيف الى المنظومة فيما بعد أبيات تشير الى هذا الشرح قال ناظمها الذي نسجها على شكلها السابق :

وابن زريق نظما
شرحا لما تقدما

فربما ترحما
عليه أهل الادب

والواقع ان كتاب المثلث لقطرب كان منطلقا عمليا لنشر الاهتمامات بهذا الجانب اللغوي وهو ككل عمل في بدايته لايكون كاملا ، لهذا دفع بعض اللغريين الى الاقتداء به والاضافة اليه ومن بين الذين الفوا في هذا الباب واشاروا الى عمل قطرب العالم اللغوي الاندلسي أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي المتوفى سنة احدى وعشرين وخمسائة هجرية .

ان البطليوسي هذا غني عن التعريف لما اشتهر به من الدقة في البحث ولما عهد فيه من تتبع أصول اللغة ومعرفة خبايا الادب ، كان مولعا بدراسة امهات الدواوين الشعرية العربية القديمة وقد شرح ديوان سقط الزند للمعري كما شرح مختارات من لزومياته والف كتبا في اللغة والنحو والادب تتجاوز الثلاثين وهو في كتبه يركز ابحاثه ويدقق اقواله ويعمد الى الايضاح التعليمي المعين على المعرفة .

ويمكن معرفة طريقة منهجه فى التاليف من مقدمة كتابه فى المثلث حيث يذكر بواعث التاليف ويقارن بين الخطة التي سار عليها قطرب وبين الخطة التي يرتضيها ، هو لكتابه ، فقد بدأ كتابه بقوله :

قال الفقيه الاستاذ النحوى اللغوى أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي رحمه الله : رأيت جماعة من المتبعثين لطلب الادب يولعون بكتاب المثلث المنسوب الى قطرب ولعمرى انه لمنزع مستطرف لانعلم أنه سبقه اليه قبله مصنف غير انه كتاب يدل على ضيق عطن مؤلفه وقلة مادة مصنفه لانه اجتمع فيه مع صغر حجم الكتاب انه اورد فيه أشياء بعيدة عن الصواب واضطر الى ذكر الفاظ تخالف المنزع الذي قصد اليه وحام فكره عليه لانه ادخل فيه الكلا والكلل ومثل هذا لا يعد من المثلث الذي اياه اعتمد واليه قصد لان المفتوح منها مقصور مهموز والمضموم غير مهموز والمكسور ممدود وكذلك ذكر السلامي وهي مقصورة مع السلام والسلام وهما غير مقصورين وذكر الجوارى وهي من المعتل المنقوص مع الجوار والجوار وليس مثلها في الاعتلال .

---

3 ـ الجزء العاشر من معجم المؤلفين لكحالة ص 229 .

ومثل هذه الالفاظ لا نعرج نحن عليها ولا نلتفت اليها وانما نعتد مثلثنا في كتابنا هذا ما اتفقت أوزانه وتعادلت أقسامه ولم يختلف الا بحركة فائه فقط كالغمر والغمر والغمر او بحركة عينه كالرجل والرجل والرجل أو كانت فيه ضمتان تقلابــان فتحتين وكسرتــين كالسمــم والسمسم والسمسم والجرجار والجرجير والجرجور والهمهام والهمهيم والهمهوم .

وقد جمعت من هذا النوع ما أحاط به علمي وانتهى اليه فهمي وأضفت اليه المثلث المتفق في معناه ممـا يوافق المنزع الذي شرطناه واضربنا عما لم يوافق شرطنا الذى التزمناه فاجتمع لنا في المثلث المختلف المعناني ستمائة كلمة وخمس وتسعون كلمـة ومن المثلث المتفق المعاني مائـــة كلمة وثمان وثلاثـون كلمة وقد كنت صنعت فيه تاليفا آخر مرتبا على نظم الحروف حسب ما فعلته في هذا التصنيف وذلك عـام سبعين وأربعمائة وذهب عني في نكبة من قبل السلطان جرت علي وانتهت معظم ما كان بيدى غير أنه لم يبلغ عدد الفاظه عدد ما ذكرته في هذا التاليف الثاني وأنا أسال الله عونا على ما قصدت اليه ونويته انه المامول والمستعان والمعهود منه الفضل والاحسان وصلى الله على نبيه المصطفى ورسوله المجتبي وسلم تسليما

وبالفعل فان الكتاب الذي وضعه البطليوسي قد أفاد في الموضوع اللغوى افادة عامة وذاع بين رجـال اللغة والادب وتسارع الناس الـى انتساخــه وحفظه وتباروا في الاستدلال به والاعتماد عليه ووجدت منه نسخ متعددة في مختلف الخزانات العالمية ومن اهمها نسختان قديمتان احداهما بجامعة ييل تحمل رقم 568 وهي مكتوبة بخط مغربي جيد الشكـل جميـل سهل القراءة نسخت سنة أربع وسبعين وخمسمائـة بخـط الفقير الى رحمة ربه عبد الرحمن بن محمد بفسطاط مصــر .

أما النسخـة الثانية فهـي النسخـة الموجودة بجامعة القرويين تحت رقم 538/40 ضمـن مجمـوع يحتوى على ثلاثة كتب وهي مبتورة من الاول تنقصها ورقة واحدة ومشكولة بالشكل التام وقد وقع الفراغ من نسخها في يوم الثلاثاء الموافق لثلاثين من رجب سنة ست وثلاثين وستمائة وقد كملت مقاباتها بكتاب الاستاذ أبي الحسن وهو منتسـخ من كتاب الشيخ الفقيه الاجل الاستاذ النحوى أبي عبد الله محمد بن السيد البطليوسي رحمه الله الذي هو أصله بخـط يده وتاليفه في يوم الاثنين الثاني عشر من شهــر رمضـان المعظم سنة ست وثلاثين وستمائة .

وقد اعتمد الاستاذ العراقي الدكتور صلاح مهدي علي الفرطوسي في تحقيقه لهذا الكتاب على النسختين المذكورين معا وهو تحقيق موفق مهد له بدراسـة معمقة جيدة تدل على اعتنائه الكامل بموضوعه وعلى خبرته بهذا الجانب اللغوي وعلى ربط ذلك بالدراسـات الصوتية المعاصرة وبسر له رسوما وجداول وفهارس تحدد جذور الكلمات المستعملة وتبين مدى ارتباطها بأصول الاصوات .

ومن الاعمال المشكورة لهذا العالم المحقق الذي يتولى التدريس بكلية الاداب بجامعة سيدى محمد بن عبد الله بفاس اهداؤه نسخة من كتابـه الى خزانـة القرويين العامـرة .

ان نسخة القرويـين التـي اعتمدها المحقق أخذ صورتها عن طريق معهد المخطوطات ولـم يشر في وصفها الى الخلط الواقع في ترتيبها والى عدم التنسيق بين أوراقها مع أن هذه الاشارة ضرورية ومفيـدة .

ان من يطلع على مخطوطة القرويين فسيرى أرقاما موضوعة بقلم الرصاص رتبت الكتـاب قبل تفسيره وهي أرقام لاتخلو من استعجال ويستطيع معرفة خطئها من صوابها كل الذين يدرسون الكتاب بتأمل .

من ذلـك مثـــلا :

1 ـ عدم انتهاء الحديث عـن مادة الامـر في آخر الصفحة الرابعة ولا يوجد تمامها الا في الصفحة السابعة .

2 ـ الحديث في الصفحتين السادسة والسابعة عن المواد الاتية الاذل والاذن والآصر والأرث والأخذة مـع أن الرقم غير مناسب .

3 ـ الصفحة الواحدة والخمسون تتحدث عن مواد من حرف الخاء مع أنها قد أدمجت مع الحاء .

4 ـ الصفحة الخامسة والخمسون من الحاء وهي في غير مكانها .

5 ـ الصفحة السابعة والستون من الحاء ولكنها ادمجت مع مادة الخاء .

6 ـ الصفحة التاسعة والستون من الجيم ولكنها ادمجت مع الخاء أيضا .

7 ـ الصفحة الواحدة والسبعون من الحاء ادمجت مع الخاء وهي الواقع صالحة لتكون تالية للصفحة الثامنة والثلاثين .

وهكذا دواليك .

ولعلنا ان شاء الله سنعمل في المستقبل على اعادة ترتيب الكتاب وعلى ربط بعضه ببعض ربطا عاديا .

ومن الاشياء التي لم يعتمدها المصحح للكتاب والمحقق له حصر الاعداد الموضوعة ازاء كل مادة فما وضعه في المقدمة انما جعله وفق الارقام التي اختارها من بعض المخطوطات لاوفق ما هو موجود في نسخة القرويين وليس هناك سبيل الى معرفة العدد الذي انتقاه ناسخ الكتاب نظرا لمحوه من هذه المخطوطة .

وعلى كل حال فالكتاب بعد اخراجه في حلته الجديدة أصبح في متناول الباحثين مرجعا عاما بعد أن كان في متناول الخواص فقط وهذه مهمة يقوم بها الذين يحيون التراث ويساهمون بها في نشر اللغة العربية وتعبيد طريق المعرفة أمام المهتمين بالدراسات الاسلامية .

وقد حاول في تحقيقه أن يشير الى مصادر الاستدلالات الشعرية والى مصادر الحديث والى مواضع الآيات من السور والى ذكر القراء وانواع قراءاتهم الا أنه لم يكن بالنسبة الى هذه الجزئية الاخيرة ملتزما دائما بارجاع كل قراءة الى اصحابها مع أن طبيعة بحث علمي في مستوى ما قام به تقتضي ذلك فليس من اللائق أن يكتفي بالاشارة الى عدد القراءات دون ربطها بمن وردت ربطها بمن وردت عنهم .

من ذلك مثلا انه يقول اثر قول الله تعالى «ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم (ص323 تعليق149) الاية من سورة التوبة 61/9 وأنه جاء في تفسير القرطبي (ج 8 صفحة 192) كونها قرئت بضم الدال وكسرها .

ان مثل هذا التعليق لم يضف اي شيء الى ما في صلب الكتاب ولم يجعل القارىء على علم بما وصل اليه علم القراءات مع ان المعروف في كتب هذا العلم مثل كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزرى الجزء الثاني ص 216 ان السكون مرتبط بنافع وأن غيره قد رفع ولا يخص ذلك هذه الاية فقط بل هو متصل بكلمة اذن كيفما وردت وفي أي سورة كانت .

ومن ذلك اشارته وهو يتحدث عن جذوة مثلثة الجيم بمعنى القطعة من النار الى قوله تعالى : (او جذوة من النار) في الصفحة 413 من الجزء الاول فقد ذكر أن هذه الاية من القصص 29/28 ولم يشر في تعليقه الى أنواع القراءات مع انه جاء في النشر قوله واختلفوا في جذوة فقرا عاصم بفتح الجيم وقرأ حمزة وخلف بضمها وقرا الباقون بكسرها .

وهكذا كانت طريقته في بعض التعليقات التي لم تكن محددة لانواع القراءات رغم الاشارة اليها عن طريق تفسير القرطبي بالخصوص وليس معنى هذا انه لم يعلق على بعض الايات التعليقات المفيدة بل انه في غالب الاحيان كان سديد الرأي قويم الاشارة .

ونحن لوقارنا بين الكتاب في شكله المطبوع وبين النسخة الموجودة بالقرويين لوجدنا الاصل القروي في غالب الاحيان أكثر سلامة من النسخة المطبوعة ولاندري أيرجع ذلك لاخطاء مطبعية او لقصد من المحقق ذاته والغالب أن ما يرتبط بالاخطاء واضح جدا أما ما يحتمل الشك فامر ينبغي الاشارة اليه وذلك مثل اسيت على الشيء اي حزنت من أجله ففي نسخة القرويين (ورقة 16 ظ) كتبت بكسر السين وفي النسخة المطبوعة (ج 1 ص 338) كتبت بفتحها والكسر أسلم ، ومثل كلمة مضلع في قول الشاعر :

عنده الحزم والتقى أوسى الصد
ع وحمل لمضلع الاثقال

عنده في نسخة القرويين (ورقة 16 ظ) مكسورة اللام وفي الكتاب المطبوع (ج 1 ص 338) بفتح اللام والكسر أسلم .

ومثل قوله فاجلوني عوض فاحلوني وذلك عند حديثه عن الاجل بالكسر (ورقة 6) (ج 1 ص 325) فقد جاء في أصل الكتاب .

والاجل بالكسرة غير وجع في العنق ذكره الفراء وحكى عن ابي الجراح العقيلي انه قال بي اجل فاجلوني منه اي داووني منه اذ لا معنى لقوله فاجلوني منه .

وعلى كل حال فان الكتاب خصوصا بعد طبعه يعد مصدرا اساسيا من مصادر المعرفة اللغوية لا يستغني عنه القاري، وان مؤلفه وان كان قد اعتمد على تسلسل الحروف من حيث مبتدا الكلمات فهو لم يسر على تسلسلها من حيث الثواني والثوالث والسبب فى ذلك راجع الى ان امثال هذه الكتب لم تكن مراجع معجمية فقط بل كانت تحفظ وتستحضر وتستعمل لتحديد معالم المعاني في مختلف الاتجاهات ولايستغني عنه حافظ للغة او دارس للادب والناظر فيه يحتاج الى معرفة الشواهد وربطها بمصادرها الاولى .

ولعل نظرة موجزة عن بعض ماورد فيه تكفي في الاستدلال على افادته ونفعه فهو مثلا في شرح مادة الامر (ج 1 ص 312) يقول :

والامر بفتح الهمزة نقيض النهي والامر ايضا كل حدث يحدث وكل قصة تقع ، والامر ايضا مصدر امرت الشيء اي كثرته قال الله تعالى « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها» (الاسراء 16)ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم خير المال سكة مابورة او مهرة ماموره هذه وجوه الامر المستعملة في كلام العرب وجاء فى القرآن على معان اخر ولكنها راجعة الى ما ذكرناه، فمنها الامر الذي يراد به القضاء كقوله تعالى : « يدبر الامر من السماء الى الارض»(السجدة5) قال المفسرون معناه القضاء ، وكذلك قالوا فى قوله الا له الخلق والامر (الاعراف 54) ومنها الامر الذي يراد به الدين كقوله فتقطعوا أمرهم بينهم (المومنون 53) وقوله تعالى حتى جاء الحق وظهر امر (الله التوبة 48) ومنها الامر الذي يراد به العذاب كقوله تعالى : وقال الشيطان لما قضي الامر (ابراهيم 22) قال المفسرون معناه لما وجب العذاب ومنها الامر الذي يراد به القيامة كقوله : وغرتكم الاماني حتى جاء امر الله (الحديد 14) ومنها الامر الذي يراد به الوحي كقوله يتنزل الامر بينهن (الطلاق 12) ومنها الامر الذي يراد به الذنب كقوله تعالى فذاقت وبال امرها (الطلاق 12) اي جزاء ذنبها ،

واما الامر بالكسر فهو العجب قال الله تعالى لقد جئت شيئا امرا (الكيف 17) .

واما الامر بضم الهمزة فجمع امور من قولهم فلان امور بالمعروف فهو عن المنكر واصله امر (بضم الميم) ثم خفف لتوالي الضمتين كما يقال في رسل رسل قال طرفة :

تضل احلامهم عن جارهم
رحب الاذرع بالخير امر

ففي هذا الشرح وضوح كاف لطريقة عرضه وكيفية تحليله ولتعرضه للايات والاحاديث والاشعار وبذلك يصبح كتابه ديوان ادب ومجمع لغة ومثار معرفة وموئل بيان .

ومن الفوائد العارضة فى هذا الكتاب بعض الاسطرادات التي يحتاج اليها الدارس لادب الاقدمين من ذلك مثلا ذكر اسماء الايام في العصر الجاهلي فقد شاع بين اللغويين اسم عروبة ليوم الجمعة وورد ذلك فى مختلف المناسبات لكن ذكر اسماء الايام الاخرى لم نعهده في الكتب المتداولة حسب علمنا الا ان البطليوسي تعرض لها حينما كان يشرح كلمة جبار بضم فقد قال ... والجبار بالضم الهدر ومنه الحديث جرم العجماء جبار. وقال الافوه الاودى :

حكم الدهر علينا انه
ظلف ما نال منه وجبار

ويقال ليوم الاحد اول وليوم الاثنين اوهن واوهد وليوم الثلاثاء جبار وليوم الاربعاء دبار وللخميس مؤنس للجمعة عروبة وللسبت شيار ، قال الشاعر :

اؤمل ان اعيش وان يومي
باول او باهون او جبار
او التالي دبار فان افته
فمؤنس او عروبة او شيار

وعلى كل حال فالكتاب مفيد جدا وان الحرص على بعثه من جديد ليعد بعثا للحضارة العربية الاسلاميه واحياءلمالها وتمهيدا لطريق المعرفة وتيسيرا لسبر المعاني اللغوية في حقيقتها ومجازها وان تحمس بعض اساتذة اللغة والادب لاحياء امثال هذه الكتب ليدخل في الاعمال الايجابية الهادفة الى بعث الثقافة العربية من جديد والى ربط شرقها بغربها وشمالها بجنوبها وليس هناك دليل على ذلك اكبر من هذا الدليل الحي الذى جعل باحثا من العراق يعتمد كتابا مؤلفا في الاندلس مختزنا في مدينة فاس يجعل من تحقيقه مناسبة كبرى لربط الماضي بالحاضر ولربط المسلمين بين أجزاء المعمور بعضهم ببعض فليبارك الله عمله وانا لتحقيقه كتبا اخرى من هذا القبيل لمنتظرون .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ
محافظ خزانة القرويين

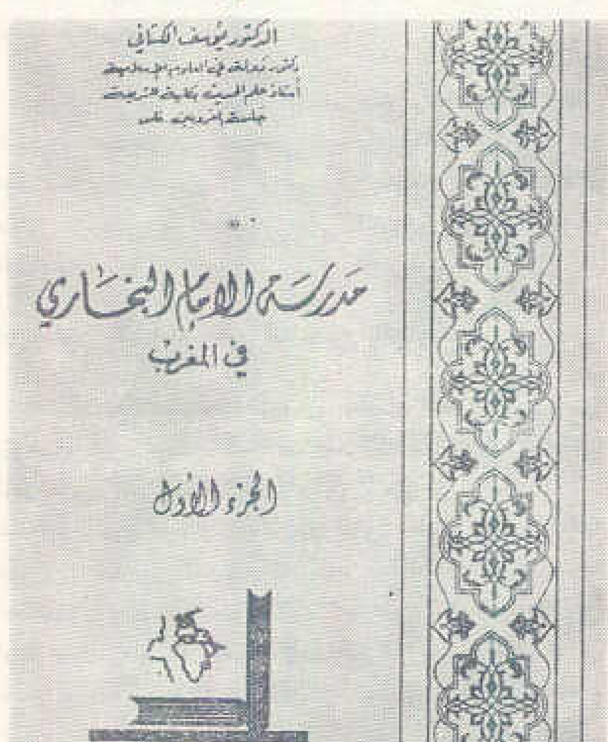
الشروح المغربية لصحيح البخاري

للدكتور يوسف الكتاني

●● صدر للدكتور يوسف الكتاني كتاب جديد في مجلدين كبيرين عن (مدرسة الامام الابخاري في المغرب) عن دار لسان العرب ببيروت . وكان الكتاب في الاصل أطروحة دكتوراه تقدم بها المؤلف الى دار الحديث الحسنية لنيل دكتوراه الدولة في العلوم الاسلامية .

ويعتبر كتاب (مدرسة الامام البخاري في المغرب) من المراجع الهامة التي تقدم لطلاب الدراسات العليا والباحثين مادة غزيرة عن عناية المغاربة بصحيح البخاري واهتمامهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وننشر فيما يلي جزءا من فصل تضمنه الكتاب حول (الشروح المغربية لصحيح البخاري) ●●



ونذكر من أعظم تآليفه :

« لوامع الدار في هتك استار المختصر » في سبعة اسفار ضخام ، و « الريان في تفسير القرآن » في سبعة اجزاء ضخام .

و « النهر الجاري في شرح البخاري » في سبعة اسفار ضخام ايضا (١٨) وهذا الاخير اعظم كتب الشيخ واهمها ، تناول فيه شرح صحيح البخاري باسلوبه الخاص حيث يذكر فيه راي الشراح قبله في الحديث ثم يذكر اجتهاده الخاص في شرح الحديث وكثيرا ما يقول ، يقول صاحب هذا الشرح وفي القرآن ، يقول صاحب التفسير اشارة الى فهمه الخاص في القرآن والحديث .

وكثيرا ما ينتقد على الشرح السابقين ويصوب ما يري تصويبه على ان احب شروح البخاري اليه والتي كثيرا ما ينقل عنها في شروحه ثلاثة ، فتح البارى لابن حجر ومراقي السعود وشرح السيوطي للبخاري الذي اعتمد على الجزء الموجود منه كثيرا ، كما كان ينقل احيانا عن ارشاد القسطلاني وكتاب الشيخ محمد البدالي الشنجيطي في شرح البخاري .

اما اسلوبه في شرحه فقد كان يعتمد على الشرح اللغوي للكلمات اولا ثم الاعراب حيث يهتم باعراب كل كلمة وجملة توطئة للمعنى ثم يشير الى شرح القسطلاني او ينقل كلام ابن حجر في الموضوع ويذكر الراي الفقهي على المذاهب .

ثم يتقدم شرحه لمعنى الباب ثم الحديث المتكلم عليه واحيانا يذكر الاحاديث الواردة في الموضوع استدلالا وتاكيدا للمعنى المقصود .

---

(18) تبيين الراغبين في حياة آل محمد سالم المجلسي ص : 5

ويتميز هذا الشرح الفريد بكون الشيخ يعتمد كثيرا فيه على اجتهاداته العجيبة التي توافق المعنى واللغة والنحو ، وقد اعجب بهذا الشرح كثير من العلماء المعاصرين فقرضوه واثنوا عليه حتى اجمعت كلمتهم على انه لم يكن شرح يوازيه في التصحيح .

ونذكر من الذين قرضوه وكتبوا عنه الشيخ ماء العينين والشيخ سعد ابيه والشيخ سيدي والشيخ محمد المامون والشيخ محمد الفال والشيخ محمد ولد البابا وغيرهم .

ويوجد هذا الشرح الضخم عند ولد حفيد المؤلف الشيخ العبده بن الجيلالي بيمين امام جامع مولاي عبد العزيز بالعيون ، وهو في سبعة اسفار ضخام مكتوب بخط المؤلف يخرج في عشرين جزءا واكثر لو طبع .

٣) الفجر الساطع على الصحيح الجامع

للشيخ المحدث المفتي خطيب الحرم الادريسي بزرهون ابو عبد الله محمد الفضيل بن الفاطمي الادريسي الشبيهي الزرهوني المتوفى سنة ١٣١٨ صاحب شرح البخاري الشهير الذي تحدث عنه صاحب فهرس الفهارس بقوله : « انفس واعلى ما كتبه المتاخرون من المالكية على الصحيح مطلقا وهو في اربع مجلدات انا متفرد الآن في الدنيا بروايته عن مؤلفه وقد استدرك في شرحه المذكور على الصحيح وانتقد امورا على الحافظ ابن حجر وفق لها وغفل عنها من قبله من الحفاظ مما يعلم منه ان الفتح بيد الله ، وبالجملة فالرجل من مفاخر المتاخرين وممن يبتهج به صف شيوخنا رحمهم الله (19) .

ونسخته الاصلية موجودة في الخزانة الملكية في مجموعة الخزانة الزيدانية في ست مجلدات وهي التي اعتمد لها في التعريف بالشروح (٢٠) .

وقد افتتح شرحه بمقدمتين :

الاولى ، في آداب قراءة الحديث الشريف وما يطلب من قارئة ومستمعه وحاضر مجلسه من التعظيم له والتشريف حيث روي احاديث في الموضوع عن عياض في المدارك ، ملفتنا النظر الى ان الاولى لقارئ الحديث ان يصلح النية وان يكون على وضوء لان قراءته على غير وضوء تكون مكروهة وانه يكره لقارئ الحديث ان يقوم لاحد لانه قلة ادب وقلة احترام مع النبي صلى الله عليه وسلم .

ولاينبغي للقارئ ايضا اذا مر بذكر الله عز وجل او رسوله او الصحابة ان يقول قال الرسول . وانه ينبغي له بان يعرف النحو واللغة واسماء الرجال .

ثم تكلم عن نقل الحديث بالمعنى وما يطلب من سامع الحديث ان لا يرفع الصوت على حديث النبي صلى الله عليه وسلم الخ ، ، ،

اما المقامة الثانية فخصصها للتعريف بمؤلف الصحيح وبيان موضوعه وصنيعه فيه وعدد ما اشتمل عليه من الاحاديث والكتب والابواب ، وفي ذلك يقول :

واما صنيعه في جمع الاحاديث وتفريقها في الابواب فانه كما اخذ بالاستقراء يعمد الى الحديث الواحد ويستنبط منه ما قدر عليه من الاحكام ويجعل لكل حكم ترجمة يضعها في المحل المناسب لها من الكتاب ثم ينظر فيما اجتمع عنده من طرف ذلك الحديث فان ساوت الطرق الاحكام اثبت الحديث في كل ترجمة بطريقة من تلك الطرق ربما تممه فيها كلها وربما اختصره في بعضها لمعنى له وان كانت الطرق اكثر ذكر الحديث في بعض تلك التراجم بطريقتين او اكثر حتى ياتي على آخرها وان كانت الاحكام اكثر ذكر الحديث في بعض التراجم تاما وفي بعضها مختصرا او معلقا او قال فيه حديث كذا حتى لا يبقى عليه من الاحكام شيء ولا من الطرق التي عنده شيء ، قال الحافظ ابن حجر ، فعلم انه لا يكرر الا لفائدة وفي التحقيق لا تكرار فيه ولم اره خالف هذا يعني بذكر الحديث بمتنه واسناده فى محلين الا فى مواضع نادرة الى ان يقول :

عدد احاديثه الثلاثيات ثلاثة وعشرون وهي اقصر احاديثه اسنادا واطول سند فيه سند اسماعيل بن ادريس المذكور في باب ياجوج وما جوج فانه تساعي ، واكثر سند ذكر للصحابة سند ابي سليمان في باب رزق الحكام من كتاب الاحكام فان فيه اربعة من الصحابة السائب ومن ذكر بعده .

---

(19) الفهارس : 2 / 286 و 287 .

(20) موجودة بالخزانة الملكية تحت عدد : 773 ز

واطول حديث فيه حديث عمرة الحديبية المذكور في كتاب الصلح ، واكثر ابوابه احاديث باب ذكـــر الملائكـــة .

واكثر من روي عنه من الصحابة ابو هريرة رضي الله عنه ،

واكثر احاديثه تكرارا حديث هريـرة فانه كرره اكثر من عشـرين مـــرة .

وذكر بعد المقدمتين سنده الى الامـام البخاري عن شيوخـه الثلاثـة ابي العباس احمد بـن محمـد المرنيسي وابي عبد الله محمد بن حمدون بن الحـاج السلمي وابي العباس احمد بن محمد بناني الخ (21) .

ثم ذكر اجازة الشيخ ابي الحسن على بن طاهر الوتري الحسيني المدني له باعلي سنـد يوجد في الدنيا (٢٢) عن شيخه عبد الغني العمرى المـدني عن محمد بن يوسف الفربرى بسماعه من مؤلفه صاحب الصحيح وانه اخذ هذا السند من شيخه المذكور بضريح قطب الاقطـاب ونـور الانـوار مـولانا ادريـس 1297 هجرية (23) .

وبعد ذكر اجازته وسنده الى البخاري بدا في الشـرح من اول الصحيح بالكلام عن البسملـــة دون الصلاة لانها غير ثابتة في اصله .

وتكلم عن الوحي لغة وشرعا ، وتعريف النبـــي والرسول ذاكرا سبب البدء بالآية انا او حينا اليك ...

« لان البخاري يستدل بالترجمة بما وقع له مـن قرآن وسنة مستندة وغيرها مشيرا الى الكلام الموجود على نسخة الصدفي والذي هو من زيادة ابي عمران ابن سعادة ذاكرا ان الاولى كان حقه أن يكتـب في الطـرة .

وعرف بابي علـى صدفـي والباجـي وابـــي در السرخسي والمستملي والكشميهني والفريري الرواة الاولين للصحيح .

ثم اخذ في اعراب حدثنا فلان وسمعت فلانا يقول بادئا بشرح الحديث الاول انما الاعمال بالنيات .

متكلما عن موضوع هذا الحديث وكثرة فوائده وصحته شارحا الفاظه وعباراته ومفرداته مبينا معناه ذاكرا اقوال الشراح فيـــه .

هذا نموذج باختصار لطريقة شرحه للاحاديـث والابـــواب .

اما اسلوبه العام في شرحه وطريقته الخاصة فيه فقد اعتمد فيــه على بيان معنـــى الحديـــث وغامضــه ومشكله وحل الفاظه واعرابه واعتماد الاقوال والتوجيهات التي يراها في شرحه وبيان مقصود الترجمة وشاهدها على ما ترجح عنده مبينا الاحكام الشرعية مما وافق مذهب الامام مالك غير متعـرض لاحـوال الاسانيـد واسماء الرجال ووصل التعاليق تجنبا للتكرار ولمـا سبق اليه في الشروح السابقة التي استمد من اغلبها مستـشهدا للمعنى الذي يختاره بالحديث كثيـــرا او بالآيـــة احيانـــا .

واحيانا ينقل القول منسوبا الى صاحبـه دون ذكر الكتاب المنقول عنه مثلا قاله . العلامة ابن زكري او لابن الوقت كما جاء في شرحه لاول حديث او مثـل قاله الدماميني .

ومن خصائصه انه يهتم باعراب الكلمات عند كل شرح ليصل الى المعنى المقصود ، وقد وفق فيه الى نكت غريبة وتنقيحات عجيبة وتوشيحات مصيبة وفوائد وغرر فريدة ، وما احسن ما قاله المؤلف عـن شرحـه في اول مقدمتـه ننقلـه تتميمـا للفائـدة : « وبعد فهذا تقييد على الجامع الصحيح الحائز قصب السبق في ميدان التقديم والتفضيل والترجيح تصنيف امير المؤمنين في الحديث وقدوة الحفـاظ والنقاد في القديم والحديث المشرق فضله على هذه الامة اشراق الكواكب الدراري ابي عبد اللـه سيـدي محمـد بن اسماعيل ابن ابراهيم البخاري ، قصدت به التعلق باذيال من تعلق الاولون والآخرون باذياله والانخراط في سلك من تصدى لبيان أحوال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقواله وافعاله والتطفـل على علماء امته كي ادخل زمرتهم واحتمى بحماهم عند شدائد الموقف واهواله واسكن معهم حظيرة القدس في

(21) انظر هذا السند كاملا في المجلد الاول من الشرح المذكور ص : 13 و 14 .
(22) الفجـر الساطـع مجلد 1 / 14 .
(23) المرجـع السابـق ص : 15 .

جوار عروس المملكة صلى الله عليه وسلم وعلى آله سلكت فيه في بيان معنى الحديث وغامضه ومشكله وحل الفاظه واعرابه بحسن المسالك ، واقتصرت فيه من الاقوال والتوجيهات والتوفيقات والاجوبة وبيان مقصود الترجمة وشاهدها على ما ترجح عندي في ذلك، وآثرت فيه عن بيان الاحكام الشرعية ما وافق مذهب أمام الائمةوامامنا مالك ولم اتعرض لاحوال الاسانيد واسامي الرجال ووصل التعاليق والمتابعات لتكفيل فتح الباري بجميع ما هنالك ، ثم انني وان كنت مستمدا من تآليف من تكلم قبلي على الكتاب المشارق والنكث والكواكب والبهجة والفصيح والتنقيح والفتح والعمد والمصابيح والتوضيح والتحفة والارشادين والمعونة والتشنيف والتوشيح وغير ذلك من التآليف الموضوعة عليه وعلى غيره ، والمرجوع اليها عند الترجيح والتصحيح فقد فتح الله علي فيه بنكث غريبة واتحفني سبحانه بتنقيحات عجيبة وتوشيحات مصيبة وارشدني وله الحمد والمنة لعيون فوائده وغرر زوائده تقف دونها الافكار وتبذل في تحصيلها نفائس الاعمار فجاء بحمد الله على صغر حجمه ولطافة جرمه مشتملا على علم غزير وتدقيق وتحرير يسر الناظر ويريح الخاطر ويغني في بابه عن مطولات الدفاتر وسميته « الفجر الساطع على الصحيح الجامع » والله سبحانه اسأل ان يسلك بمن فيه صوب الصواب وان يجرى على قلمي فيه اظهار الحق وفصل الخطاب وان يديم به النفع العام للخاص والعام ، وان يجعله خالصا لوجهه الكريم وان يتقبله مني بجاه مولانا رسول الله عليه أفضل الصلاة وازكى التسليـم .

وهكذا اتم الشيخ الفضيل الشبيهي شرحه العظيم للبخـاري فبيضه سنة ١٣١٣ وأخرجه سنــة ١٣١٦ وأخرجه سنة ١٣١٦ وراجعه وصححه سنة ١٣١٧ في ستة اجزاء كما يلـي :

الاول : من كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى باب استئذان المرأة زوجها بالخروج الى المسجد .

الثاني : من كتاب الجمعة باب فرض الجمعة الى باب المعتكف يدخل راسه البيت للغسل .

الثالث : من كتاب البيوع باب ما جاء في الله عز وجل « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » الى القسامة في الجاهلية .

الرابع : باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم الى باب اذا أصاب القوم غنيمة فذبح بعضهم غنما أو أبلا بغير أمر اصحابهم لم يوكل .

الخامس : من كتاب الاضاحي باب سنة الاضحية الى باب الموعظة ساعة بعد ساعــة .

السادس : من كتاب الرقاق الى باب قول الله ونضع الموازيـــن .

وتمتاز النسخة الزيدانية من هذا الشرح باجازة فريدة نادرة مكتوبة على الصفحة الاولى من السدس الاول بخط المجيز الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني الذي انفرد في الدنيا بروايته عن صاحب اثر اتمامه وقبل وفاته بقليل وقد اجاز للنقيب الشريف مولاي عبد الرحمان بن زيدان بالشرح المذكور وبكل ما اجاز المؤلف المجيز ، وكانت هذه الاجازة الفريدة بتاريخ ١٣٤٢ ونصها ، كما هو منقول من الجزء المذكور بالحروف :

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى اما بعد ، فقد من الله علي بسماعي لمواضع من هـذا الشرح المعجب الاتي في باب التحرير والتحصيـل بمـا يطـرب ومناولتي بجمعيه من يد مؤلفه شيخنا ومفيدنا العلامة الفقيه المحدث الاصولي الخطيـب المفتى المدرس شامة زرهـون ابي عبـد الله محمـد الفضيل ابن الفاطمي الحسـني الشبيهي الادريسي الزرهوني وذلك يوم الاثنين ٦ جمادى الثانية سنة ١٣١٨ بداره بزرهون وأجازني به وبكل ما له من مروى وتقييد وتاليف اجازة عامة مطلقة و أملي منفردا الآن في الدنيا برواية هذا الشرح عنه لا أعلم من استجازه فيه ولا بقي من يرويه عنه اذ مات رحمه الله بعد ذلك بنحو الشهرين أي في شعبان ١٣١٨ بزرهون وقد شاركته رحمه الله مع كبر سنه وتقدم روايته في شيخه المشرقي الذى روى عنه الصحيح داخله وهو المحدث المسند الرحال ابو الخير علي بن طاهر الوتري المدني الحنفي فانه اجازني عامة مروياته مكاتبه من المدينة المنورة عـام ١٣٢٠ ، ومات سنة ١٣٢٢ في المدينة فعاشر بعد ذلك لابي الحسن محمد أحمد الجياني المتوفى سنة ٥٤٠ . المؤلف تلميذه نحو خمس سنـــوات .

وقد اجزت به وبمـا أجازني به مؤلف وغيـره حبنا وصفينا بهجة مكناسة الزيتون وزينتها عالمها واديبها وكريمها العلامة النحرير الداركة الاديب البارع الماجد الشهير النقيب مولاى عبد الرحمان بن زيدان العلوى الاسماعيلي نفع الله به العباد والبلاد وادام فضله شرفا الى يوم التناد قاله وكتبه خادم الحديث وأهله محمد عبد الحي ابن عبد الكبير بن محمد الكتاني الحسني الادريسي بفاس ، لطفا لله به وبالمسمين آمين ، وذلك في يوم الثلاثاء ٢٧ قعدة عام ١٣٤٢ بفاس وقد كانت صدرت مني اجازة عامة لمؤلفه قديما سنة 1324 ، والحمد لله وكفى وسلام على عباده الذيـــن اصطفـــى .

قائمـــة الشـــرح .

النصيحـة في شرح البخارى

لابي جعفر احمد بن نصر الـداودى الاسدى المتوفـى بتلمسان سنـة ٤٠٢ .

وهو أول شرح مغربي ـ فيما نعلم ـ للجامـــع الصحيح كما يعتبر ثاني شروح البخاري على الاطلاق بعد اعلام السنن للخطابي وهي ريادة عظيمة مغربية في هذا الميدان تذكر بمزيد الاعجاب والفخر للعلماء الذين كانوا من السباقين في هذا الميدان وقد فصلنا الكلام على صاحبه فيما قبل وعمن نقلوا عنه وعن المصادر التي ذكرته ونصت عليـــه .

شـــرح الـبـخـــارى :

لابي القاسم المهلب بن أحمد بن اسيد بن أبي صفرة التميمي المرى المتوفى سنة ١٠٤٤/٣٣٢ .

وهو شرح موسع قال عن صاحبه ابو الاصبع : كان من كبار أصحاب الاصيلي وبه حيى كتاب البخاري بالاندلس وقد ذكره في مقدمة اللامع ص ٣٣ .

شـــرح الـبـخـــاري :

لابي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك القرطبي المعروف بابن بطال المتوفى سنة ١٠٥٧/٤٤٩ .

ويقع في عدة اسفار وغالبه في فقه مالك نقل عنه الكرماني في شرحه .

ويوجد بخزانة القرويين كما ذكره بل في فهرسه تحت عدد ٤٣٣ وبفهرس القرويين تحت عدد ١٣٤ .

كما توجد نسخة منه بخزانـة الجامع الكبيـر بمكناس تحت رقم له ٣٣ .

كما توجد نسخة اخـرى بخزانة ابن يوسـف بمراكش تحت عدد ٤٨٥ .

وقد ذكره القسطلاني في ج 41/1 وذكره صاحب الديباج بقوله .

« وألف شـــرح البخـــاري »

بروكلمان ملحق ٣٣/١ وتاريخ التراث العربي ص ٣١٢

شـــرح الـبـخـــاري :

لابي حفص عمر بن الحسـن بن عمر الهوزنـي الاشبيلي المتوفى سنة ٤٦٠ ذكره القسطلاني في الارشاد ٤١/١ ومقدمة اللامع ص ١٣٣ وكشف الظنون ٥٤٦/١

شـــرح الـبـخـــاري :

لابي عبد الله محمد بن خلف بن المرابط المرى المتوفى بعد الثمانين وأربعمائة ٤٨٠ هـ قال عنه في الديبـــاج .

له في شرح البخارى كتاب كبير حسن وقد اختصر فيه شرح المهلب بن ابي صفرة وضاف اليه اضافات وزاد عليه فوائد وهو ممن نقل عنه ابن رشيد السبتـي. مقدمة اللامـع ص ١٣٣ القسطلانـي ٣٥/٢ معجم المؤلفيـــن ٢٨٤/٩

شـــرح الـبـخـــاري :

لابي الاصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الاسدى المتوفى سنة ٤٨٦ بغرناطـــة .

ذكره صاحب كشف الظنون ومقدمة اللامـــع ص ١٣٤ .

تفسيـــر غريب ما في الصحيحيـــن :

لابن فتوح محمد الحميدي الميورقي ت 488 .

معجـــم المحدثيـــن ص ٤٣ .

شرح البخاري :

المسمى

المجالس

لابي اسحاق ابراهيم بن موسى الشاطبي المالكي المتوفى سنة ٤٩٠ .

قال عنه في نيل الابتهاج : « شرح فيه كتاب البيوع من صحيح البخارى فيه من الفوائد والتحقيقات ما لا يعلمه الا الله » .

نيل الابتهاج ٣٢٩
مقدمة اللامع ص ١٤٩
شجرة النور الزكية ص ٢٣١

شرح البخاري :

لابي القاسم أحمد بن محمد بن عمر بن ورد التميمي المرى المتوفى سنة ٥٤٠

قال عنه القسطلاني : « بانه شرح واسع جدا » القسطلاني ٤٢/١
مقدمة اللامع ص ١٣٢
شجرة النور الزكية ص ١٣٤

شرح غريب الصحيح :

لابي الحسن محمد بن احمد الجياني المتوفى سنة ٥٤٠ .

كشف الظنون ص ٥٥٣
مقدمة اللامع ص ١٣٢
السفر السادس من الذيل والتكملة ص ٣٦ طبع سنة ١٩٧٣،

شرح البخاري :

المسمى

كتاب النيرين في الصحيحين :

لابي بكر بن العربي المتوفى سنة ٥٤٣ .

مقدمة اللامع ١٣٣
كشف الظنون
الديباج
شجرة النور الزكية ١٣٦

شرح البخاري :

المسمى

الخبر الفصيح الجامع لفوائد مسند البخاري الصحيح

عبد الواحد عمر بن التين الصفاقسي المتوفى سنة ٦١١ ،

وهو شرح متداول نقل عنه ابن حجر في الفتح واستفاد منه القسطلاني بذكره ،

مقدمة القسطلاني على شرح البخارى ص ٤٠
مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٣
كشف الظنون
شجرة النور الزكية ص ١٦٨

المفهم في شرح البخارى ومسلم :

ابو بكر محمد بن اسماعيل بن محمد الازدى الاندلسي المتوفى سنة ٦٣٦ ،
شجرة النور الزكية ص ١٨١ ،

ترجم صحيح البخارى ومعاني :

ما شكل من ذلك

لابي العباس أحمد بن رشيق الكاتب المتوفى سنة ٦٤٦

الحميد في الجذوة ١١٥
دعوة الحق ع ١ س ١٧ ،

شرح على صحيح البخارى :

أحمد بن محمد بن ابراهيم بن عمر القرطبي الانصارى المالكي المعروف بابن المزين ، المتوفى سنة ٦٥٦ ،

النفح ٣٧١/٣
الديباج ص ٧٧

معجم المؤلفين ٢/٢٧
شجرة النور الزكية ص ١٨٨

شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات : الجامع الصحيح

للشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك النحوي الجياني ،
ت في ١٢٧٣/٦٧٢
وهو شرح لمشكل اعرابه يوجد بالقرويين تحت عدد ٧٠٩ في جزء متوسط بخط مغربي ،
كشف الظنون ٥٥٣
بروكلمان ملحق ٢٩٨/١
مقدمة اللامع ١٣١ ،

ترجمان التراجم في ابداء وجه مناسبة تراجم صحيح البخاري

محب الدين محمد بن رشيد السبتي المتوفى سنة ٧٦١

طبع في الهند

وقد ذكر في كشف الظنون انه لم يكمل ،
يوجد مخطوطا بالاسكوريال تحت عدد ١٧٨٠/١٧٣٢
فهرس ١ / ٢١٠

شرح غريب البخاري :

لابي عبد الله محمد بن احمد اليفرني المكناسي المتوفى سنة ٨١٨ ،

وهو شرح في سفر واحد موجود بخزانة القرويين تحت عدد ١٤٠ ، وفي الخزانة الملكية ،

وفي خزانة تامكروت ،

وفي بعض الخزائن الخاصة ،

شرح البخاري :

محمد بن مرزوق الاكبر الحد التلمساني المتوفى سنة ٨٣٧ ،

فهرس الفهارس
شجرة النور الزكية ص ٢٠٣

المتجر الربيح والمرحب الفسيح في شرح الجامع الصحيح ،

لابي عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق التلمساني المالكي الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢ / ١٤٣٩ ،

لم يكمل ،

وهو موجود في الخزانة الكتانية تحت عدد ٥٧٢ (في ٢١٠ ورقة) القسطلاني ،

مقدمة اللامع ص ١٣٨ ،
فهرس الفهارس ١ / ٣٩٧ ،
كشف الظنون ٥٥٠ ،
بروكلمان ملحق ٢ / ٣٤٥

شرح صحيح البخاري :

لابي زكريا يحي بن عبد الرحمان العجيسي المتوفى سنة ٨٦٢ هـ ،

دعوة الحق ١ س ١٧ ،
ربيع الثاني ١٣٩٠ / ١٩٧٥ ،

شرح البخاري :

شرف الدين محمد بن عبد الرحمان المغربي الكندي المالكي المتوفى سنة ٨٦٣ ،

نيل الابتهاج ،
مقدمة اللامع ص ١٤٩ ،

شرح البخاري :

للشيخ يحيى بن احمد بن عبد السلام عرف بالعلمي المالكي ت ٨٨٨ ،

نيل الابتهاج ،
مقدمة اللامع ص ١٤٩ ،

شرح البخاري :

للقاضي ابي عبد الله محمد بن قاسم الانصاري الشهير بالرصاع المالكي المتوفى سنة 893 .

نيل الابتهاج ،
مقدمة اللامع ص ١٤٩ ،

شرح البخاري :

محمد بن يوسف السنوسي التلمساني المتوفى سنة ٨٩٠ ،

وهو شرح عجيب على البخاري وصل فيه الى باب من استبرأ لدينه ولم يكمله ،

موجود بالخزانة الكتانية ،
نيل الابتهاج ص ٣٢٩ و ٣٠٣ ،
نيل اللامع ص ١٤٩ ،
فهرس الفهارس ٢ / ٣٤٣
شجرة النور الزكية ص ٢٦٦ .

شرح مشكلات البخاري في كراسين :

محمد بن يوسف التلمساني السنوسي المتوفى سنة 895 .

يوجد بالخزانة الملكية في مجموع (تحت عدد 6451/6414 .

شرح البخاري :

ابراهيم بن هلال السجلماسي المالكي المتوفى سنة ٩٠٣

نيل الابتهاج
التراتيب الادارية
مقدمة اللامع ص ١٤٩

فتح الباري

في شرح غريب البخاري

أبو العباس أحمد بن قاسم ساسي البوني الجزائري . ت ١١٣٩
فهرس الفهارس ١٦٩/١
شجرة النور الزكية ص ٣٣٠

شرح البخاري

أبو عبد الله محمد بن احمد بن عبد الله الجزولي الحضيكي المتوفى سنة ١١٨٩ .

قال صاحب فهرس
الفهارس
وقفت على المجلد الاول منه
بمراكش .

فهرس الفهارس ٢٦١/١
النبوغ ٣٠٠/١

شرح البخاري :

محمد المدني بن محمد بن عبد السلام الناصري المتوفى سنة ١٢٣٨ .

قال عنه صاحب فهرس الفهارس .

وعندي شرحه بخطه فهرس الفهارس 413/1

شرح البخاري :

محمد بن محمد العربي بن عبد السلام بن حمدون البناني المكي الفاسي أصلا النفزي المتوفى سنة ١٣٣٥

فهرس الفهارس ١٦٣/١

شرح على البخاري

في أربع مجلدات

عبد الرحمان التغرغرتي السوسي مات في آخر عهد مولاي عبد الرحمان العلوي سنة ١٢٧٦ هـ

موجود بالخزانة الكتانية فهرس الفهارس ٣٨/٢

شرح البخاري

محمد بن أحمد السوسي التيوتي الروداني توفي آخر عهد مولاي عبد الرحمان حوالي ١٢٧٦ هـ قال عنه صاحب الاعلام وقفت له رحمه الله على الجزء الثالث من شرح البخاري بخط يده أوله في القيام لجنازة اليهودي .
الاعلام ٣١٤/٦

شرح على البخاري :
لم يكمل

أبو محمد الحاج الداودي التلمساني المتوفى سنة ١٢٧١ .
شجرة النور الزكية ص ٤٠٠
تعريف الخلف برجال السلف ١٠٧/٢
اليواقيت الثمينة ١٤٣/١
دعوة الحق ع ١ س ١٧ .

شرح على البخاري
في 12 جزء

أبو الحسن علي الونيسي
(القرن الثالث عشر)

تعريف الخلف ٢/١٨٢
دعـوة الحـق ع ١ س ١٧
١٣٩٥/١٩٧٥

النهـر الجـاري في شـرح البخـاري

للشيـخ محمـد بـن محمـد سالـم المتوفى سنة ١٣٠٢

مـخـطـوط فـي سـبـع مـجـلـدات ضـخـام يـوجـد عـنـد ابـن حـفـيـد الـمـؤلـف بخـزانتـه بالعيون اطلعت على الجـزء الرابع منه .

الفجـر الساطـع على الصحيـح الجامـع

لابي عبد اللـه محمد الفضيـل الادريسـي الشبيهـي الزرهونـي المتوفـى سنـة ١٣١٨

فـي ست مجلـدات
موجـود بالخزانـة الملكيـة
تحت عـدد ٧٧٣

فهـرس الفهـارس ٢/٢٨٦ و ٢٨٧

شـرح على صحيـح البخـاري

عبد الجليـل برادة الفاسي أصلا المدني دارا ومولدا ومدفنا المتوفى سنة ١٣٢٧
رياض الجنـة ٢/٢٧

شـرح على البخـاري

محمـد بن يحـي بـن يحـي الـولاتـي الشنتيطـي المتوفـى سنـة ١٣٣٠

في أربع مجلدات
امتاز بالتنبيه على كل
حديث تمسـك بـه مالـك
في المـوطـا

شجـرة النـور الزكيـة ص ٤٣٥
معجـم المحدثيـن ص ٣٨

شـرح البخـاري

التهامـي بن المدني كنون ت ١٣٣١
الشرف المصون لال كنون ص ٢٨

شـرح البخـاري

احمد بن جعفر الكتاني ت ١٣٤٠

في ثلاثـة اجـزاء
لـم يكمـل
موجود عند ولده الاستاذ ابراهيم بخزانته .

النبـذة اليسيـرة

كـوثـر المعانـي الدراري في كشـف خبايـا صحيـح البخـاري

الشيـخ محمـد حبيـب اللـه بن مايابـا الجكنـي الشنقيطـي المالكـي المتوفـى سنة ١٣٦٣ .
تنويـر الحوالـك
مقدمةاللامـع ص ١٤٩
طبع منه جزء صغير في مصـر

اتحاف قارىء صحيح البخاري

محمد الفرطاخ التطوانـي طبـع في تطـوان
موجود بالخزانة الصبيحيـة بسـلا تحت عدد ٢١٠٩ .
تاريخ التـراث العربـي ص ٣٤١

الضوء الساري في أفق صحيح البخاري

محمـد بن ابراهيـم بن محمـد الهلالـي المـزاري .
مخطـوط مصور بالخزانـة العامة ١/٤ مركـز تارودانت جائزة ١٩٧١ – نسخة مصـورة بالخزانـة الملكيـة ١٠٩٣٧

من الشعر الصوفي :

ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟!

للأستاذ الشاعر محمد بن محمد العليمي

غافر الذنب ، قابل التوب ، ربي ،   وحده في الوجود عوني ، وحسبي

انه الخالق الذي قدر الرز   ق ، ومنه بالنور يملا قلبي

فاليه رفعت حاجة نفسي ،   فاذا ما دعوت ، فهو يلبي

ودعاء المضطر نال قبولا   من اله يعطي الكثير ، ويربي

واذا ما عصى العبد ، فالـر   ب محا في غفرانه كل ذنب

وسجود المظلوم لله ، ينفي   عنه بالعدل كل ضيم ورعب

ان اسمى عناية منه تكفي   لزوال العكوس من كل صوب

وانتمائي لحزبه فيه فوزي :   ان حزب الرحمان اعظم حزب

نعلى العاقل التمسك بالله   ، ليرتاح عند سلم وحرب

ذلك العطر فيه تسبح روحي ،   وبنور النبي يأمن دربي

فهو حولي حفظ ، وحرز منيع ،   وهو دوما معي الرفيق بجنبي

كله نعمة وستر جميل ،   بشهود لفضله ، او بغيب

فهو اذني التي بها اسمع الحـ   ـق ، وعيني التي احيطت بهدب

فاذا خفت من الهي وقاني ،   من اذى حاسد ، ومن غدر ذئب

واذا مسني الهي بضر ،   فهو يشفي دائي ، ويكشف كربي

هو يختار وحده لي ، ويحمي   خطواتي من زلة احدقت بي !

كلما زدت رشفة تلو اخرى   من نداه ، اسرعت نحو المصب

والدليل الملموس ربحي دواما   رغم خصم يسعى لزور ونهب

اجد الخصب في حمى الله وعـدا ... صادقا ، ناجزا ، بشرق وغـرب
فهو اولى مني بنفسي ، يـداوي ... كل سقمي ، وهو العليم بخطبي
وعلاجي في ذكره بلسان ... مدمن السكر ، دائم الحمد ، رطب
انني بالتفويض لله أنجو ... من دنايا اي احتيال ونصب
لست الا فرعا من الاصل ازكو : ... هذه فطرتي ، وذلك دأبي
وجميع الاجناس ، من عجم ، حـ ... ـنت الى فضله الكثير ، وعرب
حسبنا ان في الخضوع الى اللـ ... ـه اعتزازا ، فنعم ذاك المربي !
من يوجه وجها الى الله اضحى ... عنه نور القبول بالحمد ينبي
اقرب الاقرباء للعبد مولا ... ه الذي خصه بفضل وقرب
ان غير الرحمان ، عجز وذل ... وافتضاح ، ومحنة دون ريب
وارى الشرك في دعاء سوى اللـ ... ـه ، وان الاشراك اخبث عيب
ويد الله فوق كل الايادي ! ... ولقد خاب اهل افك وكذب
فهو حصني ، وضامني ، وملاذي ، ... ورضاه ذخري ، واثمن كسب
وهو معبودي الوحيد الذي قد ... كان في توحيده كل حبي
لست أخشى سواه ، فهو امان ، ... وانيس أضناء فكري ولبي
وشفيعي خير الانام الذي فيـ ... ـه جمال السماح والجود يسبي
حسبنا الله ، فهو خير ولي ، ... فهو ينجي من كل وعر وصعب
ليس بين الاله والعبد حقا ... من حجاب ، ففيه كنز المحب
ليس ينجو الانسان الا اذا كا ... ن بريئا من كل كبر وعجب
من كساه الرحمان عفوا كريما ، ... فلقد خصه باطهر ثوب :
ان صك الغفران فيه ، ومنه ، ... واليه ، سبحان ذي المجد ، ربي !
والشقي المحروم من لم ينل منـ ... ـه سماحا ، فضاع في بؤس سلب
انا عبد للخالق الملك الحـ ... ـق ، ففيه للقلب انجع طب
وهو عين الجمال ، يا سعد من كا ... ن لديه اوفى عميد وصب !
ومصيري اليه في كل امر ، ... فهو نعم الوكيل .. والله حسبي !

الرباط : محمد بن محمد العلمي

(قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا، انه هو الغفور الرحيم) . صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله المصطفى الكريم

الضرائب المالية المفروضة على وسائل الإنتاج لصالح الطبقة المحتاجة

للأستاذ علال الهاشمي الخياري

أولا مفهوم الطبقة المحتاجة :

يهدف النظام المالي في الاسلام الى تحقيق العدل الاقتصادي والاجتماعي في مجال توزيع ثمار الانتاج ، ولذلك فقد نظر الاسلام الى ان المجتمع متكون من ثلاث فئات :

- فئة تملك وسيلة انتاج المالية ، وهي : الارض ورأس المال .
- فئة تملك وسيلة الانتاج المعنوية وهي العمل .
- فئة ثالثة لاتملك أية وسيلة للانتاج ، لا مادية، ولا معنوية ، وهي الطبقة الفقيرة المحتاجة التي اصيب أفرادها بمرض جسدى او عقلي او كانوا عاجزين عجزا ماديا عن المشاركة في الحياة الاجتماعية ، وولوج باب العمل والكسب .

وقد روى ابن حزم من طريق سعيد بن منصور ان عليا بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : « ان الله تعالى فرض على الاغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم فان جاعوا ، او عروا ، او جهدوا ، فبمنع الاغنياء ، وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه » (1) .

والاسلام في تشريعه الاقتصادي لم يهمل هذه الطبقة المحتاجة ، بل جعل لها نصيبا في توزيع الثروة الاجتماعية فرضه على الذين يملكون وسائل الانتاج ، وخصصه فقط لصالحها ، قصد النهوض بمستواها ، وتقديم ما تحتاجه من الخدمات الاجتماعية ، وبذلك يتفوق التشريع الاسلامي على التشريع الوضعي بشقيه : الراسمالي والشيوعي ، اذ المذهب الرأسمالي المبني على الحريات الديمقراطية لا يخص بتشريعاته الا الطبقة التي تملك وسائل انتاج ، وكذلك المذهب الشيوعي لايصب اهتماماته الا على الصراع الطبقي بين من يملكون وسيلة الانتاج المادية أو المعنوية ، قصد تأجيج نار الحقد والبغضاء بينهم ، أما الطبقة المحتاجة العاجزة فيسكت عنها كل من النظامين الرأسمالي والشيوعي على السواء .

وفي هذا الضوء يتجلى لنا سمو التشريع الاقتصادى الاسلامي الذى يقيم تعادلية اقتصادية واجتماعية بين من يملك وسيلة الانتاج المادية والمعنوية،وبين من لا يملك شيئا سوى حاجته واضطراره ورقة حاله ، ولذلك قال بعض الفقهاء المعاصرين : ان الحاجة تعتبر وسيلة من وسائل توزيع الثروة في الاسلام . (2)

وبهذا التقرير نكون قد وصلنا الى نتيجة ذات اهمية وهي أن الاسلام حين فرض ضرائب مالية على

---

1 ـ راجع المحلي لابن حزم : ج 6 ، ص : 156 ـ 158 ، وايضا ، العدالة الاجتماعية سيد قطب ، ص : 124

2 ـ الاستاذ محمد باقر الصدر في كتابه « اقتصادنا »

وسائل الانتاج : الارض ، وراس المال ، والعمـــل ، لم يكن ينظر في ذلك الى مصلحة الفئة المحتاجة فقط بل الى تحقيق المصلحة العامة ، قصد اقامة توازن اقتصادى ، وجعل المجتمع الاسلامي يعيش في تكافل اجتماعي ، وتعاون وتراحم بين أفراده ليكونوا كالبنيان المرصوص ، كالجسد الواحد ، حتى لا تشعر فئة بمن واستعلاء ، وتشعر فئة اخرى بمذلة ومسكنة وقهر ، لان من اعطى فقد استجاب لنداء ربه ، ومن اخذ فقد اخذ ماقسمه له ربه الذى لم يحرمه من خيرات وطنه وانتاج مجتمعه .

ثانيا : ـ نصيب الطبقة المحتاجة من توزيع الثروة :

والتشريع الاسلامي لم يترك قضية توزيع ثمار الانتاج كما مهملا،بل تناولها بالبيان والتفصيل والتحديد فقد فرض قدرا معلوما محددا على وسائل الانتاج اذا بلغ انتاجها النصاب ، وهذا النصاب يختلف باختلاف أصنافها وأنواعها .

ـ وهكذا فرض الاسلام قدرا معلوما سنويا او موسميا على انتاج الاراضي الزراعية والثروة الحيوانية أو المعدنية ، والركاز ، والعقارات التجارية أو السكنية ذات الدخل ، ويسمى هذا القدر المعلوم بالنسبة للمسلم (زكاة) وبالنسبة للمستوطن الذمي غير المسلم (جزية) ومثل الذمي في اداء هذه الضريبةالوظيفية مثل المستثمر الاجنبي الذى دخل بلادنا باذن ، واختار ان تستغرق اقامته عندنا أكثر من سنة ، وهي الفترة التي تمثل الحد الادنى لوجوب اداء هذه الضريبة الوظيفية (3) .

كما فرض أيضا هذا القدر المعلوم على انتاج رأس المال التجارى والصناعي ، اذا بلغ النصاب ، ويسمى هذا القدر المعلوم بالنسبـــة للمسلم (زكاة) وبالنسبة للذمـــي (عشر التجارات) اذا كان ينتقـل بتجارته من بلد الى بلد ، ولا يختلف الذمي عن المستثمر الاجنبي الا في شيء يسير ، ليس هنا محل بسطه .

ـ ويتعلق النظر الآن بالعمل ، لانه ينقسم فـي النظرة الاسلامية الى قسـمين :

عمل مأجور ، وعمل اقتصادى ، فالعمل المأجور الذى يمارسه العمال والموظفون في مقابل اجرة معلومة ، لاتفرض على انتاجه أية ضريبة مالية ، بخلاف العمل الاقتصادي الذي يمارسه المزارع والمقارض اللذانلا يملكان سوى عملهما المبذول في مقابل ربح منتظر ، يستحقانه بعد اجراء العملية الانتاجية ، وانتهـــاء الدورة الاقتصادية ضمن الشركات الزراعية والتجارية، فهذا النوع من العمل تفرض على انتاجه ضريبة مالية تختلـف باختـلاف مجال الانتاج ، ولايعفـى من هذه الضريبة على الانتاج اى عمل اقتصادى بدعوى ان مـا حصل عليه من ربح انما كان تغطية للنفقات اليومية ، قبل ان يحصل في آخر المطاف على هذا الربح المنتظر، لان المفروض في المساهم في الشركات بعمله فقط ، انه يبذل فائض العمل .

ثالثا مصرف هذه الضرائب بين الاستهلاك والاستثمار :

ولكن اين تصرف هذه الضرائب المالية المفروضة على وسائل الانتاج والتي تجتبيها الدولة من المنتجين المسلمين ، واهل الذمة والمستثمرين الاجانب علـى السواء ؟ انها تصرف لصالح الفئـة المحتاجـة مـن المسلميـن والذمييـن (4) جميعـــا ، كـالايتام ، والمواليد (5) ، والارامل ، والعجـزة ، والمرضـى ، وكل من كان به عجز جسدى او عقلي ، ومثل الانفـاق عليهم بناء المستشفيات والملاجىء الخاصة بهم ،

وتدل الاثار الواردة في شأن صرف هذه الاموال، اننا نبتدىء بأهل الحي والجيران اولا ، ثم سكان

---

3 ـ المبسوط للسرخي ج : 10 ص : 88 وما بعدها ، ورد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ج 3 ص : 249 والاموال لابي عبيـد ص : 336 ،

4 ـ والدليل على ذلك ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما راى شيخا ضريرا ، يبدو عليه انه ذمـــي ، فسأله : من اى اهل الكتاب انت ؟ فقال يهودى ، فأعطاه عمر لما عنده ، وارسل الى خازن المال ، وقال له : انظر هذا وضرب الا (امثاله) فوالله مـا انصفنا الرجل ان اكلنا شبيبته ثم نخذ له عند الهرم (انما الصدقات للفقراء والمساكين) وهذا من المساكين انظر الخراج لابن يوسف ص : 126 ،

5 ـ وقد فرض عمر بن الخطاب رضي الله لكل مولود في الاسلام من بيت المال ، على غرار ما نفعله اليـوم مع الموظفيـن فقـط ،

المدينة والقرية ، ولا تنتقل من مدينة الى مدينة او قطر الى قطر ، الا باجتهاد من ولي الامر ، او عندما يستغني أهل الحي ، او تكون هناك حالة طارئة او نزول كارثة ، حينئذ تصبح البداية بالناحية المتضررة أدعى الى التضامن الاجتماعي .

واذا كانت هذه الضرائب المالية مخصصة بحكم القرآن لصالح الفئة المحتاجة ، فينبغي ان نخرج عن هذا التوجيه الشرعي ، بحيث لايجوز لنا صرفها في تغطية النفقات العامة ، او في تجهيز المشاريع الانمائية ذات المصلحة العمومية ، كبناء القناطر وتعبيد الطرق ، اذ أن هناك أموالا اخرى مخصصة لمثل هذه المشاريع، كاموال الخراج ، والضرائب التي من حق القطاع العام ان يفرضها على فروع الاقتصاد وانواع الاستغلالات ، بالاضافة الى استثمار واستغلال املاك الدولة ، وما يحكم الاسلام بملكيته الجماعية كاراضي الخراج ، والثروات الطبيعية من معادن ومناجم ، وغابات وشواطيء وغير ذلك .

ويوحي تحليلنا السابق ان الضرائب المالية المفروضة على وسائل الانتاج كالزكوات ، وعشر التجارات ، والضريبة الوظيفية ، وان كانت كلها مخصصة لصالح الفئة المحتاجة ، حسب توجيه النظام المالي في الاسلام ، الا أنه يجوز لنا مع ذلك أن نخصص جزءا منها ، وندفعه الى من يستثمره ، كصندوق الايداع والتدبير ، أو بعض المستثمرين الاكفاء الذين تعوزهم رؤوس الاموال لسبب من الاسباب ، بشرط أن يصرف ما ينتج من أرباح لصالح الفئة المحتاجة وحدها ، وهذا يبعدنا من فهم ان هذه الاموال انما هي مخصصة للاستهلاك فقط ، اذ يجوز لنا أيضا القيام بانجاز مشاريع انمائية خاصة بالاحياء الفقيرة كفتح طريق، او تشييد مستشفى وتجهيزه بالآلات والادوية، او بناء مدرسة او مركز لصالح الفئة المحتاجة .

رابعا : التطبيق العملي بين الامس واليوم :

وعبر العالم الاسلامي ، فقد استطاعت هذه الضرائب المالية ، بمساعدة الاوقاف الخيرية ، أن تقوم بمهمة تمويل مشاريع التكافل الاجتماعي، وارضاء الحاجات الضرورية والتقديرية للمستضعفين الذين تقطعت بهم الاسباب ، ولايجدون وسيلة للكسب ولايهتدون سبيلا ، ولم يشعر المسلمون بالحاجة الى ابتكار طرق ملتوية كاليانصيب مثلا ، قصد سد الثغرات في هذا المجال .

خامسا : نموذج من المغرب :

هذه صورة من صور النظام المالي في الاسلام ، حاولت ان أرسم ملامحها الاولية ، ومظاهرها البارزة ، دون الدخول في تفصيل مسائلها ، واستعراض جزئياتها، وعسى ان يهدي الله الامة الاسلامية ، فتعود الى العمل بمقتضى هذا النظام المالي الاسلامي الذي كان معمولا به في المغرب الى حدود السنوات الاولى من هذا القرن، ولعل ما يثلج الصدر في هذا الصدد أن أجهزة وسائل الاعلام كانت تردد خلال السنة المنصرمة انه بأمر من صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله ، وبارشاد منه ، قد نظمت مباراة علمية ، ذات جوائز مهمة ، في موضوع موارد الزكاة ومصارفها ، ثم قرانا بعد ذلك ان من بين القضايا التي ستعرض على انظار المجلس الاعلى للمجالس العلمية الاقليمية قضية الزكاة وتنظيمها، وكل ذلك علامات على الطريق ، وعودة الى التفكير في احياء العمل بهذا النظام المالي الاسلامي في ضوء الصحوة الاسلامية وما ستحققه من انجازات في مستقبل الايام بمشيئة الله وحسن عونه ، انه ولي التوفيق .

العقل السليم في الجسم السليم

من منظور اسلامي

للأستاذ عبد العزيز بغداد

سنتناول هذا الموضوع – ان شاء الله – من منظور اسلامي ، وسنحاول ان نطل على بعض المفاهيم الاسلامية تجاه الانسان جسما وعقـلا .

واول شيء يتبدي امامنا بالنسبة لهذا الموضوع هو أن الاسلام قد حرر حقيقة الانسان منذ أول الامر ، واعتبره كيانا متكاملا ، فهو روح وعقل ، جسم ونفس .

فمن خلال هذه الطبيعة نظر الاسلام للانسان ، ولمتكن نظرته احادية الجانب ، ويظهر ذلك في انه أقر له برغباته المادية كلها وأباحها له دون ان يحرمها وان كان قد وضع لها اطارا تتحرك فيه وضوابط تنظمها وتحميها من الانهيار والفناء .

ومن هنا طرحت كثير من المبادىء التي اشاد فيها الاسلام بالاهتام بالجسم والعقل معا باعتبار ان ثمة ارتباطا وثيقا بين الاثنيـن وان سلامـة العقل في سلامة الجسم ، والعكس صحيـح .

وحينا نطل على بعض النصوص الاسلامية في هذا المضمار نجدها طافحة بالتوصيات الخالدة التي تلح على الاعتناء بالجسم ، لان الاسلام يعتبر أن صحـة الاجسام وجمالها ونظرتها من الامور التي اعطاهـا الاسلام عناية فائقة واهتماما بالغا ، بل واعتبرها من صميم رسالتـه .

فالاسلام يكره أن يكون احد معتنقيـه قذرا او ملوثا ، لان المسلم لن يكون مهيبا ومحترما الجانب الا اذا تعمد جسمه بالتنظيف والتهذيب وكان في مطعمه ومشربه وهيئته الخاصة بعيدا عن الادران ، وذلـك كله من اجل تزكيـة النفس وصفـاء الذهـن ، وتمكين الانسان من النهوض بالاعباء الجسيمة التي خلق الانسان ليكون وراء تحقيق اهدافها ، والذى يفسر هذا ويبرزه ان الاسلام في كل زمان في اشد الحاجة الى مسلمين اقوياء الاجسام والعقول يعيشون دنياهم في اتم العافية وسلامة العقل .

ومن مظاهر الاعتناء بالجسم « الوضوء والغسل » ففي سورة المائدة نقـرأ :

« يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحـوا برؤوسكـم وارجلكم الى الكعبين وأن كنتم جنبا فاطهروا » .

ويتضح امامنا مدى الاهتمام بالنظافة الجسميـة باعتبارها سببا في صحة الجسم ، انه حتى اذا لم تكن هناك دواع للوضوء والغسل ، فقد جند الاسلام الغسل والتنظيف مرة في الاسبوع وذلك من اجل التشبـع بالنظافة واتخاذها شعارا ضد الارتخاء وضد الادران ، ففي الحديث الشريف ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : في حق يـوم الجمعـة :

« ان هذا يوم عيد جعله الله للمسلمين ، فمن جاء الجمعة فليغتسل » .

وقد حرص الاسلام على النظافة وأمر ان يتخلص الانسان من فضلات الطعام وبقاياه وروائحه وآثار وذلك حفاظا على سلامة الجسم .

ففي سنن الامام احمد نقرا هذا الحديث :

« انه ليس شيء اشد على الملكين من ان يريا بين أسنان صاحبهما طعاما وهو قائم يصلي » .

ولعلنا نعترف ان هذه توجيهات اشد وابلغ من توجيهات الطب الحديث ، انها توجيهات تمثل مفهوم الوقاية اشد تمثيل ، يشرح ذلك قوله عليه السلام :

« من بات وفي يده ريح من غمر ، فأصابه شيء ، فلا يلومن الا نفسه » والغمر معناه هو زهومة اللحم .

وقد اثبتت البحوث الطبية القديمة والحديثة ان الجراثيم تجد مرتعها الخصب في الايدى والافواه القذرة .

وللجمع بين زينة المظهر والاعتناء بصحة الجسم بواسطة الاكل الجيد والنظيف نقرا في سورة الاعراف هذا النداء الخالد .

« يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لايحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق »

ان هذا النداء الكريم جاء ليحرم على العرب الطواف بالبيت عراة ، لان كمال الهيئة البشرية هي اللباس المناسب والمرتب ، ثم ان العرب كانوا يكتفون باليسير من الطعام الذي لاتقوم به البنية ، لذلك قرن الزينة بالاكل الملائم للاعباء والمجهود الذي يقوم به الانسان ، والعبادة تعتبر جهدا جسميا بالاضافة الى أنها شفافية وتجليات روحية .

ولم يكتف السياق القرآني الكريم في هذا النداء بالدعوة الى اتخاذ الزينة عند كل مسجد والاستمتاع بالطيبات من الطعام والشراب ، بل انه يستنكر تحريم هذه الزينة التي اخرجها الله لعباده .

ومن هنا فقد جاءت السنة تعلم الناس الالتزام بهذه الامور حتى يظهر المسلم في سمته وملبسه وهيئته جميلا مقبولا مهيبا ترتاح له العين وتحبه النفس .

وللتدليل على هذه العناية بالمحافظة على الجانب المادي في الانسان ، ان المسلمين كانوا اذا دخلوا بلادا فاتحين لم يكونوا يهتمون فقط بانشاء المساجد والمراكز الروحية ، وانما كانوا ايضا يهتمون بانشاء البساتين والاعتناء بشؤون الزراعة وبتربية المواشي وكل ما من شأنه المساهمة في مد الانسان بما تصح بها الابدان .

وقد بالغوا في ذلك حتى قال احد عظماء الاسلام وهو الامام الغزالي :

« صلاح الابدان مقدم على صلاح الاديان » .

ولم تقف عناية الاسلام بالنسبة للاهتمام بالاجسام عند النظافة والماكولات والمشروبات ، وانما تنبه لشيء آخر قبل ان يعرفه الطب الحديث، ذلك هو مفهوم الحمية وتجنيب ادوات الاكل القذرة والحاملة للمكروبات .

ففي الحديث : « نحن قوم لاناكل حتى نجوع » أليس في هذا التوجيه النبوي معنى الحمية ؟

وحديث : « اذا ولغ الكلب في اناء احدكم فليغسله سبعا » .

أليس هو الاخر أمرا بتجنب خطر الجراثيم ، ولقد ثبت في البحوث الطبية الحديثة أن مكروب الكلاب اذا ولغت في اناء ما لايزول الا بالغسل المتكرر ، وبذلك ثبتت لديهم صحة التوجيه النبوي .

ويمكن القول بان عناية الاسلام بالصحة الجسمية تعتبر جزءا من عنايته بقوة المسلمين المادية والادبية، فهو يطلب اجساما تجرى في عروقها دماء العافية ويمتلىء أصحابها فتوة ونشاطا ، ذلك ان الاجسام المهزولة ، ليس من شأنها أن تطيق عبئا ، وان الايدى المرتعشة لايمكنها ان تقدم خيرا ، والمظهر البئيس غير قادر على جلب الاحترام .

ومعنى هذا ان الفهم الصحيح للاسلام يرفض ما ذهب اليه بعض محترفي التدين الذين يحسبون فوضى

الملبس واتساخه ضربا من العبادة ، وربما تعمـدوا ارتداء المرقعات والتزيـن بالثياب المهملـة ليظهروا زهدهم في الدنيا وحبهم للاخـرة .

ان هؤلاء يجيبهم الحديث النبوي الشريف :

« خيركـم مـن لم تشغله دنيـاه عن آخرتـه ، ولا آخرته عن دنياه » وفي سنة أبي داود نقرا قولـه عليه السلام : « من كان له شعر فليكرمـه » .

وعن ابي قتادة يقول : يارسول الله ، ان لـي جملة ، افارجلها ؟ فقال له الرسول : « نعم واكرمها » .

ثم ان الاسلام لم يحبس النظافـة والتجميـل في الاشخاص والاجسام ، بل لقد اراد ان يكون ذلـك شاملا ، في البيوت والطرقات ومختلف الامكنة التـي يتحرك فيها المسلمون ويعيشون على ارضها وتحـت سمائها وذلـك حتـى لاتكون مباءة للحشرات ومصدرا للعلل .

ان المراد من ذلك كله هو خلق مجتمع قوي ، افراده متمتعون باجسام سليمة لان رسالة الاسلام اوسـع في امدائها واصلب في كيانها من ان تحيا في امة مرهقة وموبوءة عاجزة ، لذلك جاء الالحاح على محاربة الامراض ووضع العوائق أمام الجراثيم حتى لاتنتشر فينتشر معها الضعف والتراخي ثم التشاؤم .

وقد توقع الاسلام انه لابد ان تتسلل بعـض الامراض في حياة المجتمع فاوصى بعدم الاستسلام لهذه الامراض ، بل رغب في مقاومتها وحماية الجسـم منها والتماس الدواء النافع يشرح ذلك قوله عليـه السلام : « ما أنزل الله من داء الا انزل له دواء » . صحيـح الامام البخاري

وقال الرسول ايضا : « ان الله انزل الـداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ولا تداووا بحـرام » .

وقد كانت هذه التوجيهـات النبويـة بخصوص الممارسة الطبية حافزا لعدد من المسلمين في تعاطـي الطب منذ وقت مبكر ليخذموا الانسانية ويساهموا في شفاء الاجسام من الامراض ، وبذلك تخرج في صفـوف المسلمين وضمن موكب الحضارة الاسلامية ، عدد من الاطباء الذين ظلت نظرياتهم حتى عصر متأخر مـوردا مهما بالنسبة للغربيين في مجال النظريات الطبية : الرازي ابن سيناء ـ ابن رشد ـ ابن طفيل الخ ..

ولم يهتم الاسلام بتشجيع النظريات الطبيـة وممارستها فقط ، وانما قطع الطريق على الخرافات والاباطيل والالتجاء الى التداوي بما لا يتفق والمنهج العلمي . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من علق تميمة فلا أتم الله له ، ومن علـق ودعة فلا أودع الله له » ويروي أن ركبا من عشرة ، وفد على رسول الله عليه السلام ، يبايعه ، فبايـع رسول الله تسعة وامسك عن رجل منهم ، فقالوا : ما شأنه ؟ فقال ان في عضده تميمة فقطع الرجـل التميمة ، فبايعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « من علق فقد اشرك »

ثم أن من مظاهر الاعتناء بالصحة في الاسـلام وجود ما يسمى « الحجر الصحي » الذي عرف في ديار الاسلام منذ وقت مبكر : فقد كان اذا ظهر مرض معد في بلد ما ضرب حول هذا البلد حصار شديد ، فمنـع دخوله والخروج منه ، والقصـد من ذلك ان تنكمش رقعة المرض في اضيق نطاق ، ففي صحيح الامـام البخاري نقرأ هذا الحديث .

« اذا سمعتم بالطاعـون ظهـر في أرض ، فـلا تدخلوها ، واذا وقع بارض وانتم بها ، فلا تخرجوا منهـا » .

هناك بعض المغامرين الذين لم يفهموا الفكـر الاسلامي والحقيقة الاسلامية الفهـم الحقيقـي ، ان هؤلاء المغامرين يقولون : ان الخوف من العدوي ضعف في اليقين او هروب من القضاء المحتوم ، وهذا خطأ وسوء في الفهم ، والراي الصواب في هذه المسالـة نقوله على لسان امير المومنين عمر بن الخطاب ، ذلـك أنه رفض السفر الى الشام لما ظهر فيها من الطاعون ، فقيل له : تفر من قدر الله ؟

فقال : « نفر من قدر الله الى قدر الله » .

ومعنى هذا ان الاخذ بالاسباب من قدر الله . وان الحقيقة الاسلامية مبنيـة علـى ربـط الاسباب بالمسببـــات .

والذي يصحح هذا ما جاء في الاثر : فر من المجذوم فرارك من الاسد .

كل هذه العناية بالصحة الجسميـة والاهتمام بالنظافة على جميع المستويات هي من أجل العناية بالانسان بشكل شمولي باعتبار جسم وعقل .

فالعقل بالنسبة للانسان يعـد جوهـرة غالية ، وميزة فريدة خص بها الانسـان دون سائر المخلوقات، ومن ثم أريد لهذه الميزة الفريدة ان تنطلق في عملاقيتها وجبروتها،فبفضل العقل شـهد العالم حضارات متعاقبة عمل فيها العقل كثيرا وأنتج من الروائع وقدم مــن المبادرات ما كان على مر الدهور آيات باهرات علـى هذه القدرة الخارقة التي منحها الانسان من قبل الله جل شأنــه .

فمن الغبن والخسارة ان تضيع هذه القدرة وتعطل ويساء اليها بسبب اهمال الجسم او التشويش على العقل وحجب نوره بشيء مما يرفضه الدين وتمنعــه الحقيقة الاسلامية من مثل المخدرات والسكر وغير ذلــك .

ومن ثم فان الدين الاسلامي يدعـو في نصـوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية يدعو العقـل الى التفتح والنمو والتحرك حتى يبتعد عن الخرافات ويتشبث بالمنطق ويتمكن من النظر في هذا الكـون ويتمتع بنور الله وهدايتــه .

لقد اثبتت الابحاث الجديدة أن العقل الانساني ما زال لا يستغل الاستغلال الحقيقي حتى أن كثيرا من الجهود والمدخرات ما برحت كامنة في العقل ، وعندما يستثمر كل ذلك فستكون البشرية بخير خاصة اذا وقفت الاخلاق الى جانب المبدعات العقلية .

ومن دلائل قيمة العقل وحضوره في كل الامور ، انه ليس على المسلم بموجب الاصل الاسلامي ان يتناول اويعتنق عقيدة بدون ان يحكم عقله فيها ويدلل عليها حتى ساغ لاصحاب الاصول من المسلمين ان يرفضوا ايمان المقلد لان العقل من صفاته التمييز بين الحق والباطـل .

وقضية التكليف في جميع الفروع الشرعية تثبت بالعقل ، فاذا تعطل فلا تكليف وكلنا نسمع ان الدين الاسلامي دين الفطرة ، الدين الذي يوافق طبيعـــة العقل كما اوجده الله تعالى في الانسان .

ففي القرآن الكريم نقرأ :

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكـن اكثر النـــاس لا يعلمون » .

وقد ذهب بعض المفسرين الى ان الفطرة المرادة في هذه الاية الكريمة هي الحالة التي خلق الله تعالى عليها عقل النوع البشري سالما من الاختلاط بالعادات الفاسدة والاوهام والاباطيل .

ويؤيد هذه الفكرة ويشهد لها ويزيدها توضيحا وتفسيرا قوله تعالى :

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات » .

ويجب ان نفهم ان التقويم المراد منه هو تقويم العقل باعتباره مصدر العقائد والاعمال الصالحة .

واذا كان العقل بهذه المثابة أي انه نام وفاعل ، فانه يحتاج الى غذاء وتدريب وعناية ، فبواسطته ندرك معنى الخير والشر ، وبه نعرف دور الدين في تقرير المعاني المثالية ، لذلك فان العقل في حاجة الى نور خارجي حتى تظهر الامور على حقيقتها ومن ثـم كانت رسالة الانبياء والرسل غاية في الاهمية والعظمة ، وتبعتها رسالة المعلمين والمربين عمومـا .

ونظرا لاهمية العقل فقد تصارعت حوله كثير من الفلسفات كما هو الشان عند العقلانيين في مواجهة خصومهم التجريبيين ، ولسنا نريد ان نخوض في هذه المعارك الفلسفية فقد يطول الحديث لو أردنا ذلك وسوف نخرج عما قصدنا اليــه .

لكن الشيء الذي نحب التلميح اليه هو ان الاسلام الح على تزويد العقل بالمعارف والتجارب لان خلـــوه من ذلك يجعله ينظر الى الامور نظرة ساذجة .

ومن ثم فقد اهتمت النصوص القرآنية والحديثية بالعقل ولم تذكره الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ، ونجد في القرآن الكريم اشارات الى العقل بوظائفه المختلفة التي تدل عليه من قريب او من بعيد وذلك مثل : التفكر ـ الذكـر الراي ـ التدبر ـ اولو الالباب ،، .

ولقد وردت مادة العقل بصيغة المضارع في خمسين آية من القرآن ، وورود هذه الالفاظ في القرآن الكريـم لها صلة وثيقة جدا بالعقل والتفكير ، وهي في مجموعها تقيم الدليل على ان الشريعة الاسلامية استطاعت ان تؤاخي بين الدين والعقل وان تجعل من هـذه الفطرة فطرة مستقيمة .

وقد شرحت السنة النبوية هذا الموقف اذ وردت أحاديث كثيرة عن الرسول عليه السلام جمعها الامـام الغزالي في كتابه « الاحياء » في باب « شرح العقل » نذكر منها قوله صلى الله عليه وسلم :

فعن ابي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله عليه السلام : « لكل شيء دعامـــة ودعامـــة المؤمـــن عقلـــه ، فبقدر عقلـــه تكـــون عبادته ، اما سمعتم قول الفجار في النار : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعيـر » .

بهذا الاعتبار انطلق المسلمون في فجر الاسلام يبنون حضارتهم اعتمادا على المنطق والتفكير السديد والتخطيط المبني على دراسات يسندهـا العقـل ، ولامر ما يقول الله تعالى في سورة ابراهيـم :

« هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا انما هو اله واحد ، وليذكر اولو الالبـاب » .

ومعنى هذا ان الحياة في الاسلام يجب ان تقوم على التعقل ، فليس هناك شيء بالصدفة او الشعوذة ، والايهام ، فالصلاة مثلا ، وهي العبادة الاولى في الاسلام ـ نري ان اداءها والاذان لها ، كل ذلك عمـل عقلي بحـت .

فالدعوة الى الصلاة كلمات جميلة تخاطب العقـل وتقوم السمع وتوقظ القلب فهي : تكبير الله وشهادة بتوحيده وحث على الفلاح ، في حين ان الامر في بعض الديانات الاخري ليست الدعوة الى ذلك الا جرسـا يرسل رنينه في الفضاء ويخاطب المشاعر المبهمة ، وفى قلب الصلاة الاسلامية نجد انها آيـــات تتلى من كتاب جامع لعزائم الخير ودلائل الرشد ، وقبولهـا مقرون بصحو الفكر في اقامتها وتدبر العقل لمعانيها .

ومن هنا احب الاسلام أن يستغل العقل الى اقصى حد في شتى المعارف وفي البحث المتواصل في خبايا الارض وآفاق السماء الى جانب البحث في العلـــوم الشرعية وتطويع فروعها لمواكبة الحياة مع المحافظة على الجوهـر .

ولنتامل جميعا هذا المشهد البياني للتدليل على قيمة العلوم الدنيوية وما يجب صرفه فيها من جهود عقلية ، فحينما نوه الله تعالى بفضل العلم وجلال العلماء ، فانما عنى العلم الذي ينشا مـن النظر في النبات وشؤون الطبيعة الاخري من الحيوان والانسان ومختلف المظـاهـر .

فلنسمع الى هذه الايات من سورة فاطر :

قال تعـالـــى :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلمـــاء » .

ونستفيد من هذا النص القرآنـي الكـريم ان علوم الحياة مساوية لعلوم الاخرة في خدمة الديـــن وتجلية حقائقه ، وان ذلك كله يرتكز على العقل ، ومن ثم وجب ان ينمى بالتفكير الصحيـح ويصقل بالتوجيه السليم من أجل ان تكون له قوة التمييز بين الحق والباطل ، ومن هنا فرضت على المسلمين حماية العقل من كل ما يدخل عليه خللا في سيره أو اضطرابا في علمه ، ولعل هذا هو السبب في تحريم المخدرات بجميع انواعها وأشكالها تناولا وتعاملا ، لان ذلك كله يحجب العقل ويخفي اتزانه وسيطرتـــه على الموضوعيـــة والمنطق ، وهذا من اجل التفتح على الافاق وحـب الابتكار والتجـديـد .

وهنا نقف معجبين بمصداقية التشريع الاسلامي، لانه اذا كان يدفع المسلمين الى الاستمتاع بالعقل والاستفادة في تطوير الحياة وتقدمها فهل يسوغ لخصومه ان يرموه بانه دين جامد ؟

وليس ثمة شك في ان الاسلام يستطيع ان يساير التطور البشري ، وانه لايعرقل سير هذا التطور كما يدعي الخصوم .

ولعل أفسح ميدان يمكن ان يبرز فيه العقل هو ميدان الاجتهاد ، ذلك أن التطور في الاسلام ليس معناه هو تغيير الدين أو التحول عن مبادئه وأهدافه والتبعية بجميع التيارات الفكرية والمادية فهذا لايسمى تطورا أو تجديدا ، بل انه الهدم والتفكك والذوبان .

ولحكمة ما سكتت النصوص الاسلامية عن بعض الاشياء ، وهذا وحده كاف ليكون مبررا للاجتهاد ، ومعناه ان المجال مفتوح فيما لانص فيه ويمكن تفسير ذلك بأن الوقائع والحوادث لا تنحصر ولا حد لها . في حين ان الادلة التي وردت في الكتاب والسنة او نص عليها العلماء منحصرة ؛ لكن تقرير حكم الله فيما سيحدث من المسائل لايمكن ان يبث فيه الا اولو العلم من المسلمين الذين يعملون من أجل ان تكون شريعة الله ، حاكمة وموجهة وهادية .

ومجال الاجتهاد يحتاج بدون شك الى استخدام قوة العقل التي تعتبر من الميزات التي خص بها الله تعالى الانسان .

وحينما نقلب القضية نجد ان المسلمين ، اليوم أن لايعطلوا هذه الميزة فينفقوها في تطويع فروع الشريعة الى ما يصلح حال المسلمين وييسر بهم خطوات الى الامام ، فلقد سهلت أساليب الاجتهاد ووجدت أسباب عديدة للتغلب على بعض الصعاب التي كانت تعترض الاسلاف : فقد ضبطت قواعد اللغة ، وتم تدوين الحديث وشرحت كثير من نصوصه ، وفسر القرآن الكريم وبذلت جهود جبارة في فهمه ، ونشرت الكتب بكثرة أمام الناس . فأصبح فقيه اليوم أقدر على الاجتهاد والاستنباط من سابقيه .

ثم ان ظروف الاجتهاد الجماعي اصبحت ميسرة وغدت ضرورية يساعد في ذلك وجود الاختصاص الذي ينفذ نحو أعماق الجزئيات ، ومن هنا وبهذه الاعتبارات يمكن القول بان العقل قد قطع شوطا لابأس به في حل بعض المشاكل والقضايا الحياتية أو على الاقل اخذ ينبشها ويفتح حولها اكثر من قوس وذلك من مثل قضية التامين ــ توحيد رؤية الهلال وغير ذلك من المسائل التي أضحت اكثر الحاحا على المسلمين .

وخلاصة الحديث ان أعظم شيء وأكبر أمل تهدف الحقيقة الاسلامية الى منحه للانسان هو سكينة النفس وطمأنينة القلب ، وذلك بالايمان مصداقا لقوله تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

ومن هنا ، ومن خلال هذا العرض السريع للانسان جسما وعقلا ، نلاحظ أن الاسلام أعطى الانسان عطاء مناسبا لوجوده كمخلوق ، فلم يرفعه عن مستواه الى التقديس والعبادة ، ولم يخفضه عن مكانته الى وصفه بالحيوانية ، أو الخضوع في تصرفاته لمطالب العيش فقط ، بل لقد اعترف بأشواقه الروحية والنفسية والفكرية ، وجعل جانبه المادي والروحي متكاملين ومتوازنين .

ويجب أن نثق أن الاسلام حينما يقرر هذا كله، فانما يفتح أمام الانسان أفاقا واسعة كي يكون مطمئن القلب ساكن النفس ، ولن يتأتى ذلك الا بالايمان بالله ، اذ الايمان يعد قوة دافعة تعطي الامل ، وتحول دون تسرب اليأس الى الانسان وتبعث الثقة المتجددة وتحرص على المعاودة والمحاولة في حال الاخفاق ويجب أن نثق كذلك أن الايمان ليس مضادا للمعرفة ، بل هو ظهيرها وسندها فقد دعا الاسلام الى التفكير والتعمق والبحث ، مصداقا لقوله عز من قائل :

« قل انما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

والاكثر من هذا ان الاسلام يعتبر ان الغفلة ذنب وان عدم التفكير معصية وان البلادة الذهنية تخلف العقوبة .

لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم ان الاسلام يعلن في كثير من نصوصه أنه لاصراع بين الجسم والعقل وبذلك فقد حرر الانسان من الاخطار المترتبة عن هذا الفصل بين الجسم والروح فاسقط مفهوم العزلة والزهد في متاع الحياة ، كما اسقط مفهوم الاسراف والاباحية ، بل لقد كرم الجسم والعقل ودعا الى الاهتمام بهما طهارة ونظافة وزينة من غير اسراف .

عبد العزيز بغداد



(ت : 1175م - 570 هـ)

عرض وتقديم
الأستاذ محمد عبد الفتاح الابراهيمي

مقدمة :

اظهرت التحقيقات الاخيرة ، والابحاث المتواصلة ان ما تركه العرب والمسلمون من الكتب الفذة في مختلف العلوم والفنون وخاصة منهم العالم المغربي الكبير الذي يدعى بالسموال ، فقد كشف العلماء النقاب عن مخطوطاته في الجبر والهندسة والطب ، والتحليل والتركيب ... اثبتوا انه على اطلاع واسع وخبرة دقيقة وطول باع ... وقد سبق الى اشياء كثيرة ظلت مع الاسف تنسب لغيره من المترجمين الاجانب ... حتى ظهرت كتبه التي القت الضوء على اعماله العظيمة وآثاره الخالدة والتي سنذكرها فيما يلي :

ويحسن بنا أن نبتدىء بكتابه (الباهر في الجبر) ... والذي قام بتحقيقه الاستاذان الجليلان : رشدي راشد ، وصلاح أحمد سنة 1972 م اعتمادا منهما على مخطوطتان مودعتان فى مكتبة (عزت افندي) باستامبول ... وعلى نسخة اخرى مخطوطة ومحفوظة في مكتبة (أيا صفيا) بتاريخ 525 ، ولها صورة مودعة في معهد الوثائق والمخطوطات بالقاهرة اطلعت عليها سنة 53 عند زيارتي للدكتور ناصر الاسد مدير الثقافة بجامعة الدول العربية .

وتصل صفحات الكتاب الحالي المحقق 264 صفحة غير الملحق بالفرنسية 84 صفحة .

ولقد نوه بهذا العمل الجليل كثير من العلماء سواء منهم الاجانب او غيرهم ... كما اثنوا على من قام به او ساعد عن قريب او بعيد ، مقدرين المتاعب والصعبات التي مروا بها . هذا ولا يزال التراث العربي او الاسلامي في حاجة الى الكشف والتنقيب عما هو مغمور او مقبور في الرفوف او المكتبات المتناثرة في الشرق والغرب ... وبالرغم من الجهود المضنية والمتواصلة لم ينشر الا القليل .

س : من هو السموال ؟ :

ج : هو ابو البقاء بين يحيى بن العباس من اسرة عربية كانت تدين باليهودية ، تسكن فاس ، ربما نزحت اليه من وادي (ضرعى) بجنوب المغرب ، ووالده يدعى (يهودا) وجده (الراب) بن (ابون) والراب هو الحبر : العالم . بيته بيت علم ومعرفة .. وكان السموال مبرزا من بين علماء عصره يحفظ التوراة منذ نعومة اظفاره ... يقول عن نفسه : (علمني والدي التوراة والكتابة بالعبرية ثم الحساب وبعض مبادىء العلوم ولا زال بي حتى تكشفت لي الطرق واوضحت لي المسالك فصرت ابحث بنفسي عن الاساتذة المتضلعين في العلوم وآخذ منهم اينما كانوا ولو كلفني ذلك سفرا بعيدا!) .

دراســـــه :

اغترف من المغرب والمشرق واخذ العــلاج (ابي الفتح) الطبيب البصري .. والفيلسوف ابي البركات هبة الله بن علي ، كمــا اخــذ الحساب والتحليلات الاعدادية على (ابي الحسن الدسكري) وغيرهم من ائمة العلوم والرياضيــات فتفــوق على اقرانه ، وكان كثير الاسفار كما ذكر هو بنفسه وذكر في كتب اخرى انه كان كثير التنقل بين فاس ومصر وسوريا والعراق وكردستان وادربيجــان يشتغــل بالطب ، وانه اطلع عن كثب على اعمال اليهود في كل مكان وعرف حيلهم ومكرهم مما جعلــه يعرف عــن ديانتهم ويطلع على عقائد اخرى مختلفة ويجري مقارنة بينهما ، ولما تبين له ان الاسلام هو الدين الحــق اعتنقه عن طواعية ورضى مقدرا فضائله وتسامحه ، ويقول ابن القفطي : (ان السمؤل خــديــم بيــت (البهلوان) وامراء دولتهم ، واقام بمدينة المراغة ثم ارتحل الى بلاد الموصل وديار بكر واسلــم وحسن اسلامه وصنف كتابا جمة الفائدة في اظهــار مخازي اليهود وحيلهم ومكرهم ... وكــذب دعاويهــم في التوراة ، وبين مواضع الضعف واماكن تبديلهــا ، واحكم ما جمعه في ذلك ، ومات في مدينة المراغــة حوالي (1175 م — 570 هـ) .

أعمـــالـــــــه :

بجانب اشتغاله بالطب طــور علم الرياضيات ، واستخدم الاشكال الهندسية لاستخــراج جــذور المعادلات ... وتطبيق العمليــات الحسابيـــة على الجبر وتوسيع مفهوم العدد .. وقام بعدة عمليــات تجريبية ناجحة ...

ويقول السموال عن نفســه : (قمت اولا بتحليل اغلب الكتب الرياضية والهندسيـــة ، وشرحــت واصلحت ما جاء في كتاب (اقليدس) من اغــلاط وتحريفات كما غيرت وحذفت ما يستغنى عنه مــن اشكال وما كان حشوا الى ان طوعته للقارىء والباحث ثم شرعت بعد ذلك في التاليف ...)

وهذا واضرابه مما يدل دلالة قاطعــة على ان المسلمين او العرب لم ينقلوا نقلا اعمى او يترجموا عن اليونانيين فقط ، بل صححوا وحققوا واضافــوا ثم ابتكروا ... بخلاف ما هو مشاع عنهم عند اولئك المنكرون او المجحفون من الغرب ، ولا ننكر ان هناك منصفون للعرب والمسلمين ولكنهم قلــة بالنسبــة للمنكرين منهم لفضل العرب على الحضارة الغربية ..

وقد بذلت جهود مشكورة من قبــل بعــض المستشرقين في اماطة الغبار عن ذلــك التــراث الانساني علما بان اصول الرياضيات العربية لا يمكن ادراك حقيقتها ومدى اهميتها الا بالاطلاع على تلــك النصوص التي تركوها وخاصة كتــاب الباهــر في الجبر للسموال المغربي الفاسي الدار والنشاة الاولى ويجزم العلماء الرياضيون ان هذا الكتاب فريــد من نوعه انتهج فيه صاحبه منهجا نقديا وعنى بنظريـــة البرهان ، وارساء البراهين السابقة بشكل دقيــق متوخيا الغموض والاطناب ...

وقد قسم الكتاب الى اربعة اجــزاء او مقالات مطولـــة :

1) في المقدمات والضــرب والقسمــة واستخراج الجذور .

2 في استخراج المجهولات ... الخ .

3) في استخراج المقادير الصم ...

4) في تقاسيــم المسائــل .

ثم بدا بالترتيب والتفصيل والتحليل واعطاء النماذج والامثلــة .

ومراعاة للامانة العلمية ذكر بعض من اخذ عنهم والكتب او المصادر التي اعتمدها والاشياء التــي ابتكرها ، ولم يخلط كلامه باقوال من تقدموه دفعــا للالتباس وبعد عن الشوائب والتمويهات ، كما لاحظ على العالم (فيثاغورس) الذي زعم ان ما اتى بــه وحــي منــزل .

وبدا بالمعادلات ذات المجهول ثم المتعددة ذات الدرجات والجذر الاصم مثل جــذر 3 ، اي (ا 3 والدرجة ذات المجهوليــن ا س + ب ص = حـ ،

وكذلك معادلة الدرجة الثالثة ذات المجهول الواحد ا س2 + ب = حـ الخ) .

ويؤخذ عليه انه لم يعالج بالتفصيل جل جميع المعادلات الجبرية ولكنه يناقش وينقد وبعض الاحيان تكون الطريقة مطولة تصل اعدادها الى 210 معادلة آتية ذات عشر مجاهيل واهتدى الى وسيلة توصل الى معرفة العملية ذات الحدين ، لكنه اماط اللثام عن كثير من المسائل كانت مجهولة حتى قام بابرازها وتقريبها الى الاذاهن ...

والمعروف أن العرب هم الذين اخترعوا الصفر .. اضافوه ، ولولاهم لما تقدم علم الرياضيات بل لما وصلت الحضارة الى ما وصلت اليه من رقي وازدهار في عالم التقنية والاقتصاد ... ولا ادل على ذلك من الارقام العربية المستخدمة الى الآن في العالمين الغربي والشرقي ...

والغريب ان اخواننا في الشرق الاوسط لا زالوا متمسكين بالارقام الهندية الى الآن .

وخلاصة القول ان السموال المغربي قد اثرى المكاتب العربية والغربية بذخائر فذة نذكر منها على سبيل المثال :

1) الكافي في حساب الدرهم والدنانير .

2) كتاب اعجاز المهندسين .

3) رسالة في التحليل والتركيب .

4) المفيد في الطب .

5) كشف اعوار المنجمين ... الخ .

واخيرا قامت عدة مؤسسات ثقافية فرنسية وعربية الآن بوضع بعض الملخصات والبحوث عن كتبه واعماله مع تقديم شيق بالفرنسية والعربية ...

والذي يعطينا اهمية كبيرة عن دراسته وكتبه انها تستخدم الطرق الحديثة المستعملة الآن ، وما يظنه الغربيون انهم توصلوا اليها حديثا ، وان دلت هذه الابحاث العلمية والدراسات المستفيضة والنادرة على شيء فانما تدل على الاصالة وعلى الاعتداد الحضاري للعرب والمسلمين الذين كان لهم الفضل في ارساء دعائم النهضة الحديثة ووضع اسسها وقواعدها وقوانينها .

محمد عبد الفتاح الابراهيمي

المصادر والمراجع

1) كتاب الباهر في الجبر : تاليف السموال المغربي ، النسخة المصورة عن المخطوطة مودعة في معهد الوثائق والمخطوطات بالقاهرة.

2) مذكرات الدكتور مبروك نافع .

3) كتاب الباهر ، النسخة التي قام بتحقيقها واخراجها الاستاذان الجليلان : رشدي .... وصلاح .

4) شخصيات عربية : كتاب المعرفة الصادر سنة 1982 .

5) التراث العربي الصادر في يوليو 1982 وبعض الملخصات والكتب الاخرى .

التأثير الإفريقي عبر المحيط

للأستاذ محمد قشتيليو

انها ارتسامات لما شاهدته وما لمسته عن قرب أثناء عملي الدبلوماسي بسفارتنا بالبرازيل ، لقد لاحظت ان التأثير الافريقي بهذه الارض يتجلى باسمى معانيه وأكمل مظاهره في جميع نواحي حياة سكانها فالانسان الاسمر القادم من افريقيا او المأخـوذ من افريقيا الى هذا العالم بسط سيطرته الكاملة على عدة نواحي في الحياة وأثر فيها ايما تأثير ، يلاحظ هذا التأثير متجليا في العقيدة والدين ، في اللغة والادب ، في الغناء والموسيقى ، وقد اعتنى علماء الاجتماع في البرازيل بهذا فكتبوا وبحثوا والفوا الكثير في الموضوع ، ومما اطلعت عليه ولفت نظرى كتاب بعنوان ، « الوجود الافريقي في الديانات البرازيلية » لمؤلفه ادوين باربوصا دا سيلفا ؛ يقصد المؤلف بالديانات البرازيلية ان التدين الحالي بالبرازيل هو مزيج من المسيحية وما أتى به الرجل الافريقي من معتقدات وديانات من بلده وادخلها الى الكثلكة ، ولو انه توجد بالبرازيل ديانات بدائية عند الهنود الحمر ولكن هؤلاء بعيدون عن المجتمع .

لقد أصبح الانسان البرازيلي سواء من هو من أصله ابيض لو من اصل اسمر متأثرا بكل ما اتى بـه الافريقي من بلده الاصلي حتى اصبحت عوائده وتقاليده ومظاهر عيشه هي عوائد وتقاليد ومظاهر عيش الوطن البرازيلي وبعبارة أصح أصبح كل ما أتى به الرجل الافريقي يكتسي صبغة وطنية .

ان التأثير الافريقي كما قلنا يشمل عدة نواحي اجتماعية بالبرازيل وأبرزها الناحية الدينية ، ان الاستعمار الاوروبي رغم قوته وجبروته وغزوه لتلك الناحية من العالم لم يستطع ان يتوغل روحيا في محكومه رغم تجنيده طاقاته الا في بعـض المظاهـر السطحية ، بخلاف التأثير الروحي الافريقي استطاع ان يتوغل في الطقوس المسيحية للرجل الابيض وانصهر فيها وبالتالي صبغ تلك المسيحية بصبغة افريقية وأدخل فيها طقوسه وشعائره حتى اصبحت مزيجا من طقوس تختلف في أدائها عن المسيحية بأوربا كما يقول الاستاذ ادوين باربوزا دا سيلفا في كتابه : « الوجود الافريقي في الديانات البرازيلية » لقد بحث هذا الكاتب في أصول الثقافة الشعبية البرازيلية مبينا بوضوح وسلاسة آفاق هذه الثقافة المزدوجة الافريقية البرازيلية مبينا كل الملابسات والغموض الذي يكتسي هـذا الازدواج وهذا الالتحام الذى حدث بين الرجل الافريقي والرجل البرازيلي أو الانسان البرازيلي المكون من عدة أجناس ، ان هذا الالتحام الذى حدث بين السلالتين (السوداء والبيضاء في البرازيل) يتجلى في عدة أوجه من الحياه ، يتجلى في الموسيقى في الرقص في الهندام واللباس في اللغة البرتغاليـة التي هي لغـة البلـد الرسمية كما تجد التأثيـر بلغ أشده في الروحيـات وطقوسها التي اتت من افريقيا وادخلت في المسيحية وصار الكل يعمل بها ومتمسك بها فمزجوا العقيدتين معا واستخلصوا منهما مزيجا من دين مشـوذ جعلوا له قوانين وقواعد يتعبدون بها ويؤدونها ، تشاهد ذلك في أدائهم لهذه الشعائر من عادات افريقية محضة ،

فالبخور يطلق في النار من اعشاب من نبات افريقي وشموع توقد بالطريقة الافريقية اثناء اقامة القداس الديني المسيحي واكل خاص له صفة مقدسة يقدم اثناء الاحتفال الديني وهو قداس من اصل افريقي .

لقد وجد الرجل الافريقي كل الظروف الملائمة في البرازيل التي مكنته من خلق وطن جديد له ، وجد المناخ وجد النبات والفاكهة بل حتى بعض الاشياء مما تجود به الطبيعة والتي يستعملها في شعوذته وطقوسه الدينية من احجار ونباتات مما يستعمل عنده في السحر واداء القداس ومـا يعلقـه على اجسادهم كتمائم الى غير ذلك .

ان نظامهم الديني له قواعده الخاصة بـه فمسيحيتهم منظمة حسب عوائدهم فالقديسـون بيدهم الصليب ولكنهم باسماء مشتقة من طقوسهم ولهم اماكن خاصة بهم لا كالكنائس يقيمون بها القـداس ولهم مذاهب متعددة وكل مذهب له مركزه ومعبده الخاص به ، وكل فرقة تلبس لباسا بلون خاص بها واثناء القداس يتكلمون كلامـا غير مفهوم خـاص باقامة الشعائر ، والقداس يقام على انغام الطبول والايقـاع على الطريقـة الافريقيـة لا كمـا يقيمـه المسيحي الاوربي على انغام الارغن، ويشبه هذا عندهم بعض الشيء ما تقوم به عندنا بالمغرب فرقة كنـاوة في النصف الاخيـر من شعبان من حفـلات التـداوى والحضرة والرقص واطلاق البخور ولا يستغرب فالكل وارد من منبع واحد ، قد تجد في ابواب مراكزهم الدينية دكاكين لبيع النباتات للبخور والتمائم والدخان يتصاعد في عنان السماء والشموع موقدة الى غير ذلك حتى يخيل لك كانك تتجول بين أضرحة الاولياء بالمغرب، كما يلاحظ ان البرازيليين مولعون بتزيين وزخرفة منازلهم بتماثيل ولوحات وطلاسم تمثل الفن الافريقي وهو أشبه بالفن التشكيلي الحالـي .

ان المراكز الدينية للطوائف التي ذكرنا يطلقون عليها اسم « الماكومبا » وهو اسم من أصل أفريقي يطلق على كل الطقوس التي لها صبغة دينية أو حتى الروحانيات « اسبرتوال » يقصد الناس هذه المراكز أما للمشاهدة والاطلاع أو القيام بالواجب الديني او للتداوى ، ثم لا ندع الفرصة تمر دون ان نعطي فكرة ولو موجزة عن أداء القداس .

ان القداس يكون على انغام الطبول فقط (ولو انه قداس مسيحي ولكنه يؤدى على الطريقة الافريقية) والرقص له دوره ايضا فيه وغالبا ما يكون الرئيس الذى يدير رقص القداس وهو رقص جماعي امرأة سوداء يفتتح الرقص على ايقاع الطبول ، وقبل ان تفتتحه الرئيسـة تمر في القاعـة على تماثيـل القديسييـن المسيحيين فتقبل رجليهما ثم تدخل الى معمعة الرقص بعد ما يحمى الوطيس والناس اثناء ذلك يشربون خمرا خاصا يستخرج من قصب السكر فيذهب بعقولهم ويغيبون عن وجدانهم ويفتقدون شعورهم وتطلق البخور والتي تدير الرقص تدخن السيكار وهي تسير جمهور الراقصين والراقصات حتى اذا اصاب احدهم العياء وبلغ منه الجهد مبلغه ينسحب بعدما يقبل قدمي الرئيسة ومنهم من يقع مغمى عليه ، والغريب ان هـذه الحال يشارك فيها جميع البرازيليين لا فرق بين الابيـض والاسود فهنا يتساوى الجميع بل يصبح الاسود هو السيد فتنقلب الاوضاع ويصبح الاسود سيد الابيض في الروحيات بعد ما يكون الرجل الابيض هو السيد في الماديات .

أما التداوى عندهم معمول به في هذه المراكز ، التداوي بالطريقة الشعوذية والتداوي بطريقة شبه علمية ، وقبل ان نتطرق الى كيفية التداوي وطرقه وما تتخذ من وسائل في شان ذلك يجدر بنا ان نعطي عرضا موجزا عن مراكز هذا التداوى والاماكن المهيئة لذلك وكيفية مقابلة الزبائن بها والطقوس التي تودى اثناء عمل التداوي والمشرفين عليها ، فقد زرت هذه الاماكن في مناسبة كنت أود الاطلاع على ذلك وزيارتها لاتكون الا يومين في الأسبوع ، ان هذه الأماكن لاتوجد غالبا الا في الاحياء العتيقة بمدينـة ريوذى جانيـرو وبناؤها على الطريقة القديمة وهندستهـا من عهـد الاستعمار البرتغالي وما زالت محتفظة بطابعها القديم وبجانب كل مركز للتداوي دكاكين لبيع البخور والتمائم والشموع تقربا لاشخاص مجهولين باسماء غريبة فهم عندهم بمثابة الآلهة عند الاغريق القدماء فمثلا يتقربون « لإكسو » بجدى أسود « ولآجوم » بديك احمر ، وأكسو هذا يقصد به الرسول كما يقول ادوين باربوزا في كتابه « الوجود الافريقي في الديانات البرازيلية » .

وهناك طريقة للتداوى غير الطريقة المشعوذة وهي شبه علمية ويقوم بها شخص يدعي المعرفة بالطـب النفساني يعالج المرضى بالطرق النفسانية بطرح الاسئلة على المريض فيسأله عن حياتـه الخاصـة بالاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة عنها كالذى يقوم

به العالم النفساني في علاج مرضاه ، حتى اذا وردت على مكان من هذه الامكنة يقابلك المشرف ويسالك عن سبب زيارتك هل للتداوي أم للمشاهدة فقط فاذا كنت زائرا بقصد التداوى عليك ان تبين له نوع التداوى الذى تريده ، أما التداوى بواسطة الرقصات والشطحات والشعوذة أو مقابلة الطبيب النفساني ، فيأخذ منك الاسم ويعطيك الميعاد مع الطبيب أو المشعوذ وكل هذا يؤدى وله ثمنه الخاص .

ان هذه المذاهب أو الطرق التي لها صبغة دينية متعددة الانواع والاشكال قد الف وكتب علماء الاجتماع البرازيليون فيها الشيء الكثير واغنوا مكتباتهم من هذا النوع من العلم فاصبح للبرازيل أدبها الخاص وايديولوجيتها الخاصة لا صلة لها بادب وايديولوجيات البرتغال التي هي منها واليها في اللغة والدين .

ويطول بنا المقام اذا أردنا ان نعطى للموضوع حقه ؛ فهذا القطر الشاسع قطر المتناقضات والعجائب فقد اجتمع فيه ما افترق في غيره ، ولله في خلقه شؤون .

الرباط
محمد قشتيليو

كتابٌ جديد

●● صدر كتاب جديد للأستاذ المرحوم محمد المختار السوسي بعنوان "طاقة ريحان من روضة الأفنان" قام بنشره أبناء الفقيد ..
ويقع الكتاب في 88 صفحة من القطع الكبير ●●

محمد المختار السوسي
طاقة ريحان من روضة الأفنان
المغرب

حول صلح الحديبية

للأستاذ عبد العزيز الساوري

في كتاب (مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط) للاستاذ الدكتور طيب تيزيني جاء في فصل (المسار التاريخي للمجتمع الاسلامي ـ الاسلام وتحول البنية الاجتماعية الاقتصادية والسياسية للمجتمع العربي الجديد) هذه القولة « ان معاهدة او ما سمي بـ (صلح الحديبية) كانت ، وبشكل عام ، (لصالح التجار والمرابين المكيين) ، وانها كانت (تنازلا) سياسيا واقتصاديا وفكريا لصالح الملأ المكي ، لذلك نجد هذا الملا يدخل الاسلام لكي يستطيع ضمان مواقعه الاجتماعية والاقتصادية عن قرب ومنحها القدرة على النماء والتطور وما يمكن استنتاجه من هذا (القول) هو ان مسؤولية الانعطاف الذي عرفته الحركة الاسلامية لاحقا على يد الامويين تعود الى ذلك (التنازل) الذي كانت المعاهدة المذكورة اعلانا عنه » (1) .

ان ماورد عن صلح الحديبية مشهور معروف فلو رجعنا لاقدم مصادر السيرة واعني مثلا السيرة النبوية لابن هشام ، طبعة عبد الرؤوف سعد الجزء الثالث ص 196 لوجدنا الحقائق كالتالي :

1 ـ خرج رسول الله (ص) في ذي القعدة 6 هـ معتمرا ، لايريد الحرب .

2 ـ لقي النبي (ص) من اخبره وهو في الطريق ان قريشا سمعت بمجيئه واستعدت للحرب حتى انه قال (ص) : « ياويح قريش ، ، ، لقد اكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فان هم اصابوني كان ذلك الذي ارادوا وان اظهرني الله عليهم دخلوا في الاسلام وافرين ،،» .

3 ـ اسمر بينه وبين قريش بعض الشخصيات من اجل توضيح هدفه واقناع قريش بذلك منهم بديل بن ورقاء مع جماعة من خزاعة ، والحليس بن علقمة او ابن زبان سيد الاحابيش ، وعروة بن مسعود الثقفي ، وخراش بن امية الخزاعي ، ثم أرسل اليهم عثمان بن عفان ، وارسلت قريش من جانبها سهيل بن عمرو ،

4 ـ تفاوض ممثل قريش سهيل بن عمرو والنبي (ص) ثم اتفقا على ان يعود النبي (ص) في ذلك العام ، حتى لايتحدث العرب بان محمدا دخل مكة عنوة ،

5 ـ فلما اراد كتابة الاتفاق لاشهاد الشهود عليه حدث خلاف حول صيغة الكتابة اذ اراد النبي ان يقول هذا ما صالح عليه رسول الله فاحتج ممثل قريش بانه لو كان يؤمن بذلك ما جاء ممثلا لا عداء

(1) ص 159 ـ 160 ، دار دمشق للطباعة والنشر دمشق ،

النبي ، وطلب منه ان يكتب اسمه واسم ابيه ، كما طلب منه ان يكتب اللهم بولا من بسم اللـه الرحمن الرحيـم .

6 ـ فكانت شروط الصلح اذا هـي :

أ ـ ان يعود النبي (ص) ذلك العام دون حج .

بـ ـ ان توضع الحرب بين قريش والنبي (ص) مدة عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ،

ج ـ ان من جاء محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهـم .

د ـ ان من جاء قريشا من اتبـاع محمـد لايردوه اليـه .

هـ ـ ان يلتزم كل طرف باحترام الاتفاق فلاخيانة، ولاسرقة خفية ،

و ـ ان من احب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ؛ ومن احب ان يدخل في عقد قريش دخل فيه ـ فدخلت خزاعة في عقد محمد وعهده ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ،

ز ـ للنبي (ص) الحق في القدوم الى مكة في العام المقبل على ان يبقى مدة ثلاثة ايام ، تنسحـب خلالها قريش عن مكة ، ولايحمـل اتبـاع محمد غير سلاح المسافر (السيوف في القرب) ،

وهكذا نحـر النبي (ص) بعد التوقيـع من قبل الشهود على الوثيقة فنحر الصحابة بعده وحلق وكأنه اعتبر نفسه قد ادي ما عليه او انهى المهمة التي جاء من اجلهـا ،

فهل كان صلح الحديبية تراجعـا ؟ ان الجواب واضح من الشرح اعـلاه ،، ،

1 ـ فان غاية النبي (ص) ، العمرة ، وليست الحـرب

2 ـ ان النبي لم يتراجع عن مبادىء الاسلام التـي تحارب الفساد ومنها الربا الذي كان يتعاطـاه تجار قريش ، ولم يتخل عن الفقراء او الارقاء !

3 ـ ان ما كسبه الاسلام بهذا العقد هو اعتباره قرين قريش اي حصل النبي (ص) على اعتراف بقوتـه ودولته كقرين لقريش او طرف يتفلوض معـه ويحسب حسابه ،

4 ـ ان الاسلام بهذا العقـد كسـب دعاية واسعة في الجزيرة .

5 ـ لما اطمان النبي (ص) بهذا العقد لجانب قريـش انصرف ومن معه للتبشير بالاسلام في الجزيرة .

6 ـ ان الصلح حقن دماء المسلمين وكان الوقت الـى جانبهم مما زاد في عدد الداخلين في الاسلام ولدينا شهادات مؤرخينا القدماء وهي شهادات يمتد بها، اذ بدون نصوص التاريخ المؤكدة ، والموثقـة المعروفة لايكون هناك تاريخ لاي امة او دولة ، قال الزهرى : « ولم يكلم احد في الاسلام يعقـل شيئا الا دخل فيه ؛ ولقد دخل في تلك السنتين (اي بعد العقد) مثل من كان في الاسلام قبـل ذلك او اكثـر » ،

وايد ابن هشام ما ذهب اليه الزهري حيث ذكـر بان خروج النبـي (ص) الـى الحديبية كـان علـى رئاسة 1400 رجل ، وخروجه عام فتح مكة اي بعـد سنتين على راس 10،000 رجـل .

ثم لما اضات قريش بالعقد نتيجة لاعتداء حليفتها بني بكر على حليفة النبي خزاعة ، ولمساندة قريش لحليفتها ضد خزاعة ، اجاب النبي طلب الاغاثة لقبيلة خزاعة ، وهكذا دخل الاسلام رغم انوف رجال قريش وتجارها ، وهكذا اصبح الاسلام ورجاله هم المسيطرون على مكة ، فبدلت ديانتها وكسرت اصنامها وطبـق شرع الاسلام ، ودين الاسلام ، وبقيت مكة خاضعة هي واهلها ورجالها للنبي (ص) ولخلفاء النبي مـن بعده ، ثم ذا بوا في بوتقة الاسـلام .

فاين التراجع الذي يراه طيب تيزيني ، ولايراه الناس منذ عهد الاسلام الاول الى الآن ؛ ولكن عيون الشيوعيين لاتري دائما الا الكذب والبهتان وتشويه الحقائق التاريخية ، وهذا التشويه لم يكن مقصورا على الاسلام فقط فهم قد شوهوا ويشوهون كل تواريخ الامم التي يسمع بها ماركس او التي لم يسمع بها ، وليس للمنصـف الا ان يضـرب بآرائهـم وافكارهـم وكتبهم عرض الحائط .

وجدة : عبد العزيز الساوري

في الملكوت الأعلى... مثواك أيها الأمير

للأستاذ خليفة المحفوظي

شاء الله وقضاؤه نافذ ، ان يدهم الخطب قلوب الملايين من المغاربة ، فيتخطف المنون الامير المجاهد ، بن الملك المجاهد ، وشقيق الملك المجاهد، سيدي مولاي عبد الله ، وهو ما يزال في ريعان شبابه ، فأفل بفقده نجم في الاسره المالكة المجاهدة .

ما اقسى مانمي الى السمع ، وما افجع النفوس بما اذيع ، وما افظع الخسارة فيك يا اميري ، يا لله فيما دهانا نحن المغاربة من رزء عظيم !

فيا قلمي الحزين ، ما لي أرى الحبر فيك حبيسا ؟ لقد تعودته يتزمن لسانك سيالا دفاقا ... لا ، والذي خلقك ، فجعلك لسان العقول ، وقيد الافكار ، وترجمان العواطف ، انطلق جوادا كريما ايها القلم كما عهدتك ، وابك غصنا رطيبا من دوحة العز ، هاته التي كانت المقيل والقرار ، يوم اشتد عليك الحر ، واختنقت بأوار الجور والتغريب ، عن خاصة الاهل والقريب ، بعد ان شط المزار ، وانخرمت عرى الديار ... فكان لك كل ما في الدوحة وما حولها القريب حين عز ، والاليف حين ضاع ، والعشير حين فقد ..

الآن فقط ايها القلم التمس لك العذر ، ان بدوت كسيرا لهول الواقعة ، لقد تعودت ان تكتب في المسرات والافراح ، عن الاسرة الملكية المفداة وقد شاءت الاقدار ، ولا من يرد ما تشاؤه الاقدار ان تكتب الآن عن الاتراح ، بفقدان امير في عز الشباب ..

لك الآن ايها القلم وقد احجمت ان تعذر ، لانك قط ما كنت بالهياب امام الكلمات ، فطالما نقلت ما في القلب والفكر منسابا في غير احجام .. اما وان النفس في هم ، والفكر في شرود ، والقلب في اكتئاب ، فلا عليك ان احتبس مدادك السيال للفاجعة ، فقد يتحجر في العين الدمع ، لا عن شح وجمود ، ولكن عن صدمة عاتية لا تطاق .

اميري العزيز ، كيف يطاق فراقك ؟ يا بهي الطلعة ، كما تباهت الحياة بايام اسلافك ، ويا مديد القامة ، كما امتد الخير في دولة آبائك ، وياطيب القول والذكر ،كما طاب العيش في اكتاف هذا البيت المحمدي العلوي ، في رعاية امير المؤمنين الحسن الثاني .

لا ، ابدا لن ترحل عن دنيانا ايها الامير ، فانت سبط النبي ، وابن محرر البلاد ، وصنو باني صرحها الاشم ، وشريك والدك القائد ، وشقيقك الشهم ، في محن التحرير ومعاناته ، وكنت ما زلت حدث السن ، طري العود ، ولكن في عزيمة المد ، وثبات الجبال ، وعنف التيار ..

لا ، ابدا لن تغيب عن دنيا المغرب ، ايها الامير، فكما ان الشمس لن تغيب عن الوجود ، فان حضورك الدائم سيبقى شاخصا بيننا ، لقد كتبته مع والدك المقدس ، ووثقته في ظل اخيك العظيم .. وان مت يا اميري ، فان الموت نهاية كل البشر ، ولكن الافعال ستبقى ، ومن ثم كان خلود الرجـــال .. ومهمـــا يمض الناس ويرحلوا ، فان الاعمال باقية شاخصة ، مــــا بقـــي الوجـــود ..

لا ، ابدا لن تنسى في حياة المغـــرب ، ايهـــا الامير ، فكما ان الاثر يدل على المؤثـــر ، وكمـــا ان الطريق يدل على المسير ، وكما ان الشفق يدل على الشروق ، فقد شاء القدر ان تكون سليل اسرة ملكية رائدة ، كانت المؤثر والدليل والفجر الباسم لامـــة وشعب ، وشاد المغاوير من ملوكها الامجاد ، صرح الامة المغربية الحديث ، وجابـــوا بها المسالـــك والفجاج ، في حدب ورعاية يعز لهما المثيل ، رغم هوج العواطف ، وقتامة الضباب ، وعتو الرياح ...

ومن ذا الذي يكابر فيجحـــد الشمس وقـــد ارتفعت في الضحى ؟ بل من ينكر آثار آيات بينات ، في حضنها الامن الرؤوف ترعرع الامل ، بعد ان كان حلما يراود النفوس ، ثم لاح في الافق مفترا باسما كالفجر ، ثم اشرق مضيئا بهيا كالشمس ، ليبـــدد دياجير الظلم ، وقهر الارهاب ، وذل العبودية ؟

فلله الامر في مصابنا الاليم ، واليـــه وحـــده نحتسب في المكروه .. ان الاختيار يا اميري العزيز، اختيار الله وهو واقع لا محالة ، ولا دافع لمقدوره .

وان كنا ايها الامير الراحل ، ننشد العزاء فيك، فان ذكراك ستبقى خالدة ، واذا قيـــل ان ذاكـــرة الشعوب لا تنسى ، فان الشعب المغربي الكريـــم ، هذا الذي انحدرت من انبل ارومة فيه ، سيبقـــى وفيا ذاكرا لاميره المحبوب .

فيا اميري الذي اكتوت نياط قلوبنا لفقـــده ، وانهدت حنايانا لموته ، وما خفف الدمع الصبيب من لوعتنا فيه .. هيهات انك ترحل ، وان تغيب ، وان تنسى !!

فالى جوار الله ايتها النفس المطمئنة بالايمان ، والى غفرانه ونعيمه المرتجى ، هنالك في جنـــات النعيم ... وعزاء جميلا لمولانا امير المؤمنيـــن ، وللاسرة الملكية المنيفة ، وللشعب المغربي الملتاع في امير غيور مجاهد عزيز .

مولاي لامير الراحل ، قر عينا بثواب الجهاد ، وكريم الاعمال ، والى الرفيق الاعلى مع النبيئيـــن والصديقين والشهداء والصالحين .



أخطاء مصحف مصر

2

للدكتور التهامي الراجي الهاشمي

6 ـ سورة الاعـــراف :

لم يقف على قوله : « ثم بدلنا مكان السيئـــة الحسنة حتى عفوا » . اعتقد ان الامام الهبطي رحمه الله يقف هنا لانه يرى ان « حتى عفوا » تمام ، كمـــا قال الاخفش(58) وعلى الاقل كما قال ابو بكر محمد بن القاسم بن بشار الانباري : « حسن غير تــام » (59) لانه : « نسق » (60) على « عفوا » . واذا كان معطوفا فلا يمكن ان يكون تاما . لكن هذا لا يمنع من الوقف عليه ، كما هو معلوم .

كما لم يقف على قولـــه عز وجـــل : « ومـــا ظلمونا » (61) . يوجد في هذه الآية سبعة وقوف عدا آخر الآية ، وهو : « ولكن كانوا انفسهم يظلمـــون » الذي هو حســن بلا خلاق .

اما الوقوف الاخرى فهي : « اسباطا اممـــا » و « بعصاك الحجر » و « عشرة عينا » و « مشربهم » و« المن والسلوى » و « ما رزقناكم » و « ما ظلمونا» التي لم يقف عليها الساهرون على هـــذا المصحف ، وحكمها حكم الباقي . ومعلوم ان هذه الوقوف وقوف الهبطي مما يدل على ان نية اللجنة المكلفة بالسهر على طبع هذا الكتاب الكريم كانت هي تطبيق وقف الامام المغربـــــــي .

7 ـ سورة الانفـــال :

لم يقف على قوله عز وجل : « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا » (62) رغم ان الامام الهبطي يقف عليها علما بان القطع الكافي لا يكون في هذه الآية الكريمة الاعلى : (ولكن الله سلام) وعلى (انه عليـــم بذات الصدور) التي هي راس آية . لكن هذا المصحـــف وقف على ما قبلها ، اي على (ولتنازعتم في الامـــر) الذي يقف عليها كذلك الهبطي ، وحكمها ـ والله اعلم ـ حكم « في منامك قليلا » فان وقف على تلك وجب ان يقف على هذه .

57 ـ الآيـــة : 94 .
58 ـ القطع والائتنـاف ، صفحة : 337 .
59 ـ ايضا ، الجزء الثاني ، صفحة : 660 .
60 ـ النسق : عبارة من المدرسة النحوية الكوفية ، يقابلها في مدرسة البصرة : العطف بالحرف كالواو والفاء وثم وغيرهن . ولا شك ان المصطلح الكو في ادق من المصطلح البصري لاختصاره وغنائه عن التخصيص والتقييـــد .
61 ـ الآيـــة : 160 .
62 ـ الآيـــة : 44 .

ولم يقف كذلك على : « كداب آل فرعون » (63) لا على التي بعد قولـــه : « وان اللـه ليس بظـــلام للعبيد » (64) ولا على التي بعد : « حتى يغيروا مـــا بانفسهم وان الله سميع عليم » (65) . نقف نحن على هذين المكانين لا سيما وان الوقف على آخر الآية 52 « وان الله ليس ظلام للعبيد » غير تام ، لان الكـــاف في « كداب » صلة لما قبلها حسب ما وضحه لنـــا الفراء (66) ، اي ذلك بما قدمت ايديكم من الكفـــر والعناد ورد البراهين ، وجريكم على عـــادات الســوء كداب آل فرعون (67) .

8 ـ سورة التوبـــة :

لم يقف على قوله : « صدقة تطهرهم وتزكيهـم بها وصل عليهم » (68) كما نقف عليها وان كان الوقف الكافي لا يكون ، والله اعلم الا في : « ان صلواتـــك سكن لهم » والتمام آخر الآية ، وهو : « والله سميع عليم » لان السبعة (69) الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم الى تبوك (70) ، ندمـــوا وربطوا انفسهم الى سواري المسجد . فلما تاب الله عز وجل عليهم ، قالوا : يا رسول الله خذ اموالنـــا فتصدق بها ، فقال : ما امرت في اموالكم بشيء . فانزل الله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهـم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلواتك سكن » .

ولم يقف على قوله : « ومن اوفى بعهده مـــن الله » (71) مع انه قطع كاف مثله مثل ما قبله وهو : « في التورية والانجيل والقرءان » ومثل ما بعـــده وهو : فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، قالـــه احمد بن موسى ابو بكر بن مجاهد (72) . واما آخـــر الآية فهو قطـــع حسن .

ولم يقف على قوله : « ومـــا كان المؤمنـــون لينفروا كافة » (73) وهو قطـــع كـــاف ، والتمـــام لعلهـــم يحـــذرون » .

ومما يدل ايضا على ان الساهرين على طبـــع هذا المصحف التزموا بوقف الهبطي المتبع عندنا في المغرب العربي انهم وقفوا على قوله : « كتب لهـــم » الموجود في الآية قبل هذه ، كما وقف عليه الامـــام المغربي ، مع ان ابن مجاهد وكثيرا من القراء يقررون بأنه وقف غير تام ولا كاف ، ويقول عنه ابو جعفـــر النحاس : « وقد غلط فيه بعض القـــراء فجعلـــه كافيا » (74) . برر ابو بكر بن بشار الانباري عـــدم موافقتهم على هـــذا الوقف فقـــال : لان قولـــه : (ليجزينهم الله) متعلق بـ (كتب) كأنـــه قال : « الا كتب لهم به عمل صالح لكن ليجزيهـــم » . وقـــال السجستاني : اللام في (ليجزيهم) لا اليمين ، كأنه قال : « ليجزينهم الله » فحذفوا النون وكسروا اللام

---

63 ـ الآيـــــة : 53 .
64 ـ الآيـــــة : 52 .
65 ـ الآيـــــة : 54 .
66 ـ معاني القرءان للفراء ، الجزء الاول ، صفحة : 413 .
67 ـ انظر مزيدا من البيان عن الموضوع في القطع والائتناف ، صفحة : 352 .
68 ـ الآيـــــة : 104 .
69 ـ ابـــو لبابـــه واصحابـــه .
70 ـ بلدة في شمال الحجاز ، اشتهرت بالغزوة التي عرفت باسمها . ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم بلغه في السنة التاسعة للهجرة اجتماع الروم على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، فخرج غازيا بريد الشام حتى وصل الى تبوك وأقام بها اياما . فهرب منها اهلها من الروم وجاءت وفود ايلـــة وأذرح وصالحوه على دفع الجزية . وفي خلال ذلك استولى خالد بن الوليد على دومة الجنـــدل واسر صاحبها . وتعتبر تبوك آخر الغزوات التي اشترك فيها النبي صلى الله عليه وسلم .
71 ـ الآيـــــة : 112 .
72 ـ ولد ببغداد سنة 245 هـ وتوفى سنة 324 هـ . انظر ترجمته في تاريخ بغداد 56/5 ، وفي طبقات القراء لابن الجزري 131/1 .
73 ـ الآيـــــة : 123 .
74 ـ القطـــع والائتناف ، صفحة : 370 .

وكانت مفتوحة فاشبهت في اللفــظ لام « كـــي » فنصبوا بها كما نصبوا بلام « كـــي » (75) .

9 ـ سورة يــونس :

لم يقف على قوله : « ءالان وقــد كنتم بــه تستعجلون » (76) رغم انها راس آية ورغم ان جـل المهتمين بهذا قالوا : ان الوقف على رؤوس الآيــات من قوله تعالى : « ماذا يستعجل منه المجرمـــون » وهي الآية 50 الى قوله تعالى : « قل اي وربي انــه لحق » وهي الآية 53 وقف صالح . كما انه لم يقف على قوله : « ذوقوا عذاب الخلد » (77) التي نقــف عليها نحن في المغرب اتباعا لوقف الهبطي . كما انه لم يقف على قوله : «فجعلتم منه حراما وحلالا» (78) التي يقف عليها المغاربة قاطبة اتباعـــا لامامهـــم في المـوضـــوع .

10 ـ سورة هـــود :

لم يقف الساهرون على طبع هذا المصحـــف الشريف على قوله عز وجل : « ومن يكفر بــه مـــن الاحزاب فالنار موعده» (79) التي يقف عليها المغاربة. لكنه يقف على قوله : « وامم » التي قبل : «سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم » (80) ، لم ار احـــدا قال بالوقف هنا ، بل كلهم اتفقوا على ان الوقف التام هو : « وبركات عليك وعلى امم ممن معـــك » و « امـــم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم » .

ولا يوقف في هذا المصحف على قوله تعالى : « خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا مـــا شاء ربك » (81) رغم ان الوقف هنا قطع كاف عنـــد ابي حاتم لا سيما وان الحديث هنا عن اهـــل النار . والغريب في الامر هنا انه وقف على قوله : «ان ربك» التي قبل قوله : « فعال لما يريد » التي لا يقف عليها قارىء في علمـــي .

واغرب من هذا كله ان يقف على قوله : « مـــا يعبدون الا كما يعبد ءاباؤهم » (82) . نعم وقف على لفظة : « ءاباؤهم » التي لا نقف عليها نحن في المغرب لا سيما واننا نقف على اللفظة التـــي بعدها وهـــي : « من قبل » . كما لم يقف على قوله : « واصبر » في : « واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (83) .

11 ـ سورة يــوسف :

لم يقف الساهرون على طبع المصحف على قوله تعالى : « يا صاحبي السجن اما احدكما فيسقي ربه خمرا » (84) كما لم يقفوا على قوله : « قال ايتوني بأخ لكم من ابيكم » (85) التي يقف عليها المغاربـــة قاطبة . كما لم يقفوا ايضا على قوله : « قال هـــل ءامنكم عليه الا كما امنتكم على اخيه من قبل » (86) التي نقف عليها . ولم يقفوا ايضا على قوله : «وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فننجي من نشاء » (87)

---

75 ـ كتاب ايضاح الوقف ، صفحة : 700 .
76 ـ الآيـــــــة : 51 من هذه السورة .
77 ـ الآيـــــــة : 52 .
78 ـ الآية : 59 من سورة التوبة .
79 ـ الآية : 17 من سورة هـــود .
80 ـ الآيـــــــة : 48 .
81 ـ الآيـــــــة : 107 .
82 ـ الآيـــــــة : 109 .
83 ـ الآية : 17 من سورة هـــود .
84 ـ الآية : 41 من سورة يوسف .
85 ـ الآية : 59 من نفس السورة .
86 ـ الآيـــــــة : 64 .
87 ـ الآيـــــــة : 110 .

مع ان كل المهتمين بالوقف والابتداء جعلوا الوقف هنا وقفا صالحا (88) او قطعا حسنا (89) .

12 ـ سورة الرعـد :

لم يقف اصحاب هذا المصحف على قوله تعالى: « تلك عقبى الذين اتقوا » (90) مع اننا نقف عليها وهو قطع حسن لربما مثله مثل الذي قبله وهو : (91) « من تحتها الانهار اكلها دائم وظلها » التي وقف عليها كما نقف . ولم يقف هذا المصحف على قوله تعالى : « ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية » (92) وهي موقوفة عندنا بالاجماع .

13 ـ سورة الحجـر :

لم يقف مصحفنا هذا على قوله تعالى : « ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل » (93) وهو وقف تام عند ابي حاتم السجستاني . واعتقد اننا نقف نحن عليه اعتمادا على ما يراه هذا العالم الجليل وعلى ما قرره الامام الهبطي مع العلم ان ابا بكر الانباري خالف ابا حاتم في هذا لان قوله « فسوف يعلمون » تهدد متصل بما قبلـه (94) .

14 ـ سورة النحـل :

لم يقف على قوله : « فادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها » (95) رغم انه وقف تام عند سهل بن محمد السجستاني نص عليه في ايضاحه (96) وتبعه في ذلك خلق كبير لا يحصي عددهم الا الله . كما لم يقف على قوله : « ولنعم دار المتقين » (97) الذي هو قطع تام نقف عليه لامرين اثنين :

الاول : نقدر ان « جنات عدن » التي تاتي بعده مرفوعة بالابتداء وخبره « يدخلونها » .

الثاني : نرفع « جنات » باضمار مبتدا . وفي الحالين يصلح الوقف على « المتقين » .

اما الذين لا يقفون على « دار المتقين » ، وليس المغاربة منهم فانهم يفصلون ذلك لامرين اثنين كذلك.

الاول : يقولون ان « جنات عدن » مرفوعة بالابتداء ينوون بها التقديم .

الثاني : يقولون ان « جنات عدن » مرفوعة بـ « نعم » . واعتقد ان المغاربة لا ياخذون بالوجهين الاخيرين لان ناقلها وهو ابو جعفر محمد بن سعدان الكوفي رغم انه ثقة ضعيف في القراءات (98) .

ويقف الساهر على طبع هذا المصحف على قوله تعالى : « ولاجر الآخرة اكبر » (99) مع ان الوقف التام لا يكون في هذه الآية الا في قوله تعالى : « لنبوئنهم في الدنيا حسنة » وفي آخر الآية . كما

---

88 ـ حسب ما ذكره ابو جعفر النحاس في القطع و الائتناف ، صفحة : 405 .
89 ـ حسب ما نص عليه ابو بكر بن بشار الانباري في ايضاحه ، الجزء الثاني صفحة : 429 .
90 ـ الآية : 36 من سورة الرعد .
91 ـ بل ان الوقف على « الذين اتقوا » تام كما صرح بذلك العلامة الانباري في ايضاحه ج : 2 ص : 737.
92 ـ الآية : 39 من سورة الرعد .
93 ـ الآية : 3 من سورة الحجر .
94 ـ الايضاح ، الجزء الثاني ، صفحة : 744 .
95 ـ الآية : 29 من سورة النحل .
96 ـ الجزء الثاني ، صفحة : 748 .
97 ـ الآية 30 من سورة النحل .
98 ـ انظر ترجمته عند ابن ابي حاتم في « العدل و التجريح » الجزء الثالث صفحة : 282 وفي نزهة الالباء صفحة : 154 . وفي غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ، صفحة : 154 من الجزء الثاني .
99 ـ الآية 41 من سورة النحل .

انه لم يقف على قوله: «والله خلقكم ثم يتوفيكم» (100) مع انه ليس في هذه الآية الا مكانا للقطع : « لكيلا يعلم بعد علم شيئا » وهو قطع كاف و « ان الله عليم قدير » الذي هو التمام .

والغريب في الموضوع انه لم يقف على قوله : « ما يمسكهن الا الله » (101) وهو أتم من غيره في هذه الآية عدا رأسها طبعا . كما لم يقف على قوله : « والله أعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر » التي قبل قوله : « بل اكثرهم لا يعلمون » (102) وهو قطع كاف بالاجماع .

ومما يؤكد الاعتقاد الذي ذهبنا اليه وهو ان الساهر على هذا المصحف انما يتبع في الوقف وقف الهبطي قطعة هنا على قوله : «ما عندكم ينفد» (103) رغم أن كثيرا من الائمة المبرزين في الموضوع كانوا يكرهون الوقوف على قوله : « ينفد » لان الكلام موصول معناه : ما عندكم ينفد وما عند الله خلاف ذلك (104) .

كما لم يقف على قوله : « وما ظلمناهم » التي قبل قوله : « ولكن كانوا انفسهم يظلمون » (105) .

13 ـ سورة الاسراء :

لم يقف الساهر على هذا المصحف على قوله : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق » (106) رغم انه وقف حسن ؛ واغفال ذكره من طرف ابي جعفر النحاس لا يدل مطلقا على ان الوقف عليه غير حسن .

كما لم يقف على قوله : « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » (107) ولا على قوله : « اسجدوا لآدم فسجدوا » (108) التي نقف نحن عليها في المغرب . انا اعرف ان القطع الكافي يكون بعد « فسجدوا » بلفظين ، هما : « الا ابليس » . فلو وقف هذا الساهر على طبع المصحف على قوله : « اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس » لقلت انه يحترم القطع الكافي ولاستحسنت عدم وقفه على « فسجدوا » ما دام وقف على « الا ابليس » وبما انه لم يفعل كان لزاما عليه ان يقف كما يقف المغاربة .

لكنه وقف على قوله : « او يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا » (109) وهو هنا وقف ليس بتمام لان ما بعده معطوف على ما قبله ، والتمام ، حسب ابي جعفر النحاس (110) : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » (111) .

كما لم يقف على قوله : « اذا لامسكتم خشية الانفاق » (112) رغم انه وقف حسن (113) . ولم يقف ايضا على قوله : « ولم يكن له ولي من الذل » (114) الذي نقف عليه نحن في المغرب .

---

100 ـ الآية : 70 من سورة النحل .
101 ـ الآية : 79 من نفس السورة .
102 ـ الآية 101 من نفس السورة .
103 ـ الآية 96 من هذه السورة .
104 ـ انظر ابا جعفر النحاس : القطع والائتناف ، صفحة : 433 .
105 ـ الآية : 118 من سورة النحل .
106 ـ الآية : 21 من سورة الاسراء .
107 ـ الآية : 57 من نفس السورة .
108 ـ الآية : 61 من نفس السورة .
109 ـ الآية : 68 .
110 ـ القطع والائتناف ، صفحة : 440 .
111 ـ الآية : 69 .
113 ـ الايضاح ، الجزء الثاني ، صفحة : 755 .
112 ـ الآية : 100 من سورة الاسراء .
114 ـ الآية : 110 من نفس السورة .

14 ـ سورة الكهـف :

لم يقف الساهر على طبع هذا الكتاب على قوله تعالى : « عجبا » في الآية : « قال ارايت اذ أوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا » (115) .

قال يعقوب ابن اسحاق الحضرمي : (116) « ومن الوقف قول الله جل وعز : « واتخذ سبيله في البحر » وزاد غيره : هذا وقف تام ، ثم نصب « عجبا » على القطع والتعجب . قال ابو جعفر النحاس (117) : اذا وقف على « عجبا » فلا اختلاف فيه انه تمام ، وقد اختلف في الاول (118) ، فما لا يختلف فيه اولى .

ومع ذلك نرى ان الساهر على طبع هذا المصحف وقف على المختلف فيه ، وهو : « واتخذ سبيله في البحر » ، ولم يقف على ما لا خلاف فيه ، وهو « عجبا » .

الرباط : الدكتور التهامي الراجي الهاشمي

---

115 ـ الآية : 62 من سورة الكهف .

116 ـ يقول عنه ابو عبد الله الذهبي : هو أعلم من رايت بالحروف والاختلاف في القرءان وعلله ومذاهبه ومذاهب النحو . كان رحمه الله لا يلحن في كلامه » .

117 ـ القطع والائتناف ، صفحة : 449 .

118 ـ يقصد بالاول الوقف على : « سبيله في البحر » .

دراسات في النثر الاندلسي :

فنّ الوصايا على عهد الأمويّين

للأستاذ علي لغزيوي

في كلمة سابقة نشرت على صفحات هـذه المجلة الغراء ، (1) تناولت بالدراسة فنا ادبيا من اهم فنون النثر المتصلة بامور السياسة والحروب في الاندلس ، مركزا على عهد الامويين بصفة خاصة الى نهاية القرن الرابع للهجرة ، وفي هذه الكلمة سأتناول فنا نثريا آخر من هذا القبيل ، وهو فن الوصايا ، خلال الفترة المذكورة ، وهو فن يعكس جانبا اخر من جوانب بلاغة الحكام ورجال السياسة في مجال النثر ، فضلا عما فيه من مضامين وتجارب ونظرات تسهم اسهاما هاما في بلورة خيوط ومعالم الفكر السياسي في الاندلس خلال هذه الحقبة الهامة في تاريخ الاسلام ، وفي بيئة من اهم بيئاته .

ولا احد ينكر ما للوصايا من اهمية بالغة ، باعتبارها وثائق حية خالدة يقدم فيها السابق للاحق خلاصة تجاربه ، ويرسم له السبل السليمة التي يسلكها في حياته وما يعترضه من قضايا ومشكلات .

وقد عرف العرب أنواعا عديدة من الوصايا منذ القديم ، سواء منها الوصية الادبية ام الاجتماعية ، ام السياسية ، وقد توافر لهذا الفن مجاله ودواعيه في الاندلس أيضا ، ففي المجال السياسي وهو المجال الذي يهمنا بالدرجة الاولى في هذا البحث ، اتخذ الحكام ورجال السياسة في الاندلس فن الوصية وسيلة لتوجيه النصح لولاة عهدهم وخلفائهم ، يرسمون لهم فيها النهج السياسي الذي يجب اتباعه .

وممن اشتهر من الموصين في عهد الامويين بالاندلس حسب ما بايدينا من نماذج :

– الامير الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضي (2) (180 هـ – 206 هـ) .

– ابنه الامير عبد الرحمان بن الحكم المعروف بعبد الرحمان الاوسط ، أو الثاني (206 هـ 238 هـ) .

– الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (توفي سنة 392 هـ)

وسنقف عند نماذج من وصايا هؤلاء على التوالي .

1 – فحين شعر الحكم الربضي بدنو اجله ، اوصى ابنه عبد الرحمان – ولي عهده من بعده – بوصية تناول فيها الحديث عن اعماله وجهوده في

(1) العدد : 223 الصادر بمناسبة العيد الفضي لمجلة دعوة الحق رمضان 1402 هـ – يوليوز 1982 ، ص : 178 – 182 ، وموضوعها : فن التوقيعات على عهد الامويين بالاندلس ،

(2) عرف الحكم بن هشام بالربضي نسبة الى الهيجة العارمة التي اندلعت في عهده اذ ثار أهل ربض قرطبة عليه بسبب انحرافه ومجونه ، ومال بعدها الى الزهد ،

توطيد الامر لولي عهده ، ودعاه الى اتباع نهجه ، وتدم له مجموعة من التوجيهات السياسية هى اشبه بدستور للحكم ، كما حدد له أهم الواجبات التى يجب عليه ان يرعاها نحو اقربائه ومواليه ورعيته ، وتجاه انصاره الموالين له وخصومه الناقمين عليه على السواء ، وينصحه بالتزام العدل، واختيار المسؤولين من ذوى الفضل والكفاءة ، وبتشجيع ذوى الهمم والطموح بعد اختبارهم ، وبمجازاة المحسن ، ومعاقبة المسيء ، ترغيبا للناس فيه من جهة ، وترهيبا لهم من جهة اخرى ، اذا كان كل ذلك في موضعه .

ويتضح ذلك من الفقرات الاتية من وصية الحكم الربضى التي يقول فيها : (3) « انى قد وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الاعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وامنت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم ان اولى الامور بك واوجبها عليك : حفظ اهلك ثم عشيرتك ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم انصارك واهل دعوتك ، ومشاركوك في حلوك ومرك ، فبهم انزل ثقتك ، واياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين الى مراتبهم من عوام رعيتك الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لاعبائهم ، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم ، واختيار اولى الفضل والسداد لاحكامهم وعمالتهم ، دون ان ترفع عنهم الهيبة .

وان رأيت فيمن يرتقي من صنائعك رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتطمح نفسه وهمته ، فاغنه واختبره ، وقدمه واصطنعه ، ولا يريبنك خمول أوله ، فان اول كل شرف ما ربيته ولا تدعن مجازاة المحسن باحسانه ، ومعاقبة المسيء باساءته ، فان عند التزامك لهذين ، ووضعك لهما مواضعهما ، يرغب فيك ويرهب منك » .

والى جانب هذه النصائح والتوجيهات في المجال السياسى ، يخصص فقرة في وصيته يطرح فيها توجيهاتتهم الناحية الاقتصادية والمالية بشكل عام ، يختم بها الوصية ، وفيها يدعو ولي عهده الى الحفاظ على المال مبرزا قيمته الكبرى ، وينهيها بدعوته الى تقوى الله ما استطاع ، ومما جاء فى هذه الفقرة قوله :

« وعليك بحفظ المال ، فانه روح الملك ، واتق الله ما استطعت ، والله خليفتى عليك » .

ونرجح ان هذه الفقرة الاخيرة من الوصية التي تنتهي بالدعاء ، حسب الصورة التى انتهت الينا ، تشكل خاتمة طبيعية للوصية وان اختلفت رواياتها (4) .

ويظهر في الوصية حرص الامير الحكم على استمرار الامر في ابنه ، ورغبته في تسهيل الصعاب امام ولى عهده ، من خلال تلك التوجيهات التى يقدم له فيها عصارة تجربته السياسية ، وخلاصة تفكيره .

وهى الى ذلك تقدم لنا صورة مزدوجة عن الحكم الربضى ، فهو سياسى مدرك لشروط النجاح في ادارة دفة الحكم ، وطريقة سياسة الرعية ، الى غير ذلك من الامور التى نص عليها مبرزا قيمتها ، وهو اديب بارع يحسن التعبير عن افكاره باسلوب يحتفل فيه عناصر الاقتناع المناسبة ، مما يدل على تكوين ادبي رفيع .

---

(3) انظر نصها في : دولة الاسلام في الاندلس ص : 245 ط 3/1960 ـ القاهرة ، ويذكر الاستاذ محمد عبد الله عنان انه نقلها من مخطوط لابن حيان يمثل قطعة من (المقتبس) كانت فى حوزة ليفي بروفنسال ، كما يذكر انها وردت فيه بروايتين: رواية الرازي ، ورواية معاوية بن هشام الشبينسي ، فنسق بينهما ليخرج النص الذي أورده في كتابه المذكور ، أنظر هامش : 1 من الصفحة نفسها .

وذكرها أيضا صاحب ذكر بلاد الاندلس (مجهول) مع اختلاف بين روايته ورواية الاستاذ عنان أحيانا .

(4) ذكر بلاد الاندلس لمؤلف مجهول ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم : 85ج ص : 112 ، وفي نص الاستاذ عنان بعض التفصيل في هذه الفقرة الاخيرة .

2 ـ اما الامير عبد الرحمن الاوسط فتختلف ظروف وصيته عن ظروف وصية سلفه ، فقد ضجر من سوء خلق ابنه المنذر وكثرة شكواه . ويتضح ذلك من هذا الوصف الذى يصفه به المقرى اذ يقول :

« وكان المنذر ابن الامير عبد الرحمان الاوسط سيء الخلق في اول امره ، كثير الاصغاء الى أقوال الوشاة ، مفرط القلق مما يقال في جانبه ، معاتبا على ذلك لمن يقدر على معاقبته ، مكثر التشكي ممن لا يقدر عليه لوالده الامير عبد الرحمان » (5) .

فلما طال ذلك على الامير نفاه الى موضع بعيد منقطع عن العمران ، وعزله عن اصحابه ، فلم يعد يتصل به احد ، الى ان احس بوطاة الوحدة واشتاق الى غلمانه واصحابه ، وعلم ما اراده ابوه من محنته وتاديبه فكتب اليه :

« اني قد توحشت في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وعدمت فيه من كنت آنس اليه واصبحت مسلوب العز فقيد الامر والنهى ، فان كان ذلك عقابا لذنب كبير ارتكبته وعلمه مولاي ولم اعلمه فاني صابر على تاديبه ، ضارع اليه في عفوه وصفحه :

وان امير المؤمنين وفعله
لكالدهر ، لا عار بما فعل الدهر » (6)

فلما وقف الامير على رقعته ، وعلم ان الادب بلغ به حقه ، واستيقن ان وسيلته قد نجحت في التربية السياسية ، استدعاه وقدم بين يديه وصية توجيهية كان لها كبير الاثر في ابراز حسن قصده ، ونصحه بعدم العودة الى مثل ما كان عليه ، واوصاه بالتجاوز عما يرى ويسمع من اساءة عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

ومما جاء في هذه الوصية ، قوله يوصيه بصفة خاصة بمعاني الامور ، وفي مقدمتها التغاضي ، ويقدم بين يديه خلاصة تجربته الشخصية :

« وانك لذو همة ومطمح ، ومن يكن هكذا يصبر ويغض ويحمل ، ويبدل العقاب بالثواب ، ويصير الاعداء من قبيل الاصحاب ، ويصبر من الشخص على ما يسوء ، فقد يرى منه بعد ذلك ما يسر ، ولقد يخف على اليوم من قاسيت من فعله وقوله ، ولو قطعتهم عضوا عضوا لما ارتكبوه مني ما شفيت منهم غيظي ، ولكن رايت الاغضاء والاحتمال ، لاسيما عند الاقتدار ، اولى ، ونظرت الى جميع من حولي ممن يحسن ويسيء فوجدت القلوب متقاربة بعضها من بعض ، ونظرت الى المسيء يعود محسنا ، والمحسن يعود مسيئا ، وصرت أندم على من سبق له مني عقاب ، ولا أندم على من سبق له مني ثواب ، فالزم يا بني معالي الامور ، وان جماعها في التغاضي ، ومن لايتغاضى لايسلم له صاحب ولايقرب منه جانب ، ولاينال ما تترقى اليه همته ، ولا يظفر باملة ، ولايجد معينا حين يحتاج اليه » (7) .

ومع ان معالي الامور تختلف من حالة لاخرى ، ولا سيما فيما يقدم منها ، فان عبد الرحمان في جعله التغاضي رأس المعالي ، ينطلق من حالة خاصة ، هي حالة ابنه الأمير الشاب الذي ينتظر منه كل ما يرضيه ، ليكون جديرا بما قد يسند اليه من مناصب رفيعة .

وقد كان لهذا الدرس ، وتلك الوصية ، اثر في نفسه وتغيير سلوكه ، ولاسيما أن ذلك كله نابع من نفس صادقة وعاطفة ابوية متلهفة الى أن يكون هذا الابن في مستوي المسؤولية طموحا وسلوكا ، وقد عقب المقري على هذه الوصية بقوله : « ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه به والده حتى تخلق بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به ابوه ، ورفع قدره » (8) .

وتختلف هذه الوصية عن سابقتها في كونها جاءت خلاصة لحوار دار بين الأمير عبد الرحمان وابنه ، وأنها جاءت في وقت مبكر ، ولم يحتفظ بها الى أواخر حياته ، لان سلوك ابنه كان يستدعي درسا ووصية في الوقت المناسب ، ونتيجة لذلك جاءت مختلفة في طبيعة موضوعها ايضا فهي لاتركز على توجيه الامير

(5) نفح الطيب للمقري : جـ 574/3 ـ 575 تحقيق د. احسان عباس .
(6) نفسه ص : 575 .
(7) نفسه ص : 576 .
(8) نفسه ص : 576 ـ 577 .

توجيها سياسيا معينا كما راينا في وصيـة الحكم الربضي ، بل تقوم على اعطائه درسا في الاخـلاق والسلوك ، وهو من قبيل التربية السياسية الموجهة بحكم انتمائه لبيت الامارة .

وقد اعتمد الامير عبد الرحمان في سبيـل اقناع ابنه ، زيادة على النفي والابعاد ، على اطلاعه علـى خلاصة تجربته ورؤيته الشخصية للامور ، كما دعاه الى التامل الشخصي في السلوك البشري ، انطلاقا من الحديث النبوي الذي يسوقه في هذا المجال .

3 ـ ولعل وصية الحاجب المنصور محمد بن ابي عامر لابنه عبد الملك المظفر اكمل النماذج واكثرها شمولا ، واوضحها دلالة على الاهداف مـن الوصيـة بالنسبة لما سبق ، ولاسيما الوصية السياسية ، فقد أوصى المنصـور ابنه عبـد الملـك في مرضـه الاخير (9) .

واستهل وصيته بدعوته الى الالتزام براي أبيه وسلوكه السياسي واتخاذه نموذجا ومثالا يحتذيه ويقتدي به .

وبعد هذا التمهيد ، نجده يسير في وصيته علـى طريقة الحكـم الربضـي في وصيتـه السابقـة الـذكـر ، فيذكـره بجهـوده في تـوطيـد الامــور في المجالات السياسية والعسكرية والمالية . وهـي مجالات أعم وأشمل واكثر تفصيلا عند المنصور ممـا جاء في وصية الامير الحكم الربضي ، ثم يخلص الـى تقديم نصائحه وتـوجيهاته في المجـالات المذكـورة ، فينهاه عن الاسراف في الانفاق سواء من جانبه أم من جانب عماله ، ويدعوه الى القصد في الامـور تجنبـا لـلاختـلال .

كذلك ينصحه بالتثبت وعدم التسرع في ما يرفع اليه من قضايا للنظر فيها ، ويقدم له صورة عن الرعية التي قومها ، فسكنت الى لين الجانب ، واصبح املها ان تأمن البادرة .

ويتطرق الى علاقته بالخليفة الاموي هشام المؤيد، فيدعوه الى عدم التخوف من هذا الخليفة المحجور عليه لما يعلمه من استكانته ، لكنه يحـذره من اتباعـه وانصاره ، وممن يحاول استغلال الامور باسمـه مـن الامويين أوغيرهم من المقربين اليه ، ويشدد على ابنه عبد الملك في ضرورة الاحتراس من هؤلاء واولئك ، وضرورة تضييق الخناق عليهم ، ومعاجلتهم لاقـل بادرة منهم ، مما يؤكد ما عرف به المنصور بن أبي عامر من ميل الى الشدة في مواجهة الخصوم والمناوئين، غير انه في الوقت نفسـه ينصحه بصيانة حقوق الخليفة ، والقيام بنفقته تجنبا للحنث في يمين البيعة .

ويعبر المنصور عن رغبته القوية في أن يستمر استبداد ابنه بالامر وانفراده به دون صاحبه الشرعي الذي يرميه في هذه الوصية بالجهل والعجز ، وكأنـه بذلك يهدف الى تهوين أمره عليه ، ولكنه يري أن ذلك لا يمكن ان يتم الا اذا تمسك بالكتـاب والسنـة ، ولاشك أن هذا التمسك يضمن تاييـد الرعية لـه ، ويجعله ينال رضى الفقهاء لما لهم من دور في توجيه الامـور .

وينتقل بعد ذلك الى بعض التوجيهات الخاصة التي يمكن ان يستفيد منها عند الضرورة ، فينصحه باتخاذ المال المخزون عند والدته ذخيرة لمملكته ليعود اليه عند الحاجة ، ويدعوه الى المحافظـة عليـه كما يحافظ على جوارحه ، فلايبذله الا عند الشدة .

ويتحدث له عن اخيه عبد الرحمان فيخبره انـه اعطاه نصيبه دفعا للخلاف الذي يمكن ان يؤدي الـى انهيار الدولة ونفوذ العامريين ، ويدعوه الى عدم أذاه هو وسائر اهله ، وخلال ذلك يبدو المنصور بعيـد النظرة شديد الاحتيـاط حريصا اشـد الحـرص على استمرار قوة نفوذ العامريين ، مدركا لما يمكن أن يؤول اليه الامر عند نشوب الخلاف بين الاخوة حول أمور الحكم والسياسة .

ويعود مرة أخري الـى تحذيره مـن بني امية وشيعتهم بنوع من التفصيل ، ويؤكد ضرورة التزام الحزم تجاههم وعدم الاطمئنان اليهم بأي وجه مـن الوجوه ، وفي كل الاحوال ، وخلال ذلك يرسم له سبيل الخلاص والنجاة ان شعر بالخطر .

ويظهر من الحاح المنصور في هذه الوصية على تحذير ابنه عبد الملك من بني اميـة وانصارهـم ، ونهيه عن التعاون معهم ، ادراكه خطورة ما اقترفه في حقهم من استئثار بالسلطة ، وحجر علـى الخليفـة الشرعي هشام ، وتضائه مناوئيه ومعارضيـه منهم

(9) وكان ذلك في غزوته الاخيرة حيث عادها محمولا على سرير الى ان اسلم الروح .

وضرب بعضهم ببعض ، ولاشك أنه كان يعرف تربصهم به وبابنائه وتحينهم الفرصة للانتقام واستعادة ما سلبه منهم .

ويتضح ما سبقت الاشارة اليه بالرجوع الى الوصية التي احتفظ لنا بها ابن بسام الشنتريني (ت 542 هـ) رواية عن شيخ مؤرخي الاندلس أبي مروان حيان بن خلف بن حيان (377 هـ ــ 469 هـ) الذي رواها بدوره عن أبيه خلف ابن حسين بن حيان الذي كان كاتبا للمنصور بن ابي عامر ملازما له ولابنه عبد الملك المظفر من بعده ، مطلعا على اسرار الدولة ، وعنه نقل ابنه كثيرا من الاحداث التي عاصرها مثل مصرع صديقه الوزير الكاتب عبد الملك بن ادريس الجزيري، ووصية المنصور لابنه ، وغير ذلك من الاحداث في عهد الحجابة ، وعهد الفتنة القرطبية ، (10) ، وقد سمع الوصية المذكورة مباشرة ، ونصها (11) .

« يابني ، لست تجد انصح لك مني فلا تعدين مشورتي ، فقد جردت لك رأيي ورويتي على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثالا بين يديك .

قد وطات لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات اوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها . واستكثرت لك من اطعمتها وعددها ، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك في الانفاق، ولا تقبض لظلمة اعمال،فيختل امرك سريعا، فكل سرف راجع الى اختلال لا محالة ، فاقتصد في أمرك جهدك .

واستثبت فيما يرفع اهل السعاية اليك ، والرعاية قدا ستقصيت لك تقويمها ، واعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن الى لين الجنبة .

وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لاياتيك من قلبه شيء تكرهه ، والافة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولاترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على اقل بادرة ، مع قيامك باسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لاصحابك شيء يقيم الحنث في يمين البيعة الا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فاما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بنوته من جهله وعجزه عنه ، فاني ارجو اني واياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة .

والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك . وعدة لحاجة تنزل بك ، فاقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لاتبتذلها الا عند الشدة تخاف منها على سائر جسدك .

ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . واخوك عبد الرحمان قد صيرت اليه في حياتي ما رجوت اني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساغا بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقص امري ، ويجلب الفاقرة على دولتي ، وقد كفيتك الحيرة فيه فاكفه الحيف منك، وكذلك سائر اهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي ، وخلافتك بعدي اجدى عليهم مما صرفته ، فلا تضيع امر جميعهم ، والحظهم بعيني ، فانك ابوهم بعدي ، فخرج ذكورهم باستخدامك ، والحق اناثهم جناحك ، جبر الله جماعتهم ، واحسن الخلافة عليكم .

فان انقادت لك الامور بالحضرة فهذا وجه العمل . وسبيل السيرة ، وان اعتاصت عليك فلا تلقين بيدك القاء الامة ، ولاتطبيك (12) واصحابك السلامة متنسوا ماكم في نفوس بني امية وشيعتهم بقرطبة . فان تاوءت من توثب عليك منهم فلا تدخل عن الحرم

(10) انظر ترجمة الدكتور محمود علي مكي لابن حيان القرطبي ووالده خلف في مقدمة تحقيقه لكتاب المقتبس ص : 8 وما بعدها ، دار الكتاب العربي بيروت 1973 م .

(11) انظر نصها في : الاخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني القسم الرابع / المجلد الاول ص : 76 ــ 77 تحقيق د. احسان عباس . دار الثقافة ــ بيروت ــ ط الاولى : 1399 هـ ــ 1979 م .

(12) تطبيك : من قولهم : اطباه : دعاه ، وفي بعض النسخ الخطية من الذخيرة : ولاتنظربك وبأصحابك السلامة . . .

فيهم ، وان خنت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك الى بعض الاطراف التي حصنتها لك ، واختبر غدك ان أنكرت يومك ، وإياك ان تضع يدك فيد مرواني ما طاوعتك بنانك ، فاني أعرف ذنبي اليهم » .

ولم يكتف المنصور بوصية ابنه عبد الملك ، بل اوصى غلمانه أيضا ، وحثهم على طاعته ، وكرر عليهم الدعوة الى التنبه لبني أمية وعدم الاطمئنان اليهم ، او الانخداع بوعودهم ، ودعاهم الى الوحدة ونسيان الاحقاد فيما بينهم ، والى ضرورة الالتفاف حول عبد الملك ، ومما جاء في تلك الوصية التي احتفظ بها ابن بسام ايضا رواية عن أبي مروان القرطبي عن ابيه (13) .

« تنبهوا لامركم ، واحفظوا نعمة الله عليكم ، في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولاتغرنكم بوارق بني أمية ، ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحق عليهم ، فليس يراسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي ،

وملاك امركم ان تنسوا الاحقاد ، وان تكون جماعتكم كرجل واحد ، فانه لا يفل فيكم » .

ويشير خلف بن حيان الى ان المنصور ما زال يكرر هذا وشبهه لطائفة بعد أخرى من غلمانه حتى ضعف وشغل بنفسه (14) .

ومن خلال هذه الوصية المزدوجة لابنه ولغلمانه ، تظهر ملامح من صوره المنصور وشخصيته السياسية ، ومع ان الوصية واحدة في الحقيقة ، لان الثانية بمثابة ذيل للاولى وتكملة لها ، فان اعلان موقفه من بني أمية وشيعتهم ، والدعوة الى الحذر منهم قد تكررت فيهما معا ، مما يجعل ذلك فكرة محورية يركز عليها أكثر من غيرها ، وهو موقف يدل على ما وراءه ، ويعكس حقيقة الخلاف بينه وبين الامويين .

أما طريقته فتتميز بمهارة وقدرة على اختيار الالفاظ والعبارات ، والتصرف فيهما في أسلوب مرسل في الغالب ، بعيد عن التكلف او الزخرفة ، واضح المعاني ، قوي الحجة ، ولا غرو في ذلك ، فقد كان المنصور فى بداية حياته كاتبا للرسائل ، وكان اسلوبه من جملة الوسائل التي ساعدته على الارتقاء ، الى جانب ذكائه وحنكته وبعد نظرته ، وبذلك يظهر جانب آخر من جوانب شخصية المنصور المتعددة ، وهو شخصيته الادبية في مجال النثر السياسي ، كما ان ظروف الوصية جعلتها بعيدة عن الصنعة والتكلف والتنميق ، تعتمد البساطة والمباشرة في التعبير ، ولكنها لاتخلو من القيمة الفنية التي تجعلها من ابرز نماذج فن الوصايا على عهد الامويين في الاندلس .

وتبقى هذه الوصية ، مع النموذجين السابقين ، وثائق سياسية بالدرجة الاولى تحمل دلالات عديدة بالنسبة لادب السياسة فى القديم من جهة، وبالنسبة للموصين وما يركزون عليه من قضايا وامور تمثل محور اهتماماتهم من جهة أخرى ، ولاشك أن الاهتمام بهذا النوع من فن القول ذو فوائد عديدة بالنسبة للاديب والمؤرخ والسياسي على السواء ، فاذا تعلق الامر ببيئة اسلامية ذات مكانة خاصة في نفس كل عربي ومسلم هي الاندلس ، زادت قيمة هذا الاهتمام وعظمت فوائده، وما اكثر الموضوعات والوثائق الاندلسية التي تحتاج الى كشف ودراسة .

وجدة — علي لغزيوي

---

(13) الذخيرة ق 4 / م 1 ص : 77 — 78 .
(14) نفسه ص : 78 .

حول ثقافة الطفل

للأستاذ مصطفى بغداد .

ينبغي في البداية ان نحدد متى يكون الطفل مستعدا للتعلم ، ذلك ان ثلاثة محاور لايضاح هذا الاستعداد يقف عندها الدارسون ، ميل الطفل الى التعلم ، واستمرار ميله الى فترة طويلة من الوقت، ثم التقدم الذي يمكن ان يحرزه بالممارسة ، يقول الدكتور طلعت منصور في بحثه عن تنشيط نمو الطفل عالم الفكر أكتوبر 1979 : وحينما يأخذ ميل الطفل الى التلاشي بسرعة أو حينما لايبدي تحسنا ملحوظا بالرغم من الممارسة المستمرة ، لنا أن نتساءل ونتشكك في استعداده للتعلم ؛ ولعل هناك مدرستين مهمتين تثبتان هذا الاستعداد أولاهما يطلقون عليها مدرسة جنيف (بياجيه انهيلدر) وهي تذهب الى تقييد دور التعلم معتبرة ان التعلم يخضع لقوانين النمو ، والمدرسة الثانية تقر بالدور المسيطر للتعلم في النمو ، وتعتبر أن التعلم يوسع من امكانيات النمو ، وقد يسرع به ويباشر تاثيرا بالغا ليس فحسب على تتابع المراحل في تفكير الاطفال ، ولكن ايضا على نفس طبيعة هذه المراحل .

ولابد هنا أن نشير الى حالة الاستعداد او التهيؤ التي تحقق بدرجة كبيرة خلال استجابات الطفل للمثيرات الداخلية ، وهو ما يطلق عليه بلوم مصطلح الاستعداد النمائي ، والعامل الذي ينبغي أن يوضح بالضرورة في الاعتبار مع ذلك هو التوقيت مع الاعتراف بأن التعلم سواء في المجال الذهني أو الاجتماعي او الحركي يتحقق على نحو أفضل حينما يكون ما نقدمه للطفل من الناحية التربوية موقوتا بحالة الاستعداد أو النضج لدي الطفل ، والمصطلح الثاني ، اللحظة المواتية للتعلم لروبرت هافيجرست وهو يؤكد أن جهود الطفل تضيع سدي اذا جاءت في فترة مبكرة قبل الاوان في حين أنها تأتي بنتائج مجزية في اللحظة المواتيـة .

ومع ذلك فان لبعض الاطفال خصائص ذاتية لايتمتع بها الا القليل كالطفل الذي أجاد اللعب على الارغن ولم يتعد الخامسة من العمر ، وعلى العكس من ذلك البرت اينشتاين الذي لم يتكلم قبل الثالثة وأنه كان يتعثر في لغته حتى التاسعة ، وان أبويه خشيا عليه أن يكون متخلفا عقليا .

ولعل الاسئلة المهمة التي يجب أن تطرح عنا ، كيف يصل الطفل الى معارفه وثقافته كالقدرة على القراءة والكتابة والتعامل بالارقام او التهيؤ لفهم الآخرين والتفاعل معهم بما يناسب الموقف او التوتر لعمل الاشياء او توليد الافكار او مواجهة المشاكل؟ يجيب الاستاذ الفت حقي في بحثه القيم ثقافة الطفل ، عالم الفكر اكتوبر 1979 : يساعده في الوصول الى هذا كله قدرته على المادة وأسلوبه في اختيار المنهج علاوة على اسلوب محيطه في تقديم المادة التي توصله الى أهدافه ، وتنتهي هذه العمليات المتصلة بتكوينه النفسي والعقلي الى تكامل وظيفي بينه وبين بيئته يسمى ثقافته ، ويضيف الاستاذ الفت حقي في نفس البحث : يدرك الطفل الاشياء والتغيرات الحادثة حوله

لان له حواسا تعد لذلك، ودوافع تنشط ادراكه، وقسطا مما نسميه بالذكاء يتعامل به ليصل الى المعرفة ويختزنها ، وهذه هي الخصائص الذاتية التي تساعم بها من ناحيته في عملية تثقيفه ، وهي صفات لا حصر لـهـا .

ولكي نتقدم في تحليل هذا الموضوع سنعرض بعض وجهات النظر المتعلقة بالمجالات التي تؤكد المسار الحقيقي للطفل ، يقول الاستاذ محمد الجوهري في بحثه عن الطفل والتراث الشعبي (اكتوبر 1979 مجلة عالم الفكر) : التركيز على الاعداد الفردي للطفل حرمه من اللعب ، ومن الغناء ، وصرف نظر الوالدين عن كثير من اركان عملية التربية الحقيقية ، لان المزيد هو تحصيل المزيد من التعليم ، وتحقيق النجاح الفردي في المستقبل ، ويؤكد الاستاذ محمد الجوهرى في آخر بحثه هذا ان الطفل في مجتمع كثير من البلاد النامية اليوم دخل في سياق الصعود الطبقي فارهقت ملكاته واستنفدت في اغلب الاحيان لغير ما خلقت لـه فاصبح هذا الطفل أقل سعادة واقل طفولة .

ويجدر بنا هنا أن نحدد زمان الطفولة ، اذ ان هناك اختلافات متعددة في هـذا الصـدد ، فالبعض يري أن هذا الزمان يبدأ منذ بداية الحمل ، والبعض يربطه بالتسمية ، والاخر بالختان ، وبعضهم يحدده بالسنة الرابعة ، وقد يؤخره البعض الى السادسة أو العاشرة ، ويرى آخرون ضرورة تأخيره الى سن البلوغ وهي مسألة معقدة وشائكة كما يؤكد على ذلك الكثير من علماء النفس .

ومن ثم يحث الكثير من المربين والمهتمين على أن الاهتمام بهذه المراحل كلها وضرورة الاعتناء بها ومعالجتها ، ذلك أنهم لاحظوا أن الاهتمام يقتصر فقط على تربية الطفل بالمدرسة أو التعليم المدرسي كأساس حقيقي لبناء شخصية الطفل ، يقول الدكتور فيولا البيلاوي في بحثه بمجلة عالم الفكر اكتوبر 1979 : الطفل لا ينمو من تلقاء نفسه فهو يتشكل ويتغير ويرتقي كشخصية سوية بقدر ما توفر له في الوسط الانساني الاجتماعي الذي يعيش فيـه من عوامـل التربية ومقوماتها ، بل اننا لنستطيع بتربية رشيدة أن نشكل هذا الكائن الحي بمواصفات تجسد الجوهر الحقيقي للانسان ، ويطلعنا الدكتور فيولا البيلاوي على أهمية هذا الجانب في بحثه الاطفال واللعب : لاشك أن الالعاب التي يقوم فيها الطفل بالاستكشاف والتجميع وغيرها من اشكال اللعب والذي يميز مرحلـه الطفولة المتأخرة تثرى حياتهم العقلية بمعـارف جمة ، مـن العالم الذي يحيط بهم ، وبمهارات معرفية تمكنهم من هذا العالم ، لا يستطيع الحصول عليها من الكتـب المدرسية وحدها ، ومـن شـان القراءة والرحـلات والموسيقى والبرامج التلفزيونية أن توسع من الافاق المعرفية للطفل ، بالاضافة الى ما تجلبه الى نفسه من بهجة وسرور ، وفي اللعب يتعلم الطفل الكثير عن نفسه وقدراتـه ، ويستنتـج البيلاوى أن الطفل في نشاطه هذا يقوم بتحقيـق عملية علاجية هامة وهي تفريغ رغباته المكبوتة ونزعاته ومخاوفه وتوتراتـه واتجاهاته ونقلها من داخله أي اخراجها الى الخارج أى الى اللغة أو أدوار اللعبة ، فتراه احيانا ينهر دمية بعنف ، أويعاتبها بلهجة درامية مؤثـرة ، وربمـا يحطمها بلاهوادة ولعل المبدأ الاساسي ، تعرفونهـم من لعبهم يمكن ان يستفيد منه كبار في فهم الاطفال والدخول الى عالمهم المتميز ، فمن خلال لعب الاطفال يكتشف الكثير عنهم ومن انشطة اللعب يكتشـف الكبار مواهب الاطفال وقدراتهم وابتكاراتهم منذ سـن مبكرة ، وبالتالي يمكن رعاية هذه الامكانات وتعهدها بالتنمية منذ السنوات التكوينية الاولى .

والجانب الذى يهمنا هنا هو الالعاب الثقافيـة كما يحب الاستاذ البيلاوي أن يسميها، ذلك ان للطفولة ثقافتها التي تعبر عن حاجة اصيلة وهي الحاجة الـى الاستطلاع كما تبدو في النزعة الى التعرف على العالم المحيط بهم والى ادراك العلاقات فيه ، والى الرغبة في المعرفة ، وتعكس ثقافة الاطفال من ناحية أخرى أسلوب حياة الجماعة كما يتضح في النواحي المادية والعلمية والرمزية التي يهيئا الكبار لعالـم الصغار ، وفي فلسفة وأساليب تنشئة الكبار للصغار ، ومـن الاساليب الهامة في تثقيف الطفل ما يعرف بالالعاب الثقافية حيث يكتسب الطفل أساسا معلومات ومعارف وخبرات من خلال نشاط مثير باهتمامه يأخذ شكل اللعب بدرجة كبيرة ، ومن ثم يكتسب زادا معرفيا من الاشكال والنماذج المختلفة كالقراءة وبرامج الاطفال والسينمـا والمسـرح .

ويمكن هنا أن نعرض ما قالته المربية الايطالية ماريا منتيسورى : اننا لاندرك تماما ما قد ينجم مـن آثار ونتائج وخيمة اذا نحن خنقنا منذ البداية كـل

عمل تلقائي يمكن أن يصدر عن الطفل بمجرد أن يبدي الطفل رغبه أو ميلا أو اداء ذلك العمل ، لاننا قد تحقق فيه بذلك الحياة ذاتها ، فالانسانية تكتشف عن نفسها وعن كل ما فيها من روعة ومن سمو عقلي في تلك السن المبكـرة .

ويتضح هذا النمو بالفعل من خلال اجابات الاطفال انفسهم عن عشرة اسئلة وجهتها منظمة اليونسكو الى اطفال العالم متوخية الوصول الى فهم أعمق لمشكلات الطفل والطفولة ، ومن هذه الامثلة نسوق اجابة طفـل يبلغ من العمر احدى عشر سنة عن السؤال التاسـع : هل تعتقد انه يجب اعطاء الاطفال فرصة أكبر لاتخـاذ القرارات فيجيب : نعم ، ان الكبار يعتقدون أنهم وحدهم الذين يستطيعون اتخاذ قرارات تتعلق بالاطفال حتى في الحالات التي يجب أن يكون القرار هو قـرار الطفل نفسه ، فقد يقولون مثلا : انتـي أشعر بالبرد ولذا فمن 'الافضل أن ترتدى سترتك دون أن يهتموا بسؤال الطفل اذا كان يشعر بالبرد ام لا ، وانما هم يفترضـون أن الطفل لابد ان يشعر بالبرد لانهم هـــم أنفسهم يشعرون بــه .

اذن يتضح من خلال المثال الذى سقناه أن عالم الاطفال عالم رحب ومجـال فسيح كما يبـرز لنا أن للاطفال آراء ووجهات نظر في كل ما يقومون بــه من انشطة والعاب وممارسات ، ومن هنا كانت الكثير من النظريات التربوية تؤكد ضرورة اعتماد الطفل علـى امكاناته وقدراته ومهاراته ، ويكفي هنا أن نشير الى قولة روسو المعرفة : أن فلسفتنـا أعيننـا وأيدينـا وارجلنا ، ومن هنا فان دور الحضانة يمكن أن تكون فرصة مواتية لاثراء ذاكرة الاطفال بتصورات جديدة عـن الحيوانـات والنباتات ، عن المدينة والحيـاة الاجتماعية ، وكذلك أطفال الرابعة والخامسـة وهم يحفظون الاناشيد ، ويحكون عن أمهم ويرسمون وفقا لتصوراتهم ويسترجعون ما يرونه في الحياة من أشياء وموضوعات ، وبالتحاق الاطفال بالمدرسة يستوعبون مجموعة من المفاهيم والتي تؤدي بدورها الى المزيد من ارشاد وتنمية الحياة العقلية عند الاطفال .

ويهمنا في هذا الصدد ما قاله الاستاذ حقي في بحثه السابق الذكر من أن اثراء الثقافة المطروحة أمام الطفل مسؤولية مجتمعة ، فاذا لم يصعد رصيدها دائما فان اقتصاديات هذه الثقافة الموازية يصيبها الكسـاد لا بالنسبة لنفسها فحسب ، ولكن بالمقارنة بالثقافة عموما ، لان معيار التقدم فى اي مجال ليس الازديـاد في القوة والسرعة فحسب ، ولكن في الفرق بينه وبـين الاخر في التطور .

ومن ثم يعتمد الطفل أساسا على الوسائل التعليمية التي يقدمها له مجتمعه بل ويعتمد على ذلك في كثير من العادات الخاصة لحياته ومأكله وفهمـــه للامـراض والعدوى والعلاج والوقاية ، وحيث ان المجتمع يوفر له ايضا قوانين مسكنة ثم حمايته من الطبيعـــة ومن المجتمعات الاخري ، فان الطفل يولد وثقافته هذه رهينة بعطاء هذا المجتمع ، وقد صدق الرسول الكريم عندما قال : كل مولود على الفطرة فابواه يهودانه أو يمجسانه او ينصرانه وقد اهتم المربون بهذه الجوانب اهتماما كبيرا ، يقول أفلاطون في وصية تهذيب الاحـداث : كونوا لهؤلاء التلاميذ مرآة صافية مضيئـة وامتنعـوا عن الشهوات المذمومة وأفعال الخطايا ، ولاتقربوا شيئا يلحتكم منه أذى ، ولنا في تراثنا العربي نظريات وآراء فى هذا المجال ، من ذلك مثلا نظرية الســجيات المكنونة والتي تقول بأن عقل الولد له سجيات قابلـــة بالقوة لان تنمو وتنشأ بالفعل اذا تيسرت لها شروط التربية ، وقد شبهوا السجية المكنونة في العقل بالحبة المدفونة في الارض ، ومن ذلك قول ابن المقفع في الادب الصغير : للعقول سجيات وغرائز بها تقبل الادب ، وبالادب تنمو العقول وتزكو كالحبة المدفونـة في الارض لاتقدر أن تخلع يبسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الارض بزهرتها الا بمعونة الـمـاء .

ومن جملة ما قاله المربون العرب في هذا الموضوع رسالة الغزالي أيها الولد ، يقول الغزالي : أيها الولد كم من ليال أحييتها للعلم ومطالعة الكتب وحرمت على نفسك النوم ، لا أعلم ما كان الباعث فيـك ، ان كان نيل غرض الدنيا وجذب حطامها ، وتحصيل مناصبها والمباهاة على الاقرن والامثال فويل لك ثم ويل ، وان كان قصدك احياء شريعة الرسول وتهذيب أخلاقـــك وكسر النفس الامارة بالسوء ، فطوبى لك طوبى .

وقريبا من هذا المعنى يؤكد الفارابى في رسالته السياسية على أن المعلم ينبغي أن يحمل المتعلمين على تهذيب أخلاقهم وأن لايعلمهم شيئا من العلوم التي اذا عرفوها استعملوها فيما لا يجب .

ومن أهم هذه الاراء التربوية قولة الامام علي بن أبي طالب : علموا بنيكم أخلاقا غير أخلاقكم لانهم خلقوا لزمان غير زمانكم .

الا تذكرنا هذه القولة بما يسمى الان بالتربية الدائمة او المستمرة ، وبالسهر على تكوين النشء تكوينا ملائما وطبقا للتطورات التكنولوجية والعلمية .

ولكي نتقدم في تحليل الموضوع نسوق فكرة جبران خليل جبران قد اوردها في كتابه النبي : ان أولادكم ليسوا أولادكم ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكا لكم، أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبتكم، ولكنكم لاتقدرون أن تغرسوا فيهم افكاركم ، لان لهم افكار خاصة بهم .

بالطبع أن لهم افكارا خاصة بهم ، هذه الافكار التي يوظفها الاطفال في دراساتهم وقراءاتهم وأنشطتهم ، ويتجلى ذلك واضحا في ميولاتهم ورغباتهم ، ولذلك تؤكد البيداغوجية الحديثة على ضرورة استمالتهم وبعث الرغبة فيهم والتحبيب والتشويق ، وهو ما أسماه بياجيه بالتلقائية : من الخطا الفادح أن الطفل يكتسب مفهوم العدد وغيره من المفاهيم الرياضية بطريقة مباشرة في التعلم ، وعلى العكس من ذلك ينمو لديه الى حد كبير بطريقة مستقلة تلقائية ، واذا حاول الكبار فرض المفاهيم الرياضية على الطفل قبل الاوان ، فانه سوف يتعلمها فقط بطريقة قائمة على اللفظية فالفهم الحقيقي يأتي مع نموه العقلي .

وهذا أيضا واضح من خلال ابداعات الطفل وابتكاراته ومساهماته ، بل ان المربين يؤكدون على استكشاف ما للطفل من طاقات هائلة وافكارا وصور وأخيلة مما يشكل ثقافته وادبه وفكره ، وهذا ما يوضح أيضا ميول الاطفال ورغباتهم الاكيدة في المشاركة والاشتراك في المجلات التي يرتاحون اليها، ويتفاعلون معها ، خصوصا في مجالات الحكاية والقصة والتمثيلية والقصيدة الهادئة الخفيفة والمرحة ، ومن ثم نجد هذه الرغبة لديهم تدفعهم الى تشخيص أو الرغبة في التشخيص لهذه التمثيليات ، وكذلك في التقليد ،و في المناقشة والاستنتاجات والتساؤلات وفي فضول الاطفال الذي يؤدي الى رصيد معرفي هام .

وتأسيسا على ذلك تكون هذه الثقافة ملتزمة بقضايا الطفل وعالمه الزاخر بالصور والافكار ، ومن ثم يمكن استغلال هذه المواقف للتعرف على لغته وحواره ومشاكله ، ان المربين الذين اهتموا بهذا الميدان لم يخطئوا عندما فكروا في طرق تربوية ومناهج تعليمية ملائمة للطفل ومراعية لبيئته وظروفه ومناخه ، وعلى هذا الاساس كان هربرت سبنسر ينادي بالتربية الصحية والتعليمية والاجتماعية والنفسية والثقافية ، وعلى هذا الاساس كان جون ديوى يفكر في طريقته التي أسماها المشروع ، وعلى هذا الاساس نادى المربون بنظرية الترويض انطلاقا من نظرية أفلاطون القائلة بأن عقل الانسان يروض جسمه ، ومن النظريات ايضا نظرية التكيف القائلة بأن التربية هي عملية تكيف أو تفاعل ما بين المتعلم وبيئته ، وبمقتضى هذه النظرية تعتبر وظيفة المعلم مساعدة المتعلم على تكيف نفسه ، مع بيئته ، ذلك ان النشء متكل في هذا الطور الخطير من حياته ، ويكون في امس الحاجة الى من يرشده ويرعاه ،

ويكفي أن نشير هنا الى اسماء بعض المربين الاخرين لنشير بالتالي الى مجهوداتهم في هذا المجال ، والتي تنصب على دراسة الطفل والبحث عن انجع الطرق لتثقيفه وتوجيهه واعداده ، فهناك دكرولى وطريقته وهناك دالتي ، وفروبول وغيرهم ،

ويمكن لنا الان أن نتساءل عن حظ الطفل المغربي من التربية والتعليم والثقافة ، وبالرغم من المجهودات التي بذلت في هذا الصدد خصوصا في الفترة الاخيرة ، بالرغم من ذلك فالواقع يقول ان طفلنا يتلقى ثقافات لا ترتبط بتاتا بواقعه الذي اصبح يضج بالتطورات التكنولوجية والمستجدات العلمية ، واصبحت وسائل الاعلام تخاطبه بلغة اخرى لا تمت له بصلة ، بل تعكس في ذهنهوتغرس في وجدانهصورا وعالما آخرا بعيدا كل البعد عن دينه وأصالته وحضارته وبيئته ، ثم الى جانب ذلك يحتضنه تيار تربوي لا زال لم يتبلور بعد ، ولم تكتمل صورته ، واذا كان علماء التربية يتفقون على ان الانسان يحتاج الى التربية لان التراث لا ينتقل من جيل الى جيل بالوراثة،ولان الطفل مخلوق كثير الاتكال، والان البيئة نفسها كثيرة التعقيد ، اذا كان الامر كذلك

مما أحوجنا الان الى التفكير في هذا الجيل الذى أصبح بالفعل كثير الاتكال ، وأصبحت بيئته أكثر تعقيدا وتأزما وأصبح تراثه معرضا للبتر والنهب والتشويه والمسخ بالاضافة الى انه بعيد عنه ،

ولتوضيح ذلك اكثر نقول ان الطفل المغربي يجب ان يعرف لغته ويحسنها ويعرف العابه ويردد اغانيه وتمثيلياته ،

وفي هذا العالم الزاخر بالحركة والافكار والاراء والاتجاهات يغيب أديبنا عن الطفل والطفولة لبعيث أحلامه غير مبال بهذا العالم الخصب الذى تعصف به العواصف الهوجاء ، وفي هذا العالم تغيب صحافتنا وكل وسائل الاعلام لتترك المجال لكل التيارات الجارفة التي تهش كياننا وأصالتنا ، وعندما نكون في مستوى ما يتطلبه الموقف سنقول بصوت صادق : أولادنا أكبادنا تمشي على الارض .

العدد الخاص بعيد العرش المجيد

●● تستعد أسرة التحرير لإصدار العدد الممتاز الخاص بعيد العرش السعيد في مطلع مارس القادم.

وتهيب (دعوة الحق) بالسادة الكتاب إلى موافاتها بإنتاجهم في وقت قريب ●●

في صحافة المغرب منذ 35 سنة :

فضل المغرب على الحضارة البشرية

مصدران كان لهما أثر بعيد في تشويه التاريخ المغربي :

رسالة الشقندي وكتابات دوزي

للأستاذ محمد عزيمان

●● ابتداء من هذا العدد ننشر مختارات مما ضمته مجموعات الصحف والمجلات المغربية قبل الاستقلال . ونبدا بنشر مقال قيم للاستاذ امحمد عزيمان احد كتاب ورجال النهضة التعليمية والثقافية بشمال المملكة بمدينة تطوان نشره في مجلة (المعرفة) بعددها رقم 7 السنة الاولى ، فبراير سنة 1948 ●●

ظاهرة غريبة تصادم القارىء المغربي لمعظم ما الف في المشرق في العهود الاخيرة من مؤلفات في تاريخ الادب العربي هي اعمال الادب المغربي ورمي البلاد المغربية بالعقم الفكري والتحط الادبي ونعت دولتي المرابطين والموحدين بالجهل والجفاء واعتبار عهدهما في الاندلس عهد تقهقر وانحطاط واتهامهما بالقضاء على النهضة الفكرية التي كانت تزخر بها بلاد الاندلس من قبل ... الى غير ذلك من انواع التهم ،

ولا يكاد يخلو من هذه النزعة كتاب من الكتب المدرسية وغير المدرسية المتداولة في تاريخ الادب العربي ولا يسلم منها الشيخ الاسكندري ولا علام سلامة ـ رحمهما الله ـ ولا مؤلفو «المجمل» و «المفصل» ولا شوقي نفسه في قصة : « اميرة الاندلس » واذكر انه في سنة 1935 وكنت اذ ذاك طالبا بدار العلوم العليا بمصر كنا نتلقى دروس الادب المغربي والاندلسي على الشيخ علام سلامة وكانت « مذكراته » التي بايدى الطلبة حافلة بعبارات التنقيص والنيل من الفكر المغربي والادب المغربي ومن دولتي المرابطين والموحدين ، واذا لا حظنا ان مدرسة دار العلوم هي التي يتخرج فيها اساتذة اللغة العربية وآدابها للمدارس المصرية ، وان افواجا من طلاب البلاد العربية والاسلامية الاخرى يؤمونها حتى اذا انهوا دراستهم عادوا الى بلادهم فاشتغلوا بتدريس الادب العربي وهم يحملون عن تاريخ المغرب وادبه تلك الفكرة المشوهة فيبثونها في طلابهم ـ

ادركنا خطر تلك الدروس واثرها في تربية الناشئة العربية والاسلامية على احتقار الادب المغربي والنظر الى الدول المغربية العظمى كدول مخربة تحارب العلم والحضارة ، وقد ظهر اثر ذلك في بعض الكتب التي الفها بعض خريجي دار العلوم ككتاب « المطرب في ادب الاندلس والمغرب » الذي ردد المطاعن الموجهة الى الادب المغربي كما وردت في مذكرات الشيخ علام سلامة بالنص ، وقد ظللت زمنا استغرب هذه الحملة الموجهة ضد ادبنا وتاريخنا واجهل اصلها ومصدرها حتى كنت يوما اقرأ في كتاب «نفح الطيب» للمقرى واذا بي اجد تلك المطاعن التي اعهدها في مذكرات الشيخ سلامة بنصها وفصها وقد وردت في مناظرة وقعت بين اسماعيل بن محمد الشقندى الاندلسي المتوفى باشبيلية سنة 629 هـ وبين ابي يحيى بن المعلم الطنجي في التفضيل بين المغرب والاندلس ، فعمد الشيخ علام سلامة ـ رحمه الله وعفا عنه ـ الى مطاعن الشقندي في المغرب و نقلها في مذكراته بحروفها دون نسبتها الى اصلها واعتبرها فصل الخطاب في الحكم على المغرب والمغاربة وعلى تاريخ المغرب وادبه وظل يلقنها طلبة دار العلوم عهدا طويلا فيتلقونها احكاما مسلمة ويبثونها في تلاميذهم جيلا بعد جيل وان كانت قائمة على اساس او هي من بيت العنكبوت .

فرسالة الشقندى في فضل الاندلس هي المصدر الاول من مصدرين خطيرين كان لهما اثر بعيد في تشويه تاريخ المغرب وهناك مصدر آخر ربما كان اعظم منها خطورة وابعد اثرا وذلك هو ما كتبه المستشرق الهولاندى دوزى المتوفى بلندن سنة 1883 م عن المرابطين وبالاخص في كتابيه : « مباحث في تاريخ اسبانيا وادبها اثناء العصور الوسطى » و « تاريخ مسلمي اسبانيا » فان دوزى على تضلعه وسعة اطلاعه على التاريخ الاندلسي كان يضمر للمرابطين عداء شديدا ويحقد عليهم قضاءهم على ملوك الطوائف الذين كان يعطف عليهم ويتعصب لهم اشد التعصب وبالاخص للمعتمد بن عباد منهم ، وقد ادى به حبه لملوك الطوائف وبغضه للمرابطين الى اصدار احكام جائرة عليهم حتى زعم « ان الاندلس تحولت في عهدهم من الحضارة الى الهمجية وحل الهوس محل الذكاء والتعصب محل التسامح » وقد كان لاحكام دوزى على المرابطين تأثير عميق على المشتغلين بالدراسات الاندلسية من الشرقيين والغربيين الذين ظهروا بعده فتلقوا احكامه بالقبول والتسليم ورددوها في مؤلفاتهم ومباحثهم ولم يجرؤ احد من الباحثين في التاريخ الاندلسي على مناقشة آراء دوزى واحكامه على المرابطين حتى تصدى لذلك المستعرب الاسباني ضون فرانسيسكو كديرا المتوفى سنة 1917 .

رسالة الشقندى وكتابات دوزى مصدران خطيران في تشويه سمعة المغرب وانكار فضله وقد اثر الشقندي في الطبقة التي لا تعرف اللغات الاجنبية وتعتمد في بحثها على المصادر العربية واثر دوزى في الباحثين الغربيين بل وفي الباحثين الشرقيين الذين يتأثرون بما يكتب عن التاريخ العربي في اللغات الاجنبية ويتلقونه بالقداسة والتسليم .

ومن واجبنا نحن المغاربة ان نعرف هذين المصدرين الخطيرين وان ندرس المطاعن الموجهة فيهما الى ادبنا وتاريخنا لنرى هل تقوم على اساس من الحق يؤيده العلم والتاريخ أو انما هي احكام طائشة صادرة عن التعصب والهوى يكذبها التاريخ الصحيح ويبطلها البحث العلمي النزيه .

رسالة الشقندى

روى المقري في « نفح الطيب » (1) عن ابن سعيد قال : اخبرني والدي قال : كنت يوما في مجلس صاحب سبتة ابي يحيى بن ابى زكريا صهر ناصر بنى عبد المومن فجرى بين ابي الوليد الشقندي وبين ابي يحيى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين فقال الشقندى : لولا الاندلس لم يذكر بر العدوة ولا سارت عنه فضيلة ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم فقال الامير ابو يحيى: اتريد ان تقول كون اهل برنا عربا واهل بركم بربرا ؟ فقال حاش لله . فقال الامير : والله ما اردت غير هذا فظهر في وجهه انه اراد ذلك . فقال ابن المعلم : اتقول هذا وما الملك والفضل الا من بر العدوة . فقال الامير : الراي عندي ان يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول

(1) الجزء الثاني ، صحيفة : 138 ـ المطبعة الازهرية .

ويمر ضياعا وارجو اذا اخليتما له فكر كما ان يصدر عنكما ما يحسن تخليده . ففعلا (2) ذلك .

وبعد قص هذه الحكاية التي تدل على مقدار تسامح امير سبتة الموحدى الذى راى الشفندى يغض من قدر بلاده في مجلسه ويعرض بالبربر والامير منهم والدولة لهم والمغرب والاندلس تحت حكمهم فلم يغضب عليه ولم يامر بتاديبه وعقابه بل طلب منه ان يتوسع في الموضوع ويؤلف فيه رسالة يشرح فيها رأيه وتمنى له النجاح في مهمته حتى يأتي بما يحسن تخليده ـ يورد صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد نص الرسالة التي كتبها الشفندى ، وطبيعي ان يتعمد الشفندى في هذه الرسالة انكار فضل المغرب وما فيه من علم وادب وحضارة لان الشفندى كان بصدد مناظرة خصمه ومن طبيعة المناظر ان ينكر كل مزية لخصمه وان يستصغر فضائله ويكبر عيوبه ونقائصه . يأتى صاحب نفح الطيب برسالة الشفندى في تفضيل الاندلس على المغرب ولا يتبعها بجواب ابي يحيى الطنجي في تفضيل المغرب على الاندلس . على فرض انه كان مطلعا عليها ـ وهو معذور في ذلك لانه الف كتابه في تاريخ الاندلس لا في تاريخ المغرب وجاء برسالة الشفندى في معرض الاستشهاد على نبوغ الاندلسيين وتفوقهم في فنون العلم والادب وبما ان رسالة ابي يحيى الطنجي تتعلق بالمغرب فهي خارجة عن موضوعه ولم يدعه داع للاتيان بها .

ولعل الشفندى نفسه لم يقصد الغض من قدر الحضارة المغربية ولم يكن يريد الا اظهار البراعة الادبية كما هو الشان في المناظرات في معظم الاحيان وما كان يخطر بباله ان رسالته ستصبح فصل الخطاب في الحكم على الحضارة المغربية والادب المغربي وان عباراتها ستدمج ادماجا في هذه المؤلفات المدرسية دون اشارة الى اصلها ولا الى صاحبها ولا الى ظروف كتابتها ثم تقدم الى الطلاب باسم تاريخ الادب المغربي فيتلقاها الطلاب ويبثونها في تلاميذهم كما تلقوها وما فيهم من سمع باسم الشفندى ولا عرف ان تلك الاحكام الجائرة التي يرمي بها تاريخ المغرب الادبي انما هي جمل مسروقة من مناظرة جرت منذ اكثر من سبعمائة سنة في ظروف خاصة معينة ان دلت على شيء فانما تدل على تسامح المغاربة وحمايتهم للادب ورعايتهم لحرية الفكر والقول هذا مثال يبين لنا كيف تلقى الاحكام عن التاريخ المغربي جزافا دون بحث ولا روية ولا تدقيق ، وكيف ان تلك الصورة المشوهة التي تقدم الى الناشئة العربية عن تاريخ الادب المغربى لا تقوم على اساس من العلم والتحقيق ، وانما تستند على السفسطة والتلفيق والى القارىء بعض فقرات من رسالة الشفندى وهي الفقرات التي يرددها الطاعنون في الادب المغربى ، يقول الشفندى مخاطبا مناظره : « وبالله الا سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ابسقموت الحاجب ام بصالح البرغواطي ام بيوسف بن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشعراء الاندلس في مدحه ما أجروا له ذكرا ولا رفعوا لملكه قدرا وبعد ما ذكروه بوساطة المعتصم بن عباد فان المعتمد قال له وقد انشدوه : أيعلم امير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا اعلم ولكنهم يطلبون الخبز ، ولما انصرف عن المعتمد الى حضرة ملكه كتب له [illegible] رسالة فيها .

بنتم وبنا فما [illegible] جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

يكاد حين تناجيكم [illegible]
يقضي [illegible]بنا الاسى لولا تاسينا

فلما قرىء عليه هذان [illegible] كان قال للقارىء : يطلب منا جوارى سودا وبيضا قال : لا يا مولاى ما اراد الا ان ليله كان بقرب امير المسلمين نهارا لان ليالي السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا ، لان ليالي الحزن ليالي سود فقال : والله جيد ، اكتب له في جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ورؤوسنا توجعنا من بعده ، فليت العباس بن الاحنف قد عاش حتى يتعلم من هذا الفاضل رقة الشوق .

لا تنكرن مهما رأيت مقدما
على حمر بغلا فثم تناسب

فاسكتوا فلولا هذه الدولة ما كان لكم عن الناس صولة .

---

(2) يرى بعض الادباء ان ابا يحيى الطنجي لم يكتب رسالة ، وانفرد الشفندي برسالته في تفضيل الاندلس ولكن النص الذي يورده المقري نقلا عن ابن سعيد صريح في انهما معا كتبا رسالتيهما لانه يقول فعلا ذلك ، ولعل البحث يظهر رسالة ابي يحيى الطنجي في المستقبل .

وان الورد يقطف من قتـــاد
وان النار تقبس من رماد .

هذا نموذج من كلام الشفندى . واذا قمنا اليوم بمناقشة هذا الكلام البدىء وباعادة النظر في احكام الشفندى ودوزى على المرابطين فليس معنى ذلك اننا نريد احياء نزاع جدلي في تفضيل المغرب على الاندلس او الاندلس على المغرب بعد ان مضت على هذا النزاع قرون طويلة ولا تعصب للمغاربة ضد الاندلسيين فقد كان المغرب والاندلس في ظل الاسلام شيئـــا واحدا ، هنا وهناك امة واحدة من العرب والبربر والايبريين امتزجت والتحمت في ظـل الاسلام والثقافة العربيـــة ، وكـل فضيلـــة تنسب الـى الاندلسيين ففضلها في الحقيقة عائد على العرب جميعا وعلى المغاربة بصفة خاصة لان المغاربة والاندلسيين كما قلنا امة واحدة ، ولان المغاربة هم الذين فتحوا الاندلس وادخلوها في دائرة العروبة والاســـلام فمهدوا بذلك السبيل لقيام الحضارة الاندلسيـــة الخالدة ثم كانوا على الدوام حماتها المدافعيـــن وبفضل جيوشهم المرابطة في الثغور وامداداتهـم المتوالية استطاعت الحضارة العربية في الاندلس ان تحافظ على نفسها ما حافظت من قرون وتمكــن الاندلسيون من اقامة ما اقاموه من مدنية وعمران .

فالمغاربة لا يغارون من الاشادة بالحضـــارة الاندلسية بل انهم ليترنحون طربا لذكرها ، والامـة العربية كافة في المشرق والمغرب تعتز بالحضـــارة العربية في الاندلس وتتغنى بأمجادها ومفاخرها ؛ لان الحضارة العربية الاسلامية في الحقيقة ســـواء في المشرق او المغرب ميراث مشترك بين العرب جميعا فنحن هنا في المغرب نفخر بكل ما ظهر منها في العراق او في الشام او في مصر او غيرها من بلاد المشـــرق والمشارقة يعتزون بكل ما ظهر منها في الاندلس وبلاد المغرب . ولكن المؤرخين جروا على تقسيم البـــلاد العربية الى وحدتين : المشرق والمغرب فهم يعتبرون بلاد المغرب وحدة تاريخية وفكرية من حدود مصـر الى تخوم الاندلس لارتباط تاريخ هذه البلاد بعضه ببعض وتقاربها في الاقليم الجغرافي ورجوع سكانها الى اصل متقارب فاذا تكلموا عما قامت به هذه البلاد من خدمة العلم والحضارة وما ظهر فيها من حركـــة علمية وفكرية اعطوا الاندلس حقها من الاشـــادة والثناء ، وغمط بعضهم بلاد المغرب حقها ورموها بما تقدمت نماذج منه من الاتهامات ولذلك فنحـن الان حين نناقش هذه التهم فلسنا نريد احياء النـــزاع بين العدوتين ولا اثارة التعصب بين المشـــرق والمغرب وهما في العروبة صنوان وانما نريـــد انصاف بلاد المغرب ورد التهم الباطلة التى ترمـي بها بغير حق

وبعد فما هى التهم التي يرددها الشفنـــدى ودوزى ويصوران تاريخ المغرب بسببها صـــورة محرفة شوهاء ؟

ترجع هذه التهم الى عمل يوسف بن تاشفين حين فتح الاندلس وقضى على حكم ملوك الطوائـف وقبض على المعتمد بن عباد ووحد المغرب والاندلس تحت حكم المرابطين فقام بعض صنائع ملـــوك الطوائف يبكون عهدهم الذاهب وينعتون يوســـف بن تاشفين بالجهل والجفاء . ويرمون عهد المرابطين في الاندلس بانه عهد الهمجية والتعصب خمدت فيـه شعلة الفكر وانطفات انوار العلــــوم والاداب لان المغاربة امة جهل وتعصب وجفاء لا تقدر العلـــم والحضارة ولا تحفل بالعلوم والاداب . هذه هـــى التهم التى يرددها الشفندى ودوزى فما هي حقيقـة الامر في هذه القضيـــة ؟

تتلخص القصة ــ كما هو معـــروف ــ في ان الاندلس كانت عند قيام دولة المرابطين بالمغـــرب قد تمزقت اوصالها بين ملوك الطوائف الذيـــن اشتعلت بينهم نار الحرب والمنافسة وساموا الامة الاندلسية خسفا وارهاقا وابتزوا اموالها لتبذيرهـا في حروبهم الداخلية التي ضعضعوا بها قوة الاسلام في الاندلس وتبديدها في الملاهى والشهوات التـــي تجاوزوا فيها حدود الطيش والاسراف فبلغت احوال المسلمين نهاية الانحلال والفساد وطمع فيهـــم اعداؤهم وانتقضوا بلادهم من اطرافهـــا فلما رأى المسلمون الخطر الدائم قر رايهم على الاستغاثـــة بيوسف بن تاشفين فلبى يوسف النداء وعبـــرت جيوش المرابطين البحر الى الاندلس وانتصـــرت في وقعة الزلاقة الشهيرة سنة 469 هـ وبذلك دفعت عن الاندلس خطر السقوط الدائم والموت المحتوم . وبعد هذا الانتصار الباهر رجع يوسف بجيوشه الى المغرب الا نجدات تركها لحماية الاندلسيين وتـــرك امور الاندلس في يد ملوك الطوائف ولكن هؤلاء مـــا لبثوا ان عادوا الى عدواتهم الطائفية وحروبهـــم

الداخلية ، بل تحالف بعضهم مع ملوك المسيحية لمحاربة المسلمين فثارت ثائرة الشعب الاندلسي ضد هؤلاء الملوك وافتى العلماء والفقهاء في المشرق والمغرب بوجوب خلعهم وتوجهت الانظار مرة ثانية الى يوسف بن تاشفين ليتدارك امر المسلمين في الاندلس قبل فواتا لاوان فاجتاز البحر مرة اخرى وقضى على حكم ملوك الطوائف نهائيا وضم الاندلس الى حكم المرابطين وامر بالقبض على بعض ملوكهم ومنهم المعتمد بن عباد ملك اشبيلية اتقاء لخطر تآمرهم ضد الدولة الاسلامية سعيا في استرداد عروشهم المفقودة .

هذه هي الحوادث التاريخية التي يصورون يوسف بسببها بصورة صحراوى جلف دفعته شهوة التسلط الى الاعتداء على ملوك الطوائف وانتزاع ملكهم من ايديهم والتطويح بعروشهم والقذف بهم الى السجون والواقع ان الشعب الاندلسي الذى ثقلت عليه وطأة هؤلاء الملوك ورأى الخطر محدقا به من كل جانب هو الذى ارسل الرسل وبعث الرسائل الى يوسف يستنجده ويستغيث به ، وان ملوك الطوائف انفسهم لما سقط في ايديهم وراوا انهم قد ضلوا وشاهدوا بأعينهم ما جرته سيرتهم على البلاد من الخطر بادروا وعلى راسهم المعتمد بن عباد الى طلب النجدة من المرابطين وارسلوا الى يوسف وفدا مؤلفا من الوزير ابن زيدون. وقاضي قرطبة عبد الله بن ادهم مندوبين عن المعتمد وقاضي غرناطة مندوبا عن اميرها ابن حبوس الصنهاجي وقاضي بطليوس عن اميرها . وقصد المعتمد نفسه المغرب مستغيثا بيوسف على ما في بعض الروايات . وقد استقبل يوسف عندما دخل الاندلس للمرة الاولى من جميع ملوك الطوائف بالتجلة والتكريم، فيوسف لم يذهب الى الاندلس طامعا في امتلاكها وانما ذهب تلبية لاستغاثة اهلها . وقد روى ابن ابي زرع ان يوسف اثناء اجتيازه بلاد الاندلس الى الزلاقة وعند الرجوع منها قد تجنب النزول بالمدن والقرى وسار في العراء ورجع في العراء تورعا وتكرما وتخفيفا للمؤونة على الناس . وقد تورع عن فيء الزلاقة واباحه لملوك الطوائف .

اما قصة قضائه بعد ذلك على دول الطوائف فيقول عنها ابن خلدون : « جاز يوسف بن تاشفين البحر الى الاندلس الجواز الثانى سنة 486 وتثاقل امراء الطوائف عن لقائه لما احسوامن نكيره عليهم لما يسومون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم وعهد برفع المكوس وتحرى العدالة .

ويقول ابن خلدون ايضا : « ان الفقهاء بالاندلس طلبوا من يوسف – يريد عند جوازه الاول الى الاندلس – رفع المكوس والمظالم فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف واجابوه بالامتثال حتى اذا رجع عن بلادهم رجعوا الى حالتهم فلما جاز ثانية انقبضوا عنه ،، وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن امير المسلمين ومحلاته فساء نظره وافتاه الفقهاء واهل الشورى من المغرب والاندلس بخلعهم وانتزاع الامر من ايديهم وصارت اليه بذلك فتاوى اهل المشرق الاعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما » .

فهؤلاء الملوك الذين ارهقوا الرعية طغيانا وظلما وعرضوا الحضارة العربية بالاندلس للسقوط والاضمحلال وتعالت الاصوات بالشكوى من سيرتهم من الرعية والعلماء لم يكن من المصلحة الاسلامية ولا من مصلحة الحضارة الانسانية عامة ولا من العدل في شيء ان تبقى بلاد الاندلس تئن تحت حكمهم ممزقة الاوصال معرضة للخطر بل كانت المصلحة كلها في ان تتوحد البلاد في يد ملك قوى يعرف كيف يحمي حضارتها ويرعى حقوق رعيتها وذلك ما عمله يوسف فكان عمله من اشرف الاعمال وانبلها ومن مفاخره الخالدة التي يجب ان تذكر دائما مقرونة بالثناء والاعجاب ويجب ان نصغى بمزيد الحيطة والحذر الى اقوال اذناب ملوك الطوائف الذين حرمهم يوسف عيشهم الرغد الهنيء على حساب الشعب وان لا يخدعنا ما قاموا به ضد يوسف بن تاشفين من « الدعاية » الزائفة وان ننظر الى المسالة من وجهة المصلحة الاسلامية والمصلحة الانسانية العامة لا من وجهة نظر طائفة محدودة من الانتفاعيين.

أما القول بان الحركة العلمية والفكرية قد ضعفت في عهد المرابطين فتكذبه النصوص التاريخية ويكذبه العدد الكبير ممن عاش في ظل المرابطين من العلماء والادباء والشعراء والمؤلفين يقول عبد الواحد المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » :

انقطع الى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى اشبهت

حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار فممن كتب لامير المسلمين : ابو بكر بن القصيرة احد رجال الفصاحة والحائز قصب السبق في البلاغة على طريقة قدماء الكتاب من! بشار جزل الالفاظ وصحيح المعاني من غير التفات الى الاسجاع التى اخذها متاخروا الكتاب ،، ثم كتب له ولابنه بعد ابى بكر هذا : الوزير الاجل ابو محمد عبد المجيد بن عبدون الذى اشتهر شهرة الامثال وسار ذكره سير الجنوب والشمال »

ويقول المراكشي ايضا عن امير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين : « ولم يزل أمير المسلمين من اول امارته يستدعى اعيان الكتاب من جزيرة الاندلس وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك كابى القاسم الجد المعروف بالاحدب احد رجال البلاغة وابي محمد بن ابى الخصال واخيه مروان في جماعة يكثر ذكرهم » .

وعصر المرابطين هو الذى ظهر فيه زيادة على من ذكر من الكتاب : ابن بسام صاحب الذخيرة فى محاسن اهل الجزيرة وهو من انفس ما خلفته الاندلس من الاثار الادبية ، وابو القاسم بن بشكوال صاحب الصلة فى تاريخ علماء الاندلس ، وعبد الله بن ابراهيم الحجازي صاحب المسهب في فضائل أهل المغرب ، والفتح ابن خاقان صاحب قلائد العقيان والادريسى ، وابن سهل ، وابن ابي الصلت الدانى ، وابن قزمان مبتكر فن الزجل الذى كان الاصل الذى سار الشعر الاوربي على نهجه كما اثبت ذلك البحث العلمى الحديث .

اما قدح الشقندي في يوسف بن تاشفين بانه لا يتذوق الادب أو لا يحسن فهم الشعر فهو ترديد لكلام صنائع ملوك الطوائف من الشعراء والمداحين الذين لم يجدوا عند يوسف ما الفوه عند ملوك الطوائف من حياة الاستهتار والمجون فنعتوه بانه لا يقدر الادب والفن ونسبوا اليه اقاصيص من نوع ما تقدم في رسالة الشقندى ، ولنسلم لهم ان يوسف لم يكن يحسن فهم الشعر وتذوقه فماذا يضره ذلك وهو مؤسس دولة ورجل حرب وسياسة ؟ أترانا نعيب اليوم رؤساء الحكومات ونصف دولهم بالجهل والتاخر اذا كانوا لا يقرضون الشعر أو لا يحسنون تدبيج رسائل الاشواق ؟

نكتفى اليوم بهذا القدر من الكلام على رسالة الشقندى اما اراء دوزى في المرابطين وردود كديرا عليهما فستكون موضوعا لمقال آت بحول الله .

امحمد عزيمان

مجلة (المعرفة) العدد 7
السنة الاولى فبراير 1948

●● ننشر في العدد القادم مختارات من مقالات مجلة (السلام) التي صدرت سنة 1933 لصاحبها الاستاذ محمد داود ●●

تمرّد قرطبة على المرابطين

للأستاذ عبد القادر زمامة

شهدت عاصمة قرطبة الصراعات الاخيرة التي شبت بعد انهيار حجابة العامريين وظهر فيها على مسرح الفتنة عدد من الامراء الامويين والحموديين ممن تسلقوا أمواج الاحداث ورفعتهم مغامراتهم الى أعلى المناصب وافخم الالقاب .

كما شهدت صفحة أخرى بعد قيام نظام ملوك الطوائف حيث كانت عاصمة الخلافة الاموية مطمع عدد من رجال هذا النظام للتغلب عليها وجعلها تابعة لسلطتهم ومنطلقا لتحقيق أحلامهم ، وكانت الصراعات بين بني جهور وبني ذي النون قبل ان يستولي عليها بنو عباد ملوك اشبيلية ، وتعرف نوعا من النظام والاستقرار رغم أن مجدها العلمي وتفوقها الحضاري لم يبق منهما منذ ودعت عصرها الذهبي في ظل عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وحجابة المنصور ابن أبي عامر .

وفشل نظام ملوك الطوائف واستنجد أهل الخبرة منهم بملك المغرب يوسف بن تاشفين ليوقف الزحف الصليبي الذي بدأ وكان سيل جارف يريد استغلال الظروف المواتية التي مزقت البلاد كل ممزق ! وكان طي صفحة نظام ملوك الطوائف عملا سعى اليه أهل الرأي والمشورة من علماء الاندلس ، كما سعى اليه المرابطون بما قاموا به من عمل عسكري بعد تجارب لم تجد نفعا ولم تحقق أملا . !

وبطبيعة الحال فان خروج الاندلس من نظام الى نظام ومن استقلال الى تبعية أملتها ظروف التخاذل والتهاون والتمزق جعل رد الفعل في نفوس الاندلسيين تختلف بواعثه كما تختلف مظاهره في طبقات الناس ومجتمعاتهم بين راضي وساخط ومؤيد ومعارض ، لكن شخصية يوسف بن تاشفين وأصداء انتصاراته ومواقفه في الذب عن الاندلس وحماية حوزتها وما نشره في نفوس أهلها من أمل ورجاء وآفاق واسعة للعمل .

كل ذلك كان ـ الى جانب صرامته وتيقظه وعدله ـ مرعاة لهدوء الافكار وطمانينة النفوس والتغاضي عن اعمال بعض القواد والحكام المرابطين الذين كانوا يلابسون أهل الاندلس ويحتكون بهم أثناء ممارسة اعمالهم العسكرية والادارية والتنظيمية فيظهر منهم العدل والظلم والخطأ والصواب والاعتدال والتهور والانضباط والتحدي .

ودارس الادب العربي في الاندلس في هذه الحقبة يستطيع ان يلمس شعر الشعراء وكتابة الكتاب ما يشعر بهذا في عدة أصداء خلفها هؤلاء عن يوسف بن تاشفين ورجال الحكم في الاندلس من المرابطين ، طيلة العشرين سنة التي لابس فيها هذا الملك العظيم قضية الاندلس مجاهدا وحاكما ومنظما ، ، ! الى ان ودع هذه الحياة سنة 500 هـ .

وكان عمل ابن علي بن يوسف بالنسبة الى الاندلس عملا أملته استمرارية السياسة المرابطية في التصدي

والدفاع عن الحوزة وبذل الجهد والـدم دون توان ولا تردد ، ومن أجل ذلك اجتاز الى الساحة الاندلسية عدة مرات كوالده مجاهدا وحاكما ومنظما ، ، ! وقد انتصرت جيوشه في عدة معارك فاصلة ،، !

والحكام والقواد المرابطون في الاندلس على عهد علي بن يوسف كانوا في نفس المستوي الذى كانوا فيه على عهد والده ، عدلوا وظلموا وأصابوا واخطأوا ولكل ذلك اصداء معروفة في الادب العربي بالاندلس لا مجال لذكرها الان .

وكانت قرطبة ـ رغم كل ما نزل بها من نكبات ، تحتفظ لها نفوس الاندلسيين بمكانة خاصة لما تضم من بيوتات العلم وخزائن الكتب واعلام المعرفة النابهين والجميع له احساس بماضي هذه العاصمة وعزة أهلها وشهرة معالمها وتكتل سكانها عندما يشعـرون بسـوء المعاملة وتجاوز الحدود من طرف الحاكمين ، ، !

في هذا الاطار نريد أن نتحدث هنا عن ذلك التمرد القرطبي الذي حدث على عهد علي بن يوسف بن تاشفين والذى تدخل فيه القاضي ابو الوليد ابن رشد ـ الجد ـ كما تدخل فيه بن يوسف نفسه واجتاز الى الاندلس من مراكش من أجل السهر على اطفاء شعلته واخماد انفاسه ، وكان ذلك هو جوازه الرابع .

يحدثنا المؤرخ ابن الاثير في كتابه ـ الكامل ـ عن سبب هذا التمرد فيقول :

انامير المسلمين استعمل على قرطبة ابا بكر يحي بن رواد فلما كان يوم الاضحى خرج الناس متفرجين فمد عبد من عبيد أبي بكر يده الـى امـرأة فامسكها فاستغاثت بالمسلمين فاغاثوها فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة ودامت جميع النهار والحرب بينهم على ساق ، فادركهم الليل فتفرقوا فوصل الخبر الـى الامير أبي بكر فاجتمع اليه الفقهاء والاعيان فقالوا : المصلحة أن تقتل واحدا من العبيد الذين أثاروا الفتنة فانكر ذلك وغضب منه ، وأصبح من الغد وأظهر السلاح والعدد يريد قتال اهل البلد ، فركب الفقهاء والاعيان والشبان من اهل البلد وقاتلوه فهزموه وتحصن بالقصر فحصروه وتسلقوا اليه ، فهرب منهم بعد مشقة وتعب فنهبوا القصر واحرقوا جميـع دور المرابطـين ونهبوا اموالهم واخرجوهم من البلدعلى اقبح صورة ،، !

واتصل ذلك الخبر بامير المسلمـين فكره ذلك واستعظمه وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم فاجتمـع لـه منهم جمع عظيم فعبـر اليهم سنة 515 هـ وحصر مدينة قرطبة فقاتله أهلها قتال من يحمي دمه وحريمه ومالـه ، ، !

فلما راي أمير المسلمين شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا في الصلح فاجابهم الى ذلك على أن يغرم أهل قرطبة للمرابطين ما نهبوه من أموالهم واستقرت القاعدة على ذلك وعاد عن قتالهم (1) ،،

كما يحدثنا مؤلف كتاب ـ الحلل الموشيـة ـ عن هذا التمرد في جمل قصيرة وعبارات مقتضبة ويشير الى أن علماء قرطبة أفتوا الناس بجواز قيامهم بواجب القتال دفاعا عن الحرم وحماية للحوزة (2) .

وبالتعمق في فهم نص صاحب الحلل الموشية وربطه بما نعرفه من أخبار وظروف التمردات التي وقعت في الاندلس لمقاومة سلطة وسلـوك القـواد والحكام المرابطين نجد ان طبيعة هذه التمردات كانت تنبثق من رجال السلطة المعنوية على الجماهير الشعبية وفيهم القضاة والفقهاء والشيوخ المرموقون فلئن كان المرابطون بعملهم العسكري من قواد وأمراء ومغامرين فانهم لـم يكن في امكانهم ان يفعلوا مثل ذلك فيما يرجع للقضاة والفقهاء وشيوخ الرأي ولاسيما في قرطبـة ، ، !

فالتمرد القرطبي على المرابطين تمرد قادته السلطة المعنوية لايقاف هذا الوالي عند حده ولافهام السلطة العليا في مراكش ان هناك مشاعر حساسة يجب ان يحسبوا لها حسابها ، وان جماعة الفقهاء والقضـــاة وشيوخ الـرأي ـ وقد اعتمد عليهـم المرابطـون في سياستهم ـ لم يكونوا لينسـوا مكانتهم او ليتجاهلوا رسـالتهـم ، ، !

على ان التاريخ يشهد ان امير المسلمين علي بن يوسف بـن تاشفيـن كان لا يالـوا جهـدا في تقديم تعليماته من مراكش الى حكام الاندلس من المرابطين

---

1 ـ الكامل لابن الاثير ج، 10 ص 392

2 ـ الحلل الموشية ص 86 ، ط. البيضاء 1979م

ويحضهم في كل مناسبة ومراسلة على افاق ميزان الحق والتحلي بالصبر والعفة واستعمال الرفق واللين مع الاندلسيين ومع أهل قرطبة بنوع خاص ، ، ، ! (3) عملا بوصية والده يوسف بن تاشفين ، وتأبى الاحداث في قرطبة الا ان تقحم ابن رشد ــ الجو ــ وهو القاضي الشهير الذي طبقت شهرته الآفاق لعلمه ونزاهته وحصافة رايه واهتمامه بشؤون بلدته التي تري فيه رجل الراي السديد والنفوذ المعنوي على خاصة اهلها وعامتهم .

وكان ابن رشد قد تولى منصب قضاء قرطبة سنة 511 هـ برغبة والحاح من امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، ويذكر المؤرخون ان ابن رشد كان كارها لهذه التولية وحاول التنصل من أعبائها شأنه في ذلك شان أهل النزاعة والعفة ، الا ان الحاح أمير المسلمين لم يترك له اختيارا ،، ! (4)

وتام التمرد في قرطبة على المرابطين والوالي ابن رواد بالخصوص ، وقد مر على تولية ابن رشد القضاء بها مدة أربع سنوات كان فيها مثلا عاليا في الاستقامة والنزاهة وفصل الاحكام بانصاف المظلوم والضرب على يد الظالم ،، !

عندما وصل علي بن يوسف الى قرطبة ليعالج هذا التمرد وجد في ابن رشد رجل الموقف النبيل والراي السديد الذي لا يحابي واليا ولا يداهن أميرا ولا يغش من اختاروه للدفاع عن حقوقهم من أهل قرطبة ، ، ،

ودار حوار بين ابن رشد وابن تاشفين وعمل كل منهما على وقف هذا التمرد واطفاءجذوته وعودةالحياة الى مجراها الطبيعي بعد أن تحددت المسؤوليات ونال كل من الوالي المرابط والمتمردين عليه ما تمليه النزاهة وتفرضه العدالة .

ويجدر بنا هنا ان نفتح قوسين أملت علينا الضرورة فتحهما لتصحيح اغلوطة وتفنيد مقولة حول امير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين ، سبق للمراكشي في كتابه ــ المعجب ــ ان ذكرها فرددها الدارسون والمؤرخون والباحثون ، ، ! وهي تصور هذا الامير ضعيفا مستضعفا مغلوبا على امره عاكفا على العبادة مهملا أمور الرعية غاية الاهمال ، ! (5)

والواقع التاريخي في معارك الاندلس وحروب المغرب مع ابن تومرت يشهد بخلاف ذلك ، وكلام المراكشي في المعجب لا يعدو أن يكون من قبيل ما كان يذيعه في الناس أنصار دولة الموحدين ويكفي في تصحيح الاغلوطة وتفنيد هذه المقولة ماكتبه لسان الدين ابن الخطيب في ترجمة هذا الامير وما وصفه به من الفضل والاعتدال والقيام بواجب الدفاع عن الحوزة (6) .

وانطفات جذوة هذا التمرد بفضل حكمة ابن تاشفين وحصافة راي ابن رشد ، واستغل هذا الاخير المناسبة فقدم استقالته من منصب قضاء الجماعة بقرطبة معتذرا بعدة اعتذرات منها : أن يريد التفرغ لاتمام مدونته الفقهية الكبرى : (البيان والتحصيل) وقد ابتدا العمل فيها سنة 506 هـ كما يذكر ذلك في مقدمة هذا الكتاب المخطوط .

وكان هذا التمرد القرطبي ــ رغم القضاء عليه في مهده ــ سابقة شر ونذير شؤم فقد توالت الاحداث بعده في الاندلس والمغرب تحاول هدم نظام المرابطين ، ففي الاندلس كان الزحف الصليبي يثير الرعبوالهلع! والتذمر من الحكام المرابطين يثير الفوضى والشقاق ! اما في المغرب فكان ابن تومرت قد تمكن من تنفيذ خطته ضدا على المرابطين ودولتهم ، ، ،

فاس : عبد القادر زمامة

3 ــ ابن عذاري ج 4 ص 63 ، والحلل الموشية ص : 87 .
4 ــ شجرة النور الزكية ص 242
5 ــ المعجب ص : 177 ، ط . القاهرة 1949 .
6 ــ القسم الثالث من اعمال الاعلام ص 253 ، الدار البيضاء 1964 م

فهارس المخطوطات العلمية بالخزانة الحسنية

(المجلد الثالث)

من الكتب الجديدة التي صدرت مؤخـرا في المغرب كتاب (فهارس الخزانة الحسنية) ـ المجلد الثالث الخاص بمخطوطات الرياضيات والفلك واحكام النجوم والجغرافيا من تصنيف الاستاذ محمد العربي الخطابي . يقع الكتاب في 523 صفحة من الحجم الكبير ، ويضم 589 كتابا من نفائس الخزانة المغربية في العلوم الآنفة الذكر قدمها المصنف تقديما وصفا مستوفيا لشروط الفهرسة والتوثيق العلمي . وهي مخطوطات تمتد عصور تاليفها من القـرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) الى اوائل القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميـلادي) . وينتسب مؤلفوها الى مختلف آفاق العالم الاسلامي ، ومنهـم عدد من المشاهير الاعلام الذين اسهمـوا بعلمهـم ومصنفاتهم اسهاما نافعا كان له أبعد الاثر في تطـور العلوم وتقدم الحضارة البشرية ، ومن هؤلاء ثابت بن قرة الحراني ، وحنين ابن اسحاق العبادي ، وابـو الحسين الصوفي ، وقسطا بن لوقا ، وابو الريحـان البيروني ، وابو علي الحسن بن الهيثم البصري ، وابو معشر البلخي ، وابو اسحق ابن الزرقالة القرطبي ، وابن ابي الرجال الشيباني ، وابو القاسم ابن الصفار القرطبي ، وابو محمد ابن الياسمين ، وابو حامـد الغرناطي ، وابو عبيد البكري ، وابن البنـا الازدي المراكشي ، ونصير الطوسي ، ومحمـود الجغمنـي الخوارزمي ، وشمس الدين السمرقندي ، وقاضـي زادة الرومي ، والسلطان اولغ بـك ، وابن باصـة الاسلمي الاندلسي ، وابو الحسن القلصادي البسطي ، وغيرهـم ...

وفي المجموعة التي يضمها هذا الفهرس الوصفي عدد كبير من النوادر تنفرد بها الخزانة الحسنية او يعز نظيرها في خزانات الكتب الشهيرة الاخـرى ، ومن هذه النوادر مصنفات علماء ينتسبون الى اقطار المغرب الاسلامـي برزوا في الحساب والجبـر والمساحة والهيئـة والتوقيـت وآلات الرصـد المختلفـة .

ولا شك أن التعريف بمؤلفات هؤلاء ، المتوافرة في « الخزانة الحسنية » ، سوف يكون ذا فائـدة للمشتغلين بالبحث عن التراث الاسلامي ومعرفـة مظانه كما سيفيد العاملين في حقل تاريخ العلوم .

ويقول المصنف الاستاذ محمد العربي الخطابي :

« ان المجموعة التي يعرف بها هـذا الفهرس تمتاز ايضا بتنوع المادة المتصلة بالموضوع مع تعدد نسخ كثير من المؤلفات ونفاسة بعضها من حيـث الخط والتجليد والزخارف ، وكل هذا يدل على مـا يمتاز به ملوك الدولة الحسنية الشريفة من حـرص على تشجيع العلوم المختلفة ، واقتناء كتبها ورعايـة مؤلفيها ، اذ ان الكثير من مخطوطات الخزانة قد صنف

فهارس الخزانة الحسنية

قسم الوثائق

المجلد الأول

فهرس الكنانيش والسجلات الرسمية

تقديم
محمد العربي الخطابي

إعداد
عمر عمور

فهارس الخزانة الحسنية

المجلد الثالث
الفهرس الوصفي لمخطوطات الرياضيات
والفلك وأحكام النجوم والجغرافيا

تصنيف
محمد العربي الخطابي

الرباط 1403 – 1983

بطلب من ملوك هذه الدولة وتحت اشرافهم بل ان بعضهم قد عمل على نقل مؤلفات غربية من اللغات الاوربية كما فعل السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن (1276 – 1290 هـ / 1859 – 1873 م) الذي اشرف بنفسه على ترجمة موسوعة فلكية من تاليف العالم الفرنسي Joseph - Jérome (ت عام 1807) الذي خلف من الآثار كتاب (علم الهيئة Astronome والجداول الفلكية Tables Astronomiques و (الحساب الفلكي Exposition du calcul Astonomique وقد سمي الكتاب في الترجمة العربية بالجامع المقرب (انظر علم الفلك ، حرف الجيم من هذا الفهرس) كما ترجمت كتب اخرى في اللوغريتمات ، وعلم البخار . وآلات الرصد والحساب المستحدثة ، وقد عرف بها جميعا في هذا الفهرس » .

ولا شك ان المخطوطات المحفوظة بالخزانة الحسنية التي تتناول علم الرياضيات والفلك تعطينا – من جهة اخرى – صورة عن ميادين اهتمام كثير من علماء المغرب سواء بما كان متداولا بينهم من الآثار العلمية المترجمة او الاصيلة التي كانت عمدة التدريس في المعاهد والجامعات ، او بما الفوه وشرحوه من كتب ورسائل كان لعدد منها رواج في مختلف اقطار الاسلام كما كانت تروج كتب المشارقة في المغرب ، وهذا في حد ذاته مفيد جدا للدارسين والباحثين في تاريخ العلم الاسلامي .

فهرس العدد 233

الفهرس العام

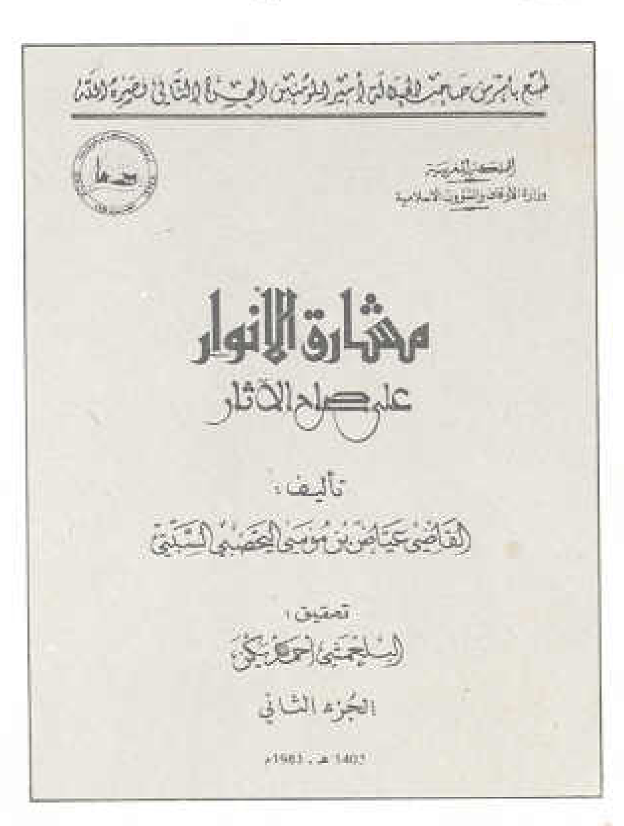
لموضوعات سنة 1983

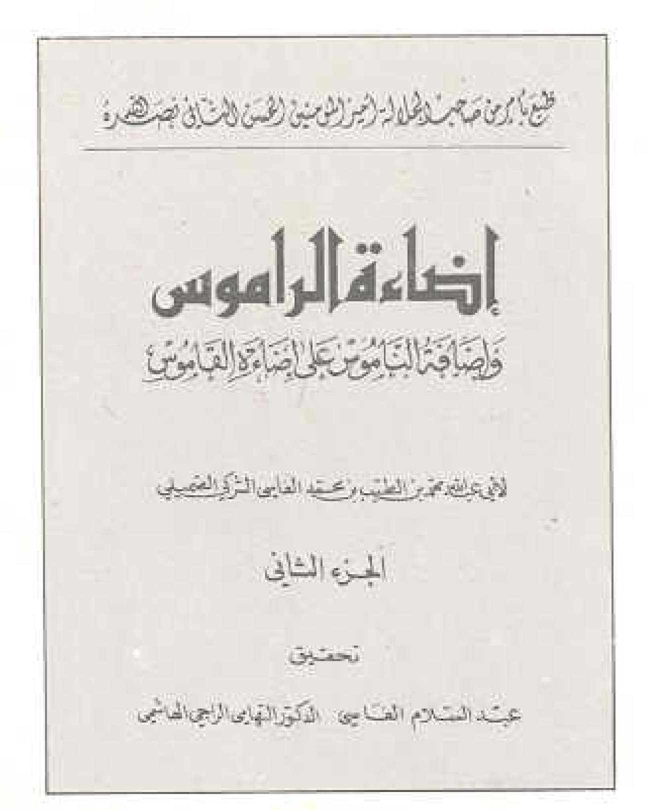
●● نظراً لظروف تقنية تتعلق بمواعيد الطبع، لم نتمكن من ادراج الفهرس العام للموضوعات المنشورة في أعداد سنة 1983 بهذا العدد. ونرجئ نشر ذلك إلى العدد القادم الخاص بعيد العرش المجيد. ●●

مطبعة فضالة . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية







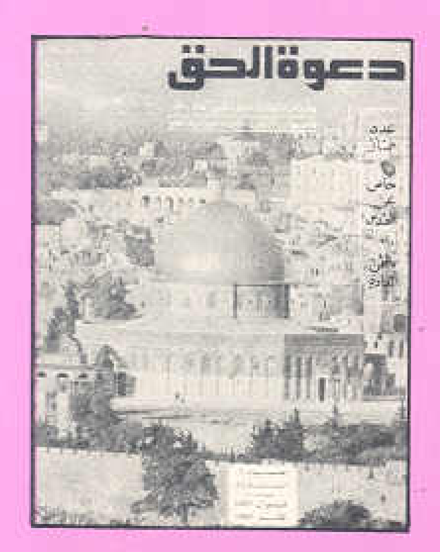


التوزيع : مكتبة الأوقاف، 5 زنقة بيروت، ساحة المامونية، الرباط



















صدر العدد الأول في يوليوز سنة 1957